الآيات الساطعة

في العبر النافعة

2274
.983
.313
V.2

2274.983.313 V.2
al-Sūdānī
al-Āyāt al-Sāṭ‘ah

2274.983.313 V.2
al-Sūdānī
al-Āyāt al-Sāṭ‘ah

DATE	ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072238254

al-Sūdānī, Mūsā Jaʻfar

الآيات الساطعة

في العبر النافعة

al-Āyāt al-sāṭiʻah

علمي ، ديني ، فلسفي ، أخلاقي

وتفسير

تأليف

الشيخ موسى الشيخ جعفر

السوداني

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة النجف ــ النجف الاشرف

٢٣ شوال ١٣٨٥ هـ

2274
.983
.313

v.2

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد النبيين وخاتم المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه المرضيين .

الفصل الثالث

في الزكاة وعلة وجوبها

وانها من أمهات العبادات ويكفي لعظمتها ان الله تعالى قد قرنها بالصلاة في عدة مواضع من القرآن قال تعالى : « فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (١) وقال تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » (٢) وقال تعالى : « ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » (٣) وقال تعالى في حق امير المؤمنين عليه السلام : « والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (٤) .

واما ما ورد فيها وعداً ووعيداً من الأخبار فهو فوق حد الاحصاء في

---

(١) سورة الحج الآية ٧٧ . (٢) سورة النور الآية ٣٧ .
(٣) سورة البينة الآية ٥ . (٤) سورة المائدة الآية ٦٠ .

الكافي باسناده عن محمد بن مسلم وابي بصير وبريد عن ابي جعفر (ع) وأبي عبدالله عليه السلام قالا : فرض الله الزكاة مع الصلاة . وقال ابو الحسن (ع) : ان الله عز وجل وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالكم . وقال ابو عبدالله (ع) لعمار الساباطي : يا عمار انت رب مال كثير قال : نعم جعلت فداك قال : فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة فقال : نعم قال : فتخرج الحق المعلوم من مالك قال : نعم قال : فتصل قرابتك قال : نعم قال : فتصل اخوانك قال : نعم فقال عليه السلام : يا عمار ان المال يفنى والبدن يبلى والعمل يبقى والديان حي لا يموت يا عمار انه ما قدمت فلن يسبقك وما أخرت فلن يلحقك ، رواه الصدوق في الفقيه . وفيه ايضاً عن معتب مولى الصادق (ع) قال : قال الصادق (ع) : إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو ان الناس أدوا زكاة اموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنى بما فرض الله له ان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء وحقيق على الله ان يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق انه ماضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة وما صيد في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في ذلك اليوم وان أحب الناس الى الله أسخاهم كفاً وأسخى الناس من أدى زكاة ماله ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله .

وفيه ايضاً كتب الرضا (ع) الى محمد بن سنان فيما كتب اليه من جواب مسائله ان علة الزكاة من اجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء لأن الله كلف اهل الصحة القيام بشأن اهل الزمانة والبلوى قال الله تعالى : « لتبلون في اموالكم وأنفسكم » (١) في أموالكم إخراج الزكاة وفي انفسكم توطينها على الصبر مع مافي ذلك من أداء شكر نعم الله والطمع في الزيادة ومع ما فيه من الرافدة والرأفة

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٣ .

والرحمة لأهل الضعف والعطف على اهل المسكنة والحث لهم على المواساة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على امر الدين وموعظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم ومالهم عن الحث في ذلك على الشكر لله لما خولهم وأعطاهم والدعاء والتضرع والخوف من ان يصيروا مثلهم في امور كثيرة في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف .

قال الصدوق : وقال ابو الحسن موسى بن جعفر (ع) : من اخرج زكاة ماله تاماً فوضعها في موضعها لم يسأل من اين اكتسب ماله .

قال : وقال الصادق (ع) : إنما جعل الله الزكاة في كل الف خمسة وعشرين درهماً لأنه تعالى خلق الخلق فعلم غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم فجعل من كل الف خمسة وعشرين مسكيناً لولا ذلك لزادهم الله لأنه خالقهم وهو أعلم بهم . هذا كله من جهة الترغيب على ادائها وبيان حكمة تشريعها .

واما الوعيد والتهديد لتاركها

قال الله تعالى : « ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون عليم » (١) .

وقال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (٢) ، وان الحث والوعيد فيها اوضح من ان يبين .

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٦ .　　(٢) سورة التوبة الآية ٣٥ ؛

وفي الحديث عن النبي (ص) ما حبس قوم الزكاة ، إلاحبس الله عنهم القطر

وعنه (ص) ايضاً انه قال : ما خالطت الزكاة مالا إلا وأهلكته .

وقال رفاعة بن موسى : سمعت ابا عبدالله (عليه السلام) يقول : ما فرض الله على هذه الأمة اشد عليهم من الزكاة وفيها تهلك عامتهم .

وروى الصدوق عن حريز عن ابي عبدالله (عليه السلام) انه قال : ما من ذي ذهب اوفضة يمنع زكاة ماله ، إلاحبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر(١) وسلط عليه شجاعاً (٢) اقرع يريده وهو يحيد عنه فاذا رأى انه لا يتخلص منه انكسه فقضمها (٣) كما يقضم الفحل ثم يصير طوقاً في عنقه سيطوقون ما بخلوا به ، وما من ذي إبل او بقر او غنم يمنع زكاة ماله إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر تطأه كل ذات ظلف بظلفها وينهشه كل ذات ناب بنابها ، وما من ذي نخل او كرم او زرع يمنع زكاته إلا طوقه الله ربعة ارضه إلى سبع ارضين الى يوم القيامة .

وفي الكافي عن محمد بن مسلم قال : سألت ابا عبدالله (عليه‌السلام) عن قول الله عز وجل : سيطوقون ... الخ ، فقال : يا محمد ما من احد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب ، ثم قال : هو قول الله عز وجل : « سيطون ما بخلوا به يوم القيامة .

وروى الطبرسي عن النبي (ص) انه لما نزلت هذه الآية قال (ص) : تباً للذهب والفضة يكررها ثلاثاً فشق ذلك على اصحابه فسأله عمر أي المال نتخذ ؟ فقال (ص) : لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة .

وعن امير المؤمنين (عليه السلام) ما زاد على اربعة آلاف فهو كنز أدى

---

(١) أي مستو مصباح . (٢) حية رأسها أبيض لكثرة سمه .

(٣) المراد قضم يده .

زكاته أم لم يؤد .

وفي التهذيب عن الصادق (ع) ما اعطى الله عبداً ثلاثين الف وهو يريد به خيراً . وقال : ما جمع رجل قط عشرة آلاف من حل وقد يجمعها لأقوام إذا اعطي القوت ورزق العمل فقد جمع الله له خير الدنيا والآخرة .

وروى ثوبان عن النبي (ص) من ترك كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً اقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما انت فيقول : انا كنزك الذي تركت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده .

هذا كله وارد على حسب الظاهر وعداً ووعيداً حيث هو تكليف كسائر التكاليف لفاعله الأجر وعلى تاركه الوزر .

أسرار حكمة بذل المال

واما البواطن لهذا التكليف بالزكاة ودقائق الفوائد لبذل المال فهي ان المؤمن إذا أقر بالتوحيد باللسان لزمه الاذعان به بالجنان ، ومعنى التوحيد هو إفراد المعبود بالمحبوبية وتخليص القلب عمن سواه وتفريغه عن كل ما عداه ، فان المحبة الخالصة لا تقبل الشركة وقد جبلت النفوس على حب الأموال لأنها آلة متاع الدنيا وبها يأنسون في عالمها فجعل سبحانه بذل المال امتحاناً واختباراً لهم وليكون البذل منهم تصديقاً لدعوتهم محبة الله تعالى ، وهم في ذلك على اصناف ثلاثة : فمنهم من حذفوا عن ساحة قلوبهم ما سوى المعبود وبذلوا اموالهم غير ملتفتين إلى وجوب زكاة او غيرها ولم يدخروا لأنفسهم ديناراً ولا درهماً ولم يتركوا من بعدهم صفراء ولا بيضاء وهم الذين قال الله في حقهم : ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ،

قاصدين تفريغ قلوبهم لحب الله عن كل شاغل .

روي في الكافي عن محمد بن سنان عن المفضل قال : كنت عند ابي عبدالله (عليه السلام) فسأله رجل في كم تجب الزكاة من المال ؟ فقال (ع) له : الزكاة الظاهرة أم الباطنة ؟ فقال : اريدهما جميعاً ، فقال (ع) : اما الظاهرة ففي كل الف خمسة وعشرين . واما الباطنة فان لا تستأثر على اخيك بما هو احوج اليه منك .

ومنهم الصنف الثاني : وهم دون الأول ، وهم الممسكون لأموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات فيكون قصدهم في الادخار هو الانفاق على انفسهم وعوائلهم بقدر الحاجة وصرف الفاضل في وجوه البر عند ظهورها واغتنام فرصة وجودها ومسابقة الغير عليها غير مقتصرين على مقدار الزكاة وهم الذين في اموالهم حق للسائل والمحروم .

روي في الكافي عن ابي بصير قال : كنا عند ابي عبدالله (عليه السلام) ومعنا بعض الأموال فذكروا الزكاة فقال عليه السلام : إن الزكاة ليس يحمد صاحبها وإنما هو شيء ظاهر إنما حقن بها دمه وسمي بها مسلماً ولو لم يؤدها لم تقبل له صلاة وان عليكم في اموالكم غير الزكاة فقلت : اصلحك الله وما علينا في اموالنا غير الزكاة ؟ فقال (ع) : سبحان الله أما تسمع قوله تعالى : والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، قلت : ماذا الحق المعلوم الذي علينا ؟ قال (عليه السلام) : هو الشيء يعلمه الرجل في ماله يعطه في اليوم او في الجمعة او في الشهر قل او كثر غير انه يدوم عليه .

وعن اسماعيل بن جابر عن ابي عبدالله (ع) في قول الله عزوجل : والذين في اموالهم حق معلوم .. الخ ، أهو سوى الزكاة ؟ فقال (ع) : هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه .

وعن القاسم ابن عبد الرحمن الأنصاري قال : سمعت ابا جعفر (ع) يقول إن رجلا جاء إلى ابي علي بن الحسين (ع) فقال له : اخبرني عن قول الله عزوجل والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ما هذا الحق المعلوم ؟ فقال له علي ابن الحسين (ع) : الحق المعلوم الشيء يخرجه الرجل من ماله ليس من الزكاة ولا من الصدقة المفروضين ، قال : فاذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو ؟ فقال (ع) : هو الشيء يخرجه الرجل من ماله أقل إن شاء او اكثر على قدر ما يملك ، فقال له الرجل : فما يصنع به ؟ قال : يصل به رحماً ويقوي به ضعيفاً ويحمل به كلا او يصل به أخاً له في الله او لنائبة تنوبه ، فقال الرجل : الله اعلم حيث يجعل رسالته .

واما الصنف الثالث فيقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون وهي أدنى المراتب .

ومن أسرارها

انها مطهرة من صفة البخل ومقاومة لها ، والبخل صفة ذميمة ومن جنود إبليس قال سبحانه : خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وقال سبحانه: ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

ومن اسرارها انها شكر للنعمة وهو واجب عقلا وشرعاً فالعبادات البدنية شكر لنعمة الأبدان والعبادات المالية شكر لنعمة المال . وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه رزقه وانتقع لونه من مس الجوع ثم لا تسمح له نفسه ان يؤدي شكر الله تعالى حيث أغناه عن السؤال ولم يجعله مثل هذا الفقير الذي يراه ولم يحوجه إلى غيره كما أحوج غيره اليه .

ومن أسرارها ان النفس الناطقة لها قوتان نظرية وعملية فالقوة النظرية كما لها في التعظيم لله تعالى والقوة العملية كما لها في الشفقة على خلق الله فأوجب سبحانه الزكاة ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال وهو اتصافه بكونه محسناً إلى الخلق ساعياً في إيصال الخيرات اليهم دافعاً للآفات عنهم مشفقاً وحانياً عليهم . كما حصلت له النظرية بتعظيم الله في الصلاة وأمثالها فيجمع القوتين معاً .

ومن أسرارها ان المال سمي مال لميل الناس اليه وهو في معرض التلف والزوال مهما دام في اليد فهو غاد ورائح وإذا انفق في الخير ووجوه البر بقي بقاء لا يزول يوجب الثناء بالجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة .

ومن أسرارها ان كثرة المال موجبة لحصول الطغيان والتكبر والتجبر والانحراف عن سبيل الرحمن قال الله عزوجل : إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى فأوجب الله الزكاة وغيرها من البذل والانفاق لتقليل سبب الطغيان وجبراً لمفسدته إلى غير ذلك من الأسرار التي يستخرجها العقل السليم بأدنى تأمل .

الزكاة على قسمين

وحاصل ما تقدم ان الزكاة والمعبر عنها بالصدقة ايضاً في كثير من الأخبار صدقة مفروضة يستحق تاركها العقاب وصدقة مندوبة يستحق تاركها اللوم والعتاب وقد ورد في المندوبة من الترغيب بل من الترهيب ايضاً في الكتاب والسنة ما لا يحصى ، ولنذكر شيئاً من ذلك في هذا الفصل لجامع اسم الزكاة وعظيم فوائدها وجليل مكاسبها وقد قال سبحانه : « إن الله يجزي المتصدقين » (١) .

ومن فوائد الصدقة انها تدفع ميتة السوء . فعن الباقر (ع) ان الصدقة

(١) سورة يوسف الآية ٨٩

لتدفع سبعين بلية من بلايا الدنيا مع ميتة السوء ان صاحبها لا يموت ميتة السوء ابداً مع ما يدخر لصاحبها من الأجر .

مر يهودي بالنبي (ص) فقال : السام عليك فقال اصحابه : إنما سلم عليك بالموت وقال : الموت عليك فقال (ص) : وكذلك رددت ، ثم قال (ص) : إن هذا اليهودي يعضه أسود في قفاه فيقتله فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثم لم يلبث ان انصرف فقال له رسول الله (ص) : ضع الحطب فوضعه فاذا اسود في جوف الحطب عاض على عود فقال (ص) : يا يهودي أي شيء عملت اليوم ؟ قال : ما عملت إلا حطبي هذا احتملته وجئت به وكان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين فقال (ص) : بها دفع الله عنك ثم قال (ص) : إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الانسان .

وقال رسول الله (ص) : إن الصدقة تسد سبعين باباً من الشر .

وعنه (ص) يقول : ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من الطعام .

وقال (ص) : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، وكان (ص) يناول المسكين بيده .

وعنه (ص) ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا كان في حفظ الله ما دامت منه رقعة .

وقال (ص) ما نقص مال من صدقة وما زاد الله بعبد عفواً إلا عزاً ولا تواضع إلا رفعة .

وقال امير المؤمنين (ع) : إذا وجدت من اهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج اليه فاغتنم حمله إياه .

وروي عن رسول الله (ص) انه قال : لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وان سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء والصدقة تدفع ميتة السوء

وقال (ص) : تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم

على عدوكم . وقيل عن بعضهم : ما اعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الصدقة .

وقال بعض الحكماء : الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يوصلك إلى باب الملك والصدقة تدخلك عليه .

وفي كتاب ثواب الأعمال عن الصادق (ع) من اشبع جوعة مؤمن وضع الله له مائدة في الجنة يصدر عنها الثقلان جميعاً . وفيه عنه (ع) من اشبع جائعاً اجرى الله له نهراً في الجنة . وفيه عنه (ع) من اشبع كبداً جائعاً وجبت له الجنة وفي المحاسن عنه (ع) من اطعم مسلماً حتى يشبعه لم يدر أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا رب العالمين .

وقال رسول الله (ص) : حصنوا اموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا البلاء بالدعاء فانه لن يهلك مال في بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة .

وقد تواترت الروايات عن اهل البيت (ع) في الحث عليها والترغيب فيها فقد ورد ان الصدقة دواء المريض وبها يدفع البلاء وقد ابرم إبراماً وبها يستنزل الرزق وانها تخلف البركة وبها يقضى الدين وانها تزيد في المال وانها تدفع ميتة السوء والداء والدبيلة والحرق والغرق والجذام والجنون إلى ان عد سبعين باباً من السوء . وورد انها تقع في يد الرب قبل ان تقع في يد العبد .

ففي كتاب انوار النعمانية (١) كان الصادق (ع) إذا اعطى سائلا درهماً او نحوه اخذه من يد السائل فقبله ووضعه على عينيه ثم دفعه اليه مرة ثانية فقيل له في ذلك فقال : لأن درهم الصدقة اول ما يقع في يدي الله تعالى فأحب ان أتشرف به وأعظمه لمكان يدي الله . وكان الكاظم (ع) يتصدق بالسكر والحلوى فقيل له عن سببه فقال (ع) : إن الله تعالى يقول : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وأنا احب السكر والحلوى فأحب ان أتصدق بها .

(١) ج ٣ ص ٣١١ .

وفي الرواية إن الله امهل فرعون ومد له في الملك مع ما كان عليه من الكفر انه كان إذا حضرت موائده امر بفتح الأبواب ورفع الحجاب وكان كل من يمر على بابه من الفقراء والأيتام يأكل من طعامه . وفي رواية اخرى انه كتب على باب قصره بسم الله الرحمن الرحيم فلما تعجل موسى (ع) نزول العذاب عليه اوحى الله اليه يا موسى انت تنظر إلى كفره وأنا انظر إلى ما كتب على باب قصره

وروي ان رجلا من اهل مصر رفع إلى فرعون عنقود عنب وقال له : انت ربنا فأطلب منك ان تحول هذا العنب لؤلؤاً كباراً فأخذ العنقود من يده ودخل بيتاً من بيوته وأغلق عليه الأبواب وجلس يتفكر كيف يصنع في ذلك الأمر فأتى اليه الشيطان ودق عليه الباب فقال فرعون : من بالباب ؟ فقال إبليس ظرطتي بلحية رب لا يدري من بالباب فعرفه فرعون فقال : ادخل يا ملعون فقال إبليس : ملعون يدخل على ملعون فدخل عليه فرآه متحيراً متفكراً فأخذ العنقود وقرأ عليه اسماً فصيره عنقوداً من اللؤلؤ فقال له : يا فرعون انصف من نفسك أنا في هذا العلم والكمال وما قبلوني ان اكون عبداً وانت في هذا الجهل والحماقة تريد ان تكون رباً فقال له فرعون : لِمَ لا سجدت لآدم حين امرت بالسجود له ؟ فقال له إبليس : لأني علمت ان مثلك في صلبه .

بشارة للمتصدقين

في كتاب دار السلام (١) عن بعض الصالحين قال : كان لي أخ صالح توفى فرأيته في المنام فقلت له : ما فعلت ؟ قال : لما دفنوني أتاني ملائكة غلاظ شداد وسحبوني عنفاً إلى جهنم وقد فتحت ابوابها والدخان يصعد منها وقد اشتد

(١) ج ٢ ص ٣٤٢ .

شرارها وهي تكاد تميز من الغيظ فأيقنت بالهلاك فبينما أنا كذلك فاذا أنا بجارية وضيئة تقول لي : لا تخف ولا تحزن فان الله تعالى ربك وهبك لي فقامت بيني وبين النار فرد الله تعالى شرارة النار عني فقلت : من انت ؟ قالت : أنا صدقتك التي كنت تعطيها سراً ثم نادى مناد من تحت العرش ادخلوا عبدي من باب المغفرة في الجنة فادخلوني فيها .

وعيد لتاركي الصدقة

ففي كتاب دار السلام (١) بسنده انه دخلت على عائشة امرأة شلاء فسألتها عائشة عن سبب شللها فقالت : إن ابي كان يحب الصدقة وامي تبغضها وما تصدقت في عمرها بشيء إلا مقدار من الشحم ومقدار من الخلقة (٢) فرأيت في المنام ان القيامة قد قامت ورأيت امي تستر عورتها بتلك الخلقة وبيدها تلك القطعة من الشحم تلحسها من العطش فذهبت عند ابي فرأيته جالساً على شفير حوض يسقي الماء فاستقيته قدحاً من الماء فسقيت امي فنوديت من فوقي من سقاها اشل الله يده فانتبهت من نومي وقد شلت يدي .

ويستحب التبكير بها لدفع شر اليوم وفي اول الليل يدفع بها شر الليل .

وعن الصادق (ع) قال : بكروا بالصدقة وارغبوا فيها فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما عند الله ليدفع الله بها عنه شر ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم إلا وقاه الله شر ما ينزل في ذلك اليوم .

وعنه (ع) اني لأملق أحياناً فأتاجر الله بالصدقة .

---

(١) ج ٢ س ٣٤١ . (٢) رقعة الثوب .

أقسام الصدقة تتفاوت ثوابا

وهي خمسة أجزاء العامة الواحد بعشر وعلى ذوي العاهات الواحد بسبعين وعلى ذي الرحم الواحد بسبعمائة وعلى ذوي العلم الواحد بسبعة آلاف وعلى الموتى الواحد بسبعين الف والله يضاعف لمن يشاء (١) .

ومن اقسامها الصدقة في السر والصدقة في العلن ولكل منهما فضل حسب النيات واقتضاء المقامات ، قال الله تعالى : « إن الذين يتلون الكتاب وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور » (٢) .

فعبر سبحانه عن الانفاق والصدقات بانها تجارة ومن طبيعتها تستوجب الربح والزيادة وانها ليست بائرة بل تجارة رائجة ورابحة ، ثم قال تعالى : يوفيهم اجورهم فكأنه مدين لهم بأجرة مقابل اعمالهم وإنفاقهم ويريد وفاءهم كل ذلك ترغيب وتعهد بالعوض المضاعف حيث لم يرض لذاته القدسية بالاقتصار على الوفاء فقط بل تعهد بالزيادة بقوله : ويزيدهم من فضله كما هو شأن الكرماء عند مقابلة الاحسان وهو جل شأنه اكرم الكرماء .

وقد روى في الكافي عن ابي جعفر (ع) وابي عبدالله (ع) قالا : قال رسول الله (ص) : صدقة السر تطفي غضب الرب .

وعن عمار الساباطي قال : قال لي ابو عبدالله (ع) : يا عمار الصدقة والله

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٣ وصدر الآية مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء .

(٢) سورة فاطر الآية ٢٦ .

في السر أفضل من الصدقة في العلانية وكذلك والله العبادة في السر أفضل منها في العلانية .

وعن معلى بن خنيس قال : خرج ابو عبدالله (ع) في ليلة قد رشت وهو يريد ظلة بني ساعدة فاتبعته فاذا قد سقط منه شيء فقال : بسم الله اللهم رد علينا قال : فأتيته فسلمت عليه فقال (ع) : معلى قلت : نعم جعلت فداك فقال لي : التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إلي فاذا أنا بخبز منتشر فجعلت أدفع اليه ما وجدت فاذا أنا بجراب أعجز عن حمله من خبز فقلت : جعلت فداك أحمله على رأسي فقال : لا أنا أولى به منك ولكن امضي معي قال : فأتينا ظلة بني ساعدة فاذا نحن بقوم نيام فجعل يدس الرغيف والرغيفين حتى اتى على آخرهم ثم انصرفنا فقلت : جعلت فداك يعرف هؤلاء الحق قال : لو عرفوه لواسيناهم بالدقة (١) إن الله لم يخلق شيئاً إلا وله خازن يخزنه إلا الصدقة فان الرب يليها بنفسه وكان ابي إذا تصدق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتده منه فقبله وشمه ثم رده في يد السائل ان صدقة الليل تطفي غضب الرب وتمحو الذنب العظيم وتهون الحساب وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر .

إن عيسى بن مريم (ع) لما مر على شاطىء البحر رمى بقرص من قوته في الماء فقال له بعض الحواريين : يا روح الله وكلمته لمَ فعلت هذا وإنما هو من قوتك ؟ قال : فعلت هذا لدابة تأكله من دواب الماء وثوابه عند الله عظيم .

واما صدقة العلانية فانها تدفع ميتة السوء كالغرق والحرق والهدم ونحوها ولعل أفضلية صدقة السر لبعدها عن شبهة الرياء وقد تكون العلانية هي مقتضى المقام كما لو كان المقصود تشجيع الآخرين او لاظهار حاجة الشخص المتصدق عليه ليساعده الغير إلى غير ذلك من المناسبات فيترجح حينئذ التصدق نهاراً وعلناً

(١) للمح .

وعن الصادق (ع) إن الصدقة باليد تقي ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من انواع البلاء وتفك عن لحيي سبعين شيطاناً كلهم يأمره ان لا يفعل .

وعنه (ع) ايضاً بلفظ آخر انه قال (ع) : إن درهم الصدقة يفك بين لحيي سبعمائة شيطان كلهم يعضون عليه بأضراسهم . ومن الذي يكون له من قوة الايمان بالخلف منه تعالى كي يقابلهم إلا القليل .

وروي ان رجلا عابداً كان جالساً مع العباد فقرأ احدهم هذا الخبر فقال ذلك العابد : أنا هذه الساعة امضي إلى منزلي وأتصدق بصدقة وأرى كيف تمنعني الشياطين فخرج مبادراً إلى المنزل فدخله وأتى إلى الحنطة وبسط رداءه فأخذ به حنطة ليتصدق بها فرأته زوجته فقالت : إلى اين تريد بهذه الحنطة ونحن في هذه السنة المجدبة لعلك تريد ان تهلك اولادك جوعاً فسولت له الأباطيل حتى ندم ورمى بالحنطة وأتى إلى اصحابه فقالوا : لعلك تصدقت بشيء والشياطين لم يحضروك فقال : إن الشياطين لم يحضروا ولكن كانت امهم حاضرة فقامت مقامهم في قوة المنع يعني بها زوجته ولا شك ان الواحدة منهن ربما تقوم مقام آلاف من الشياطين ، ومن هنا قال (ص) : شاوروهن وخالفوهن فان الرشد في خلافهن وكان (ص) يفعل كذلك ، وفي الحديث انه ما أيس الشيطان من بني آدم إلا وأتاهم من قبل النساء وهن اعظم فخوخه ومصائده . وان كل فتنة وقعت في العالم هن اساسها وذلك ان الفتنة الأولى وهي أكل آدم من الشجرة وإخراجه إلى الأرض كانت من قبل حواء لما لم يقبل آدم وساوس إبليس ولم يأكل منها وسوس إلى حواء وجاءت وحملت آدم على الأكل من الشجرة كما فصلناه في محله من هذا الكتاب .

واما الفتنة الأخيرة التي نشأ منها فساد الدين والدنيا وهي غصب الخلافة والاستظهار على امير المؤمنين عليه السلام والاتفاق على عداوته فانما هو من قبل

ام المؤمنين وعداوتها وحسدها لفاطمة الزهراء عليها السلام بسبب ما كان يظهره رسول الله (ص) من حبها وتعظيمه لها ولولديها الحسن والحسين (ع) وكثرة اختلائه بعلي (ع) لزقه العلم الرباني فغارت عائشة من مجموع هــذا وأضمرت العداوة لهم (ع) ثم تخطت العداوة إلى الرجال الكثرة ما يذكرن لهم من ذلك وكان ما كان ولم يكفها فعلهم معه لشدة حنقها عليه (ع) حيث رأت رجوع الأمر اليه فقامت بنفسها أفظع قيام ولو صدر عشر معشاره من غيرها لحكم بكفر من قام به كما حكموا بكفر مالك بن نويرة وبردته وهو الصحابي العظيم وقتله وسبي ذراريه والدخول بزوجته إلى غير ذلك من نكبات الدين والاسلام كل ذلك حيث قال : انما ندفع زكاة أموالنا لمن نصبه رسول الله (ص) يوم الغدير إماماً لنا ولم يخرج عن الملة ولم يشهر سيفاً ولم يقطع طريقاً ، وان أم المؤمنين قد خرجت على إمام زمانها وجمعت الجيوش على حربه وقطعت آلاف الأميال بارزة أمام الرجال هاتكة ستر رسول الله (ص) سافكة لدماء آلاف من المسلمين ولم تخرج بذلك عن كونها أم المؤمنين فضلا عما تستحقه من عقاب رب العالمين ونعم الحكم الله بينها وبين امير المؤمنين بل بينها وبين عموم المؤمنين .

القرآن الكريم يمدح المتصدقين ويذم التاركين

قال الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الانسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يقول أهلكت مالا لبداً أيحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة » ... الخ .

ولنبدأ بذكر بعض الأحاديث لايضاح ارتباط الآيات الكريمة بموضوع الصدقات ثم نذكر المعني من السورة .

روي عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى النبي (ص) فقال : يا رسول الله علمني عملا يدخلني الجنة قال (ص) : إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة فقال : أو ليسا واحداً ؟ قال (ص) لا عتق النسمة ان تنفرد بعتقها وفك الرقبة ان تعين في ثمنها والفيء على ذي الرحم الظالم فان لم يكن ذاك فاطعم الجائع واسق الظمآن وامر بالمعروف وانه عن المنكر فان لم تطق ذاك فكف لسانك إلا عن الخير .

وفي الحديث عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله (ص) : من أشبع جائعاً في يوم سغب أدخله الله يوم القيامة من باب من ابواب الجنة لا يدخلها إلا من فعل مثل ما فعل .

وعن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله (ص) : من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان .

وروي عن محمد بن عمر بن يزيد قال : قلت لأبي الحسن الرضا (ع) : إن لي إبناً شديد العلة قال : مره أن يتصدق بالقبضة من الطعام بعد القبضة فان الله يقول فلا اقتحم العقبة وقرأ الآيات .

(المعنى)

قيل : إن لا غير نافية ومعناه أقسم بهذا البلد وأن لا رد على منكري البعث والنشور فكأنه قال : لا كما تظنون ثم ابتدأ القسم ولذا أجمع المفسرون على انه قسم بالبلد الحرام وهو مكة ومعنى وانت حل بهذا البلد ، أي وانت يا محمد

مقيم به وهو محلك وهذا تنبيه على شرف البلد بشرف من حل به وهو الرسول الداعي إلى توحيده وإخلاص العبادة له كما سميت المدينة طيبة لأنها طابت به حياً وميتاً . وقيل : معناه وانت محل بهذا البلد وهو ضد المحرم والمراد والحال انك حلال لك قتل من رأيت قتله من الكفار وذلك حين أمر بالقتال يوم فتح مكة فأحلها الله له وقال (ص) : لا يحل لأحد قبلي ولا لأحد بعدي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار وهذا وعد من الله تعالى له كاخبار بالغيب ليكون معجزة له (ص) وقد أنجز له وعده ودخلها غلبة وكرهاً وقتل ابن أخطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما .

وقيل : إن معناه على النبي أي لا أقسم بهذا البلد وانت حل فيه أي منهتك الحرمة مستباح العرض لا تحترم فلم تبق للبلد حرمة حيث هتكت حرمتك وهو المروي عن ابي عبدالله (ع) قال : كانت قريش تعظم البلد وتستحل محمداً (ص) فيه فعاب الله تعالى ذلك عليهم .

ثم عطف على القسم فقال : ووالد وما ولد ـ يعني آدم وذريته ـ لأن خلقتهم أعجب وأعظم من هذه الخلقة وايضاً فهم عمار الدنيا وأصلها وقيل : أراد آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم لشرفهم عن ابي عبدالله (ع) وقيل يريد ابراهيم وولده حيث هما بنيا البيت وقيل : يعني كل والد وولده . ثم قال : لقد خلقنا الانسان في كبد ـ أي في نصب وتعب ـ عن ابن عباس قال : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة ، وقال : إن ابن آدم لا يزال يكابد أمراً حتى يفارق الدنيا .

نعم ان الانسان في كبد في هذه الدنيا غير أن ذوي العقول منهم يتعقب اتعابهم الهناء والراحة ومتبعي الشهوات يتعقب اتعابهم ما هو أشد منها فيجمع الشدتين وهذا ما يعنيه ابن عباس . وقيل معناه في شدة من خلقه في حمله وولادته

ورضاعه وفطامه ومعاشه وحياته وموته ، ثم إنه سبحانه لم يخلق خلقاً يكابد مثل ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق . وقيل : إن معنى في كبد أي قائماً على قدميه منتصباً وكل شيء خلق مكباً إلا الانسان فانه خلق منتصباً فالكبد الاستواء والاستقامة . وقيل : هو شدة الأمر والنهي أي إنا خلقناه ليعبدنا بالعبادات الشاقة وليمتثل تكاليفنا مثل الاغتسال من الجنابة في البرد والقيام إلى الصلاة من لذة النوم وأمثالها .

والمقصود من مجموع ذلك هو أن يعلم الانسان ان الدنيا دار كبد ومشقة وان الجنة هي دار الراحة والنعمة فلا يأمل الراحة في الدنيا ويشتغل بتحصيلها عن آخرته فيخسر الراحة في الدارين معاً . ويؤيده ما ورد من الحديث القدسي اني خلقت خمسة أشياء وجعلتها في مظان والناس يطلبونها في غير مظانها فلا يجدونها وعد منها الراحة فان الله تعالى جعلها في الجنة والناس يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها وبعد هذا البيان من الخالق الخبير فمن السفه إذاً طلب الدنيا للدنيا نعم تطلب وتستخدم لتعمير الآخرة وتأمين الراحة فيها فتكون كبضاعة لدى العامل يكسب بها النعيم السرمدي . ثم قال سبحانه : أيحسب أن لن يقدر عليه احد ، أي يظن هذا الانسان انه لا يقدر على عقابه احد إذا عصى الله وركب القبائح فبئس الظن هذا . وقيل : إن معناه أيحسب هذا المغتر بماله الحريص على جمعه والبخيل بانفاقه ومانع حقوقه أن لا يقدر احد على أخذه منه وإتلافه عليه . وقيل : إن معناه أيحسب أن لا يسأل عن هذا المال من اين اكتسبه وفيماذا أنفقه . وقيل : إنه تعالى يقصد ابا الأشدين وهو رجل من جمح كان قوياً شديد الخلق بحيث كان يجلس على أديم عكاظي فتجره العشرة من تحته فينقطع ولا يبرح من مكانه ثم اخبر تعالى عن مقالة هذا الانسان بقوله : يقول اهلكت مالا لبداً أي أهلكت مالا كثيراً في عداوة النبي (ص) يفتخر بذلك فالله تعالى ينكر عليه هذا

وكأنه يقول كان الأحرى به ان يبذل ماله في نصرة النبي (ص) كما فعلت خديجة وقد فازت بذلك فوزاً عظيما .

وقيل : هو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وذلك انه اذنب ذنباً فاستفتى رسول الله (ص) فأمره ان يكفر فقال : لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد (ص) .

فقال تعالى جواباً له : أيحسب أن لم يره احد فيطالبه من اين اكتسبه وفيماذا أنفقه .

وروي عن ابن عباس عن النبي (ص) انه قال : لا تزول قدما العبد حتى يُسأل عن اربعة : عن عمره فيما افناه ، وعن ماله من اين جمعه وفيماذا انفقه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن حبنا اهل البيت .

وقيل : إنه كان كاذباً لم ينفق ما قاله فقال سبحانه : أيظن ان الله لم ير ذلك فعل أو لم يفعل انفق أو لم ينفق وهو الذي يعلم السر وأخفى كل ذلك ترغيب في الانفاق والتصدق وانه بمنظر منه تعالى ويخلف منه وجزاء ، ثم ذكر سبحانه النعم التي انعم بها عليه ليستدل بها على توحيده وعظيم قدرته فقال : الم نجعل له عينين ليبصر بهما آثار حكمته وإتقان صنعته ولساناً وشفتين لينطق بهما فيبين باللسان ويستعين بالشفتين على البيان فنعم الله علينا متظاهرة فقررنا بها على طريقة الاستفهام كيما نشكره عليها .

وروي عن رسول الله (ص) انه قال : إن الله يقول : يابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق .

ثم قال تعالى : وهديناه النجدين اي سبيل الخير والشر . وقيل : معناه

ارشدناه إلى الثديين .

وروي انه قيل لأمير المؤمنين (ع) : إن اناساً يقولون في قوله تعالى : وهديناه النجدين انها الثديان فقال : لا هما الخير والشر .

وعن رسول الله (ص) انه قال : يا ايها الناس هما نجدان نجد الخير ونجد الشر فما الذي جعل نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير . ومعنى الهداية إلى الخير والشر، أي يريه مصلحة الخير بالأمر به ومفسدة الشر بالنهي عنه كي يأخذ بالأول ويترك الثاني لا كما يقول الجاهلون بعدالته تعالى بأن الخير والشر من الله وان العبد مدفوع إلى فعل الشر من قبله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم قال تعالى : فلا اقتحم العقبة قيل في معناه اقوال احدها ان المعنى فلم يقتحم هذا الانسان الذي وصفناه بقوله : أهلكت مالا لبداً ... الخ، العقبة ولم يجزها لأن اقتحامها بفك الرقبة وإطعام الجائع والصدقة وهو يعز عليه بذل المال . وثانيها ان يكون على وجه الدعاء عليه ، أي لا وفق لاقتحامها لما هو عليه من البخل والحرص . ثالثها على معنى الانكار ، أي فهلا اقتحم العقبة هـــذه وجوه معنى الاقتحام .

واما معنى العقبة وما هو المراد منها فقيل : إنه مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان ليجوز إلى اعمال الخير والبر فهذه عقبات تصد عن فعل الخير فمن اقتحمها وجازها ولم تصده فقد وفق فجعل ذلك كتكليف صعود العقبة الشاقة الكؤود مجازاً فكأنه قال : إن المؤمن لم يجعل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والاطعام لسهولته عليه لانطباعه على فعل الخير فلم يقتحم بذلك عقبة ، وقيل : إنها عقبة حقيقية قال قتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله تعالى .

وروي عن النبي (ص) انه قال : إن أمامكم عقبة كؤداً لا يجوزها المثقلون

وأنا اريد ان اخفف عنكم لتلك العقبة . وقيل : هي النار نفسها . وقيل : إنها الصراط يضرب على جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سهلا وجبلا وصعوداً وهبوطاً وان في جنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان فمن بين مسلم وناج ومخدوش ومكدوس وفي الناس منكوس فمن الناس من يمر عليه كالبرق الخاطف ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف ومنهم من يمر عليه كالفارس ومنهم من يمر عليه كالرجل يعدو ومنهم من يمر عليه كالرجل يسير ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم الزالون والزالات ومنهم من يكردس في النار واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . ثم قال تعالى : ثم كان من الذين آمنوا ، اي ان المعتق والمطعم إنما يثمر له بره وخيره بشرط ان يكون من جملة المؤمنين الذين استقاموا على إيمانهم ولم يبدلوا ، ثم قال تعالى : وتواصوا بالصبر على فرائض الله والصبر عن معاصي الله ، أي وصى بعضهم بعضاً وتواصوا بالمرحمة والعطف على اهل الفقر والمسكنة والفاقة ، ثم قال سبحانه في اوسمتهم المعطاة لهم من قبله تعالى : اولئك اصحاب الميمنة ، أي يؤخذ بهم ناحية اليمين ويأخذون كتبهم بأيمانهم لأن ذلك شعار المرضيين عند ربهم لأهل المحشر . وقيل : معناه هم اصحاب اليمن والبركة ثم قال تعالى في بيان حال مضادهم والذين كفروا ، أي بما انزلنا وبآياتنا هم اصحاب المشأمة أي يأخذون كتبهم بشمالهم او يأخذ بهم ذات الشمال لأن شعار العصاة هذا لأهل المحشر ايضاً . وقيل : معناه انهم اصحاب الشؤم على انفسهم ثم يختم السورة بقوله تعالى : عليهم نار موصدة ، أي مطبقة ، وقيل : إن ابوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لهم باب ولا يخرج عنها غم ولا يدخل فيها روح ابد الأبدين .

وقد ذكرنا السورة بكاملها لعظيم فوائدها .

الخلاصة من السورة

اولا ان ليس في الدنيا اي راحة لأي إنسان وإن كان ملكا فيها لأنه خلق من كبد فمن السفه طلب الراحة فيها .

ثانياً ان لايأخذ الانسان الغرور والعجب بما يرى له من قوة مال اوبدن لأن قدرة الله وقوته فوق ذلك وقد قهره بالموت ومفارقة الأموال والأولاد « أيحسب ان لن يقدر عليه احد » .

ثالثاً ان لا يشوب اعماله بكذب ورياء وان يقول فعلت وهو لم يفعـل « أيحسب ان لم يره احد » وهو سبحانه العالم بالسرائر .

رابعاً ان يتذكر على الدوام نعم الله تعالى عليه ليشكر فتزداد ويعبد فيؤجر وفي مقدمة النعم نعم بدنه وجوارحه التي لو عدم منها عضو واحد لتعطلت اعماله وتنغصت لذاته وأهمها من الظواهر العينان واللسان وتتبعهما الشفتان « الم نجعل له عينين ولساناً وشفتين » .

خامساً انقطاع حجة الانسان في يوم القيامة وعدم قبول الاعتذار منه بانه ما علم « وهديناه النجدين » .

سادساً الانذار منه تعالى وإن شئت فقل النصيحة العظمى لعباده بأن هناك عقبة سواء فسرت بالجسر على جهنم او نفس جهنم او بمجاهدة النفس والهوى والشيطان في صدها عن اعمال البر والخير لابد لنا من اقتحامها واجتيازها وذلك بالسماحة وطلاقة اليد بالصدقات وسائر الخيرات « وما ادراك ما العقبة فك رقبة او إطعام في يوم ذي مسغبة » .

سابعاً ان شرط قبول الأعمال الايمان بالله والاستقامة على الحق وعدم

الميل إلى الشهوات والعصبيات والحسد فان الايمان المقرون مع هذه الصفات والدائر مدارها كلا إيمان ولا ينتفع به صاحبه عند لقاء ربه « ثم كان من الذين آمنوا »

ثامناً ان يكون المؤمنون ممن اجتمعت قلوبهم بالاضافة إلى اجتماع ابدانهم واشخاصهم بأنواع اسباب الاخاء والاجتماع سواء كان الجامع لهم والمؤلف بين قلوبهم العالم المرشد او المجالس الدينية اوالصلاة جماعة وبحيث يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على الشدائد وبالرحمة بالضعفاء منهم وينبه الملتفت الغافل وإذا كان ذلك بعقد عهد وميثاق فيما بينهم يكون افضل وأحكم « وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

تاسعاً إعطاء الوسامات والشعارات من الله تعالى يوم القيامة للعباد كل بما عمل كاعطاء أهل الجنة كتبهم بأيمانهم « اولئك اصحاب الميمنة » وأهل النار كتبهم بشمالهم « هم أصحاب المشأمة » .

عودة في بيان الثمرات المنجزة
والفعلية في الصدقات

روي انه وقف سائل على امرأة وهي تتعشى فقامت فوضعت لقمة في فيه ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة فاختلسه الذئب فوقفت وقالت : يا رب ولدي فأتاها آت وأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من فمه من غير أذى ولا ضرر ثم قال لها : هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتيها في فم السائل .

وقيل: عشعش ورشان على شجرة في بيت رجل فلما همت أفراخه بالطيران حسنت له زوجته أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مراراً فكلما فرخ الورشان

أخذ الرجل أفراخه فشكا ذلك الورشان إلى سليمان (ع) وقال: يا رسول الله أردت ان يكون لي أفراخ من بعدي يذكرون الله تعالى والرجل يأخذهم بأمر زوجته فقال سليمان لشيطانين: إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما أراد الرجل ان يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان ايضاً فقال (ع) للشيطانين: ألم تفعلا ما امرتكما به ؟ فقالا: اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين فعلم ان ذلك ببركة الصدقة بعد السؤال منه عما فعله في ذلك الوقت .

ووجه رجل ولده في تجارة فقضت أشهر ولم يقع منه على خبر فتصدق برغيفين بقصد نجاته وأرخ اليوم وبعد سنة رجع إلى ابيه سالماً رابحاً فسأله ابوه هل أصابه في سفره شيء من البلاء ؟ قال: نعم غرقت بنا السفينة في وسط البحر وغرقت أنا في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني وطرحاني على الشاطىء وقالا قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر .

السائل لا يرد

وحيث ان رد السائل لا يحسن وقد وردت في كراهة رده عدة من الروايات كان بعض الصلحاء إذا أتاه سائل فان كان عنده ذهب او فضة أعطاه فان لم يكن دفع له طعاماً او دهناً او غير ذلك مما يكون في البيت فان لم يجد شيئاً اخرج ابرة وخيطاً ورقع بها ثوب السائل ولم يرده خائباً .

رد السائل مظنة الهلكة

فقد حكي ان رجلا مؤسراً جلس يوماً يأكل هو وزوجته العزيزة عليه وبين ايديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج ونهره فذهب واتفق انه افتقر وزالت نعمته بحيث اضطر إلى طلاق زوجته لعدم قدرته على القيام بنفقتها وتزوجت بآخر فجلس يوماً يأكل معها وبين ايديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته : ادفعي اليه هذه الدجاجة وما معها فخرجت بها اليه فاذا هو زوجها الأول فدفعتها اليه ورجعت باكية فسألها زوجها عن سبب بكائها فأخبرته ان السائل كان زوجها وذكرت له قصة الدجاجة وذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول فقال لها زوجها : أنا والله ذلك السائل .

عبرة أخرى لمن يعتبر

حكي انه نزل سائل بمسجد فسأل الناس ان يطعموه كسرة خبز فلم يطعموه فقال الله تعالى لملك الموت : اقبض روحه فانه جائع فقبض روحه فلما جاء المؤذن وجده ميتاً فأخبر الناس فتعاونوا على دفنه وكفنه فلما دخل المؤذن المسجد في اليوم الثاني وجد الكفن في المحراب مكتوب عليه هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم أنتم استطعمكم فقير فلم تطعموه حتى مات جوعاً من كان من أحبابنا لا نكله إلى غيرنا . وقد ورد لو صدق السائل هلك المسؤول فلابد حينئذ للمسؤول من اخذ الحيطة وعدم رد أي سائل ولو بالقليل عدا من يخصه ويعرف كذبه .

من الشواهد الفعلية أيضاً

على دفع الصدقة البلاء

ذكر أن رجلا اتى إلى بعض العلماء الصلحاء، وقال له : ادع الله لولدي وكان مسافراً فقال له : ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأسرع إجابة ، قال : بلى قال : تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامته وما معه فخرج الرجل وتصدق على سائل بدرهم وقال : هذا خلاص ولدي وسلامته وما معه فنادى مناد في تلك الساعة في البحر ألا ان الفداء مقبول وزيد مغاث فلما قدم سأله ابوه عن حاله فقال : لقد رأيت في البحر عجباً يوم كذا وساعة كذا وقد وافق ساعة الصدقة فقال : وإنا قد أشرفنا على الهلاك فسمعنا صوتاً من الهواء ألا ان الفداء مقبول وزيد مغاث وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين .

ثقل الصدقة بالحسنات

حكي ان رجلا عبد الله سبعين سنة في جبل فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت عليه امرأة جميلة فسألته ان يفتح لها وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت اليها وأقبل على صلاته فولت الامرأة فنظر اليها فأعجبته وملكت قلبه فترك العبادة وتبعها فقالت : إلى حيث تريد فقال : قد صار المراد مريداً والأحرار عبيداً ثم جذبها وأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشي عليه فلما

أفاق قالت له : يا هـذا والله انت ما عصيت الله مع غيري وأنا ما عصيت الله مع غيرك ايضاً واني أرى في وجهك الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني فخرج هائماً على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث اليهم في كل ليلة بعشرة ارغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز في تلك الليلة فمد ذلك الرجل العاصي يده قبلهم وأخذ رغيفاً فبقي منهم رجل لم يحصل على رغيف فقال : اين رغيفي ؟ فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة فقال الأعمى أبيت طاوياً فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه : أنا أحق أن أبيت طاوياً لأنني عاص وهذا مطيع فنام واشتد به الجوع فأشرف على الهلاك فأمر الله ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : هذا فر من ذنبه وجاء طائعاً فنحن احق به ، وقالت ملائكة العذاب : بل هو رجل عاص فأوحى الله اليهم ان زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة فأوحى اليهم ان زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به الأعمى على نفسه حتى هلك جوعاً فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله تعالى توبته .

كراهة السؤال ورجحان التعفف

ماذكرناه كان وظيفة المسؤول ، واما وظيفة الفقير والمحتاج فقد ورد ايضاً الكثير من الأخبار في فضل التعفف عن السؤال والتوكل على الله والالتجاء اليه والقناعة بما قسمه والوثوق بوعده تعالى .

ففي الغرر عن امير المؤمنين (ع) تحل باليأس مما في ايدي الناس تسلم من غوائلهم وتحرز المودة منهم .

وفي الكافي عن ابي جعفر (ع) اليأس مما في ايدي الناس عز المؤمن في دينه

أوما سمعت قول حاتم :

إذا ما عزمت اليأس ألفيته الغنا إذا عرفته النفس والطمع الفقر

وفي الأمالي عن الصادق (ع) ثلاثة هن فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة : الصلاة في آخر الليل ويأسه مما في ايدي الناس وولاية الامام من آل محمد (ص) .

وفيه عنه (ع) طلب الحوائج إلى الناس استسلاب للعزة مذهب للحياء واليأس مما في ايدي الناس عز للمؤمن والطمع هو الفقر الحاضر .

وفيه عن الباقر (ع) اظهر اليأس مما في ايدي الناس فان ذلك هو الغنى .

وعنه (ع) خير المال الثقة بالله واليأس مما في ايدي الناس .

وفي الكافي عن الصادق (ع) شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغنائه عن الناس . وفيه ان امير المؤمنين (ع) كان يقول : ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم فيكون افتقارك اليهم في لين كلامك وحسن بشرك ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك .

وفي مشكاة الطبرسي عن الصادق (ع) اتقوا الله وقوا انفسكم بالاستغناء عن طلب الحوائج واعلموا ان من خضع لصاحب السلطان الجائر او لمن يخالفه في دينه طلباً لما في يديه من دنياه أخمله الله ومقته عليه ووكله اليه فان هو غلب على شيء من دنياه فصار اليه منه شيء نزع الله البركة منه ولم يؤجره على شيء ينفقه منه في حج ولا عتق ولا بر .

وفيه عنه (ع) اشتد حال رجل من أصحاب النبي (ص) فقالت له امرأته : لو أتيت رسول الله (ص) فسألته فجاء النبي (ص) فلما رآه النبي (ص) قال : من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله فقال الرجل : ما يعني غيري فرجع إلى امرأته فأعلمها فقالت : إن رسول الله (ص) بشر فأعلمه فلما أتاه قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم : من سألنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله حتى فعل الرجل ذلك ثلاثاً ثم ذهب الرجل فاستعار معولا وأتى إلى الجبل فصعده فقطع حطباً ثم جاء به فباعه بنصف مد من دقيق فرجع به فأكلوه ثم ذهب من الغد فصعده فجاء بأكثر من ذلك فباعه فلم يزل يعمل ويجمع حتى اشترى معولا ثم جمع حتى اشترى بكرين وغلاماً ثم اشترى حتى أيسر فجاء إلى النبي (ص) فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع منه وقال (ص) وقد قلت لك : من سألنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله .

وقال الصادق (ع) : لا يزال العز قلقاً حتى يأتي داراً قد استشعر اهلها اليأس عما في ايدي الناس فيوطنها .

بيان ان المانع من الصدقة أمر وهمي

فمع هذا كله فلا يمنعنا إذاً من الاقدام على الانفاق والصدقات مع علمنا بوفور خيرها وكثرة منافعها إلا خوف الفقر ونقص ارزاقنا وهذا إنما هو وهم وخيال فاسد وتسويل من الشيطان حيث قد قال الله تعالى في تكفل الرزق : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (١) وقال تعالى : « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيراً بصيراً » (٢) وقال تعالى : « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » (٣) وقال تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم » (٤) وقال تعالى : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » (٥) وقال تعالى : « أو لم يروا ان الله يبسط

(١) سورة الرعد الآية ٢٦ .
(٢) سورة الاسراء الآية ٣٠ .
(٣) سورة القصص الآية ٨٢ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٢ .
(٥) سورة العنكبوت الآية ٦٠ .

الزرق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (١) وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله » (٢) وقال تعالى : « قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (٣) وقال تعالى : « إن هذا لرزقنا ماله من نفاد » (٤) وقال تعالى : « له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم » (٥) .

هذه عشر آيات بينات في ان الرزق من الله تعالى وبتقدير وبسط حسبما يعلم من صالح عبده ، وايضاً هو القائل : وما انفقتم من شيء فهو يخلفه أفهل ترى اوضح من هذا التعهد وكفالة الرزق منه تعالى لعباده والخلف عليهم ، اي ان الذي اخرجتم من اموالكم في وجوه البر فهو يعطيكم خلفه وعوضه وهذا يثبته حكم العادة والعدالة حتى عند الناس فان رئيس العائلة مثلا إذا كان من قراره ان يعطيهم ديناراً في كل يوم على ان يلتزموا بكل معيشة ذلك اليوم فاذا دعا جماعة للغداء مثلا او امرهم باعطاء شخص نصف دينار لابد وان يخلفه عليهم ويزيد في رزقهم المضروب لهم فكيف بالله تعالى وهو الحكم العدل أولا واكرم الكرماء وخير الرازقين ثانياً فهو يأمرنا بالانفاق مما قرره رزقاً لنا ومما اعطانا ولم يخلفه علينا كلا وحاشا وقد تعهد بالخلف بصريح العبارة إضافة إلى قضاء العادة فمالنا لا نثق بكل هذا أفهل نتهمه في وعده وهو الآمر بالوفاء بالعهود والمواعيد او إنا نظن نفوذ ما عنده وله خزائن السموات والأرض إذاً هو من تسويل إبليس وعداوته ليزوي عنا الخير ويحرمنا ثمرات الانفاق والخلف من الله سواء في الدنيا بزيادة النعمة أو في الآخرة بمزيد الأجر وثواب الجنة لأنه تعالى خير الرازقين

(١) سورة الروم الآية ٣٦ .
(٢) سورة سبأ الآية ٢٣ .
(٣) سورة سبأ الآية ٣٥ .
(٤) سورة ص الآية ٥٤ .
(٥) سورة الشورى الآية ١٠ .

حيث يعطي عباده لا لدفع ضرر ولا لجر نفع كما يكون عطاء غيره لو كان .

وروى ابو هريرة عن النبي قال قال (ص) : قال الله تعالى لي : إنفق أنفق عليك

وروى أنس بن مالك عن النبي (ص) انه قال : ينادي مناد كل ليلة لدوا الموت وينادي مناد ابنوا للخراب وينادي مناد اللهم هب للمنفق خلفاً وينادي مناد اللهم هب الممسك تلفاً وينادي مناد ليت الناس لم يخلقوا وينادي مناد ليتهم إذ خلقوا فكروا فيما له خلقوا .

وعن جابر عن النبي (ص) أنه قال : كل معروف صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة وما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلا ما كان من نفقة في بنيان او معصية .

وقد مر عليك ماذكرنا عن امير المؤمنين (ع) ان ابن آدم لو يفر من رزقه لأدركه رزقه كما يدركه الموت ، فأقول ثانياً : فما للانسان وهو ذو العقل والادراك يتقاعس عن عمل الخير والبذل في مقاماته التي امر الله بها سواء كانت الفرائض كالزكاة وسائر الحقوق او النوافل كمساعدة الضعفاء وإعانة العلماء وإسعاف المرضى وصلة الأرحام بعد ان سمع هذه الآيات وتلك الأحاديث وتوعاها باضافة حكم العادة .

ان من الشعر لحكمة

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب   إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقال آخر : لو إنا سمعنا قوله وطبقنا إرشاده .

وذي حرص تراه يلم وفراً   لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو   فريسته ليأكلها سواه

وقال آخر : لو إنا أصغينا إلى واقع كلامه بآذان القلوب .

أيا من عاش في الدنيا طويلا وأفنى العمر في قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمع من حرام او حلال
هب الدنيا تقاد اليك عفواً أليس مصير ذلك للزوال

وقال آخر في بيان وصفة من الدواء القالع لجذور المرض :

هي القناعة فالزمها تعش ملكا لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال آخر في التحذير عن ترك تلك الوصفة لئلا نقع فى المرض الأشد وإلى ما لا نهاية له :

علل النفس بالقنوع وإلا طلبت منك فوق ما يكفيها

وللكلام في الدنيا والحرص عليها والغرور بها مقام آخر إن شاء الله تعالى ولنختم هذا الفصل بقوله تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (١) .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٣ .

الفصل الرابع
في ذكر الله تعالى

وهو آخر الفصول الأربعة التي تضمنت ما اخترناه من بقية العبادات وغير خفي على القارئ ميزتها في مقاومة النفس والتوجيه إلى الحق مع مواساة الخلق ولعل ذكر الله تعالى بصحيح معناه هو أساسها وركيزة بنائها كما قد يظهر ذلك من قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر » (١).

فقد قيل في تفسيرها ان ذكر العبد لربه اكبر مما سواه وأفضل من جميع أعماله وعلى هذا يكون تأويله ان اكبر شيء في النهي عن الفحشاء ذكر العبد لربه وأوامره ونواهيه وما أعده من ثواب مطيعيه وعقاب عاصيه فانه أقوى لطف يدعو إلى الطاعة وترك المعصية فهو اكبر وأحرى وأجدر بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر من غيره لأن سائر العبادات وفي مقدمتها الصلاة إنما صارت ناهية لأنها تتضمن ذكر الله تعالى واستحضار عظمته كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى « وأقم الصلاة لذكري » (٢) ، وقيل ايضاً في معناه : إن ذكر الله لكم برحمته اكبر من ذكركم إياه وطاعته ، فقد روى عن عطا بن السائب عن عبدالله بن ربيعة قال : قال ابن عباس : أرأيت قول الله عز وجل ولذكر الله اكبر ؟ قلت : ذكر الله بالقرآن حسن وذكره بالصلاة حسن وبالتكبير والتسبيح والتهليل حسن وأفضل من ذلك ان يذكر الرجل ربه عند المعصية فينزجر عنها فقال ابن عباس : لقد قلت

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ . (٢) سورة طه الآية ١٥ .

قولا عجيباً وما هو كما قلت ولكن ذكر الله إياكم اكبر من ذكركم إياه وعلى كل فهو يرجع أيضاً إلى عظمة ذكر الله وما هو إلا لأنه يسبب استحضار عظمة الخالق والتفكر في بدائع مخلوقاته وأحكام مصنوعاته ، ولذا قد ورد ان تفكر ساعة أفضل من عبادة سنة فيندفع بذلك نحو طاعته .

الذكر ودرجته من الاجر

فقد روي عن النبي (ص) في تفسير قوله تعالى: « واذكروا الله كثيراً » (١) بأن معناه اذكروا الله في تجارتكم وأسواقكم ، وانه (ص) قال : من ذكر الله في السوق مخلصاً عند غفلة الناس وشغلهم بما فيه كتب له الف حسنة ويغفر له يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر .

وعن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدمي من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، وقيل له ولا الجهاد في سبيل الله ، قال : ولا الجهاد فان الله يقول : ولذكر الله اكبر ، وعنه قال : سألت رسول الله (ص) أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل وقال (ص) : يامعاذ إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل ومن أحب ان يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى .

وروي عن ثابت البناني قال : إن رجلا أعتق أربع رقاب فقال رجل آخر سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ، ثم دخل المسجد فأتى حبيب بن أوفى السلمي وأصحابه فقال : ما تقولون في رجل أعتق أربع رقاب واني أقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ، فأيها أفضل ؟ فنظروا هنيئة

(١) سورة الجمعة الآية ١١ .

فقالوا : ما نعلم شيئاً أفضل من ذكر الله عز وجل .

وروى محمد بن ابي عمير عن هشام بن سالم يرفعه قال : جاء الفقراء إلى رسول الله (ص) فقالوا : يا رسول الله ان للأغنياء ما يتصدقون وليس لنا ما نتصدق ولهم ما يحجون وليس لنا ما نحج ولهم ما يعتقون وليس لنا ما نعتق فقال (ص) : من كبر الله مائة مرة كان أفضل من عتق رقبة ومن سبح الله مائة مرة كان أفضل من مائة فرس في سبيل الله بسرجها ولجمها ، ومن هلل الله مائة مرة كان أفضل الناس عملا في ذلك اليوم إلا من زاد فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه فرجع الفقراء الى النبي (ص) فقالوا : يا رسول الله قدبلغ الأغنياء ما قلت فصنعوه فقال (ص) : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفي كتاب الاختصاص(١) في سؤال اليهودي للنبي (ص) عن الكلمات التي اختارها الله لابراهيم (ع) حين بنى البيت ، فقال (ص) : نعم هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر .

قال : يا محمد لأي شيء بنى ابراهيم (ع) الكعبة مربعاً ؟ قال (ص) : لأن الكلمات اربعة ، قال : لِمَ سميت الكعبة كعبة ؟ قال (ص) : لأنها وسط الدنيا ، قال : فأخبرني عن تفسير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ، فقال ﷺ : علم الله ان ابن آدم والجن يكذبون على الله تعالى فقال سبحان الله يعني بريء مما يقولون ، وأما قوله : الحمد لله علم الله ان العباد لا يؤدون شكر نعمته فحمد نفسه عز وجل قبل ان يحمده الخلائق وهي أول الكلام لولا ذلك لما أنعم الله على أحد بالنعمة . وأما قوله : لا إله إلا الله وهي وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلا به وهي كلمة التقوى سميت التقوى لما تثقل بالميزان يوم القيامة ، وأما قوله الله اكبر فهي كلمة ليس أعلاها كلام وأحبها الى الله ـ يعني ليس اكبر منه شيء ـ

(١) ص ٣٣ .

لأنه يستفتح الصلاة به (١) لكرامته على الله وهو اسم من اسمائه الكبرى فقال صدقت يا محمد ، ما جزاء قائلها ؟ قال (ص) : اذا قال العبد سبحان الله سبح كل شيء معه ما دون العرش فيعطى قائلها عشر أمثالها واذا قال : الحمد لله أنعم الله عليه بنعيم الدنيا حتى يلقاه بنعيم الآخرة وهي الكلمة التي يقولها اهل الجنة اذا دخلوها والكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد لله وذلك قوله تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم فيها ان الحمدلله رب العالمين ، وأما ثواب لا إله إلا الله فالجنة وذلك قوله هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ، وأما قوله الله اكبر فهي اكبر درجات في الجنة وأعلاها منزلة عند الله تعالى فقال اليهودي : صدقت يا محمد .

وأما من القرآن الكريم

فقد قال الله تعالى : « فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » (٢) وقال تعالى: « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين » (٣) .

وقوله : ودون الجهر معناه متكلماً كلاماً دون الجهر لأن الاخفاء ادخل في الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى القبول .

فعن الصادق (ع) انه قال : قال الله تعالى : من ذكرني سراً ذكرته علانية

وعن زرارة عن أحدهما (ع) لا يعلم ثواب ذلك (٤) إلا الله لعظمته لأن الملك لا يكتب إلا ما سمع .

وفي مناجاة موسى (ع) إلهي فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال :

(١) يعني تكبيرة الاحرام . (٢) سورة البقرة الآية ١٤٨ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٥ . (٤) أي الذكر في السر .

يا موسى أظله يوم القيامة بظل عرشي وأجعله في كنفي .

وفي كتاب دار السلام (١) في دعوات الراوندي روى انه اوحى الله عز وجل الى موسى اذا أردت النجاة من الذنوب فانظر فوقك واذكر عظمتي والى الأرض واذكر اللحد فانه سجني وعن يمينك فاذكر الجنة فانها ثوابي وعن يسارك فاذكر النار فانها عقابي وانظر أمامك فاذكر الصراط فانه مرصدي ومن ورائك فاذكر ملك الموت فانه رسولي اليك .

فانظر الى عظيم ما في الذكر من العظات لو استعرض هذه الأمور المترتبة عليه أفهل يبقى له تعلق بالدنيا وأهلها عدا من يعت به الى الخلاص من عقباتها .

نعم ان الذكر نافع جداً لمن يتذكر فقد قال سبحانه : « وليذكر اولوا الالباب » (٢) أي ليتمعظ به اهل العقول وذووا النهى ، وفي قوله تعالى : وليذكر بصيغة الأمر دلالة على انه تعالى اراد من الجميع التدبر والتذكر ودلالة على ان العقل حجة وخصهم لأن غير ذوي العقول لا يمكنهم الفكر ولذا قيل : اخذ ما وهب سقط ما وجب .

وقد اوحى الله الى موسى (ع) يا موسى لا تفرح بكثرة المال ولا تدع ذكري على كل حال فان كثرة المال تنسي الذنوب وان ترك ذكري يقسي القلوب

وعن الصادق (ع) ما من شيء إلا وله حد ينتهي اليه وذكر الله ليس له حد فشهر رمضان فرضه الله وحده اداؤه والحج حـــده اداؤه وكذلك سائر الفرائض وذكر الله ليس له حد قال تعالى : « واذكروا الله ذكراً كثيراً » (٣) .

وعن النبي (ص) قال : مكتوب في التوراة التي لم تغير ان موسى (ع) سأل ربه أقريب انت فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ فأوحى الله اليه يا موسى أنا

(١) ج ٣ ص ٢٩٢ . (٢) سورة ابراهيم في ذيل الآية ٥٢ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٤١ وآخرها : وسبحوه بكرة وأصيلا .

جليس من ذكرني فقال موسى (ع) : فمن في سترك يوم لا ستر إلا سترك فقال تعالى : « الذين يذكروني فأذكرهم ويتحابون لي فأحبهم فأولئك الذين اذا اردت ان أصيب اهل الأرض بسوء ذكرتهم فدفعت بهم عنهم .

وعنه (ص) ما جلس قوم يذكرون الله إلا قعد معهم عدة من الملائكة .

وروى ابو بصير عن ابي عبدالله (ع) ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا فيه الله ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة . فليفهم قدر ما فاتهم من الدرجات وقد شاهدوها فأعقبتهم حسرة لا تنقضي وندامة لا تجبر وقيل لهم ان هذه لكم لو انكم كنتم قد ذكرتم الله في مجلسكم يوم كذا .

وقال ابوجعفر (ع): إن ذكرنا من ذكرالله وذكر عدونا من ذكرالشيطان

وعن النبي (ص) ان الملائكة يمرون على حلق الذكر فيقومون على رؤوسهم ويبكون لبكائهم ويؤمنون على دعائهم فاذا صعدوا الى السماء يقول الله يا ملائكتي أين كنتم وهو أعلم بهم فيقولون : يا ربنا إنا حضرنا مجلساً من مجالس الذكر فرأينا أقواماً يسبحونك ويمجدونك ويقدسونك ويخافون نارك فيقول الله سبحانه : يا ملائكتي أذودها عنهم وأشهدكم اني قد غفرت لهم وأمنتهم مما يخافون فيقولون : ربنا ان فيهم فلاناً وانه لم يذكرك فيقول الله تعالى : قد غفرت له بمجالسته لهم .

ايضاح وتمييز بين الحق والباطل

قال الله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » (١) .

(١) سورة الزمر الآية ٢٢ .

يعني بأحسن الحديث القرآن وسماه حديثاً لأنه كلام الله وكلامه يسمى حديثاً كما يقال في الحديث القدسي ـ أي كلام الله تعالى ـ ولأنه حادث التنزيل بالنسبة الى ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء وهو أحسن الحديث لفرط فصاحته وبلاغته ولاعجازه ولاشتماله على جميع مايحتاج المكلف اليه من التنبيه على أدلة التوحيد والعدل وأحكام الشرع وغير ذلك من المواعظ والقصص والترغيب والترهيب . وأما معنى قوله مثاني ، أي يثنى فيه بعض القصص والأخبار والأحكام والمواعظ بتصرف في ضروب البيان بحيث ان السامع لا يرى انه قد كرر الموضوع ويثنى ايضاً في التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه ، فكلما ازداد تلاوة ازداد طراوة . وأما قوله تقشعر منه جلود ... الخ ، أي تأخذهم قشعريرة خوفاً مما في القرآن من الوعيد ثم تلين جلودهم وقلوبهم بعدما تقلصت واقشعرت إلى ذكر الله حيث سمعوا مافيه من الوعد بالثواب والرحمة ، يعني تطمئن وتسكن قلوبهم إلى ذكر الله الجنة وثوابها .

وروى العباس عن النبي (ص) انه قال : إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها .

وقال قتادة : هذا نعت لأولياء الله تعالى نعتهم بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم الى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان .

وبما ذكره قتادة نكتفي في التمييز بين الذكر الرحماني والذكر الشيطاني وعن التعليق عليه حيث ان ظاهر حال الذاكرين من خشوع المطيعين وجنون العاصين هو دليل حسي مبين على التلاعب في شريعة سيد المرسلين لقصد تضييع فضيلة اولياء الله المقربين بمزج الغث بالسمين كما شبهوا ما يسمونه بالخرقة والضرب بآلات الحديد بالمعاجز الخارقة شوباً للحق بالباطل .

الذكر يسخر الموجودات للذاكر

فعن ابي عبدالله (ع) (١) قال : إن موسى (ع) انطلق لينظر الى اعمال العباد فأتى رجلا من أعبد الناس فلما أمسى حرك الرجل شجرة إلى جنبه فاذا فيها رمانتان فقال : ياعبدالله من انت انك عبد صالح أنا ههنا منذ ما شاء الله ما اجد في هذه الشجرة إلا رمانة واحدة ولولا انك عبد صالح ما وجدت رمانتين قال : أنا رجل أسكن ارض موسى بن عمران فلما اصبح قال موسى له : هل تعلم احداً أعبد منك ؟ قال : نعم فلاناً فانطلق موسى اليه فاذا هوأعبد منه كثيراً فلما امسى أوتي برغيفين وماء فقال : يا عبدالله من انت انك عبد صالح أنا ههنا منذ ما شاء الله وما أوتى إلا برغيف واحد ولولا انك عبد صالح ما اوتيت برغيفين قال : أنا رجل اسكن ارض موسى بن عمران ثم قال له موسى : هل تعلم احداً أعبد منك ؟ قال : فلاناً الحداد في مدينة كذا فأتاه موسى فنظر إلى رجل ليس بصاحب العبادة بل انما هو ذاكر لله تعالى وإذا دخل وقت الصلاة قام فصلى فلما أمسى نظر إلى غلته فوجدها قد أضعفت قال : يا عبدالله انك رجل صالح أنا ههنا منذ ما شاء الله وغلتي قرب بعضها من بعض والليلة قد أضعفت فمن انت ؟ قال : أنا رجل اسكن ارض موسى بن عمران ثم اخذ ثلث غلته فتصدق بها وثلثاً اعطاه مولى له وثلثاً اشترى به طعاماً فأكل هو وموسى فتبسم موسى (ع) فقال من أي شيء تبسمت ؟ قال : دلني نبي بني إسرائيل على فلان فوجدته من أعبد الخلق فدلني على فلان فوجدته أعبد منه فدلني عليك وزعم انك أعبد منه ولست أراك شبه القوم فقال : أنا رجل مملوك أليس تراني ذاكراً لله تعالى أوليس تراني

(١) في كتاب البراعة ج ٦ ص ١٨ .

أصلي الصلاة لوقتها وإن أنا اقبلت على الصلاة أضررت بغلة مولاي وأضررت بعمل الناس أتريد ان تأتي بلادك ؟ قال : نعم ، قال فمرت به سحابة فقال الحداد يا سحابة تعالي فجاءت قال : اين تريدين ؟ قالت : اريد كذا وكذا قال : انصرفي ثم مرت به اخرى فقال : يا سحابة تعالي فجاءت فقال : إلى اين تريدين ؟ قالت : اريد ارض كذا وكذا قال : انصرفي ثم مرت به اخرى قال : يا سحابة تعالي فجاءته فقال : الى اين تريدين ؟ قالت : ارض موسى بن عمران قال : احملي هذا حملا دقيقاً وضعيه في ارض موسى بن عمران وضعاً رفيقاً فلما بلغ موسى بلاده قال : يا رب بم بلغت هذا ما أرى ؟ قال تعالى : إن عبدي هذا يصبر على بلائي ويرضى بقضائي ويشكر على نعمائي .

وفي البحار من تفسير الامام قال : قال رسول الله : ألا فاذكروا يا أمة محمد محمداً (ص) وآله عند نوائبكم وشدائدكم لينصرن الله بهم ملائكتكم على الشياطين الذين يقصدونكم فان كل واحد منكم معه ملك عن يمينه يكتب حسناته وملك عن يساره يكتب سيئاته ومعه شيطانان من عند إبليس يغويانه فاذا وسوسا في قلبه وذكر الله فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على محمد وآله حبس الشيطانان ثم صارا إلى إبليس فشكواه وقالا له : قد أعيانا أمره فامددنا بالمردة ولايزال يمدهما حتى يمدها بألف مارد فيأتونه فكلما راموه ذكر الله وصلى على محمد وآله الطيبين لم يجدوا عليه طريقاً ولا منفذاً فيقولون لابليس : ليس له غيرك تباشره بجنودك فتغلبه وتغويه فيقصده إبليس بجنوده فيقول الله تعالى للملائكة(١) : هذا إبليس قد قصد عبدي فلاناً او أمتي فلانة بجنوده ألا فقاتلوه فيقاتلونه بازاء كل شيطان رجيم منهم مائة الف ملك وهم على افراس من نار بأيديهم سيوف من نار ورماح من نار وقسي ونشاشيب وسكاكين وكل اسلحتهم

(١) وهذا معنى قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم »

من نار فيقتلونهم ويجرحونهم بها ثم يأسرون إبليس فيضعون عليه الأسلحة فيقول : يا رب وعدك وعدك قد أجلتني إلى يوم الوقت المعلوم فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة : وعدته أن لا أميته ولم أعده أن لا اسلط عليه السلاح والعذاب والآلام اشتفوا منه ضرباً بأسلحتكم فاني لا اميته فيثخنونه بالجراحات ثم يدعونه فلا يزال سخين العين على نفسه وعلى اولاده المقتولين والمجروحين ولا يندمل شيء من جراحاته إلا بسماعه اصوات المشركين بكفرهم .

فان بقي هذا المؤمن مستمراً على طاعة الله وذكره والصلاة على محمد وآله بقي إبليس على تلك الجراحات وإن زال العبد عن ذلك وانهمك في دنياه وعصيان ربه اندملت جراحات إبليس ثم يقوى على ذلك العبد « قوة تترق بنسبة ترقي العبد في المعاصي » حتى يلجمه ويسرج على ظهره ويركبه ثم ينزل عنه ويركب ظهره شيطاناً من شياطينه ويقول لأصحابه : أما تذكرون ما اصابنا من شأن هذا فقد ذل الآن وانقاد لنا حتى صرنا نركبه .

ثم قال رسول الله (ص) : فان اردتم ان تديموا على إبليس سخنة عينه وألم جراحاته فداوموا على طاعة الله وذكره والصلاة على محمد وآله وان زلتم عن ذلك كنتم أسراء إبليس فيركب أقفيتكم بعض مردته . وان الله هو المستعان على مكائد الشيطان .

فقارن ايها الملتفت بين ما ذكر لك رسول الله (ص) في هذه المعركة من الفتح بانتصار الله تعالى لك ثم الانكسار والهزيمة أمام إبليس بحيث تكون مطيته وبين معركة لأبناء الدنيا تكون بين جيشين عظيمين وقد بذل احد الجيشين خسارة جسيمة في الأرواح والأموال وتمكن من التقدم وفتح حصون الجيش الآخر وتشتيته فرداً فرداً في البراري ثم تعقب ذلك الفتح الغفلة منهم عن المحافظة على حدود المعركة فيعود عليهم الجيش المغلوب من جراء تلك الغفلة لا من جهة زيادة

القوة فيغلبهم ويشتتهم ايادي سبا ويأسر من بقي منهم فكم تجد الأسف على ذلك ومزيد اللوم مقروناً بالعض على الأصابع وعظيم الندم فليكن منك مثل ذلك عند ارتكاب المعصية والغفلة عن ذكر الله تعالى والانهزام أمام إبليس وجنوده والأسر بأيديهم يلعبون بك ما شاءوا ولنعم ما قيل في مدح الذكر :

وإذا مرضت من الذنوب فداوها ... بالذكر إن الذكر خير دواء
والسقم في الأبدان ليس بضائر ... والسقم في الأديان شر بلاء

ولذا قال امير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه : ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان .

ومن القرآن الكريم في الارشاد الى الذكر

قوله تعالى: « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» (١) أي لا إله يستحق العبادة غيري فاعبدني خالصاً ولا تشرك بي في عبادتي أحداً ، ومعنى أقم الصلاة لذكري ، أي لأن تذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم لأن الصلاة لا تكون إلا بذكر الله تعالى .

وقيل : إن معناه لذكري لك أي لأن اذكرك بالمدح والثناء وتحبيبك إلى خلقي ، وقيل : معناه صل لي ولا تصل لغيري كما يفعله المشركون ، وقيل : إن معناه أقم الصلاة متى ذكرت ان عليك صلاة كنت في وقتها أم لم تكن وهو المروي عن ابي جعفر (ع) ويعضده ما روي عن النبي (ص) انه قال : من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها غير ذلك وقرأ أقم الصلاة لذكري ، ولعل الأول اشهر وربما يؤيده ما تقدم نقله عن ابن عباس في قوله تعالى : ولذكر الله اكبر فالذكر بمعناه الصحيح إن لم يفضل سائر العبادات فلا يقل بالفضل عنها وكل

(١) سورة طه الآية ١٠ .

ما ذكر فيها لاثبات فضيلتها بمختلف البيان وتعدد الألوان فهو دليل على فضيلة الذكر ايضاً لعدم خلو أي عبادة عن الذكر وأقلها النية المعتبرة شرطيتها في كل عبادة وليست هي إلا التقرب إلى الله وهو من ذكر الله عز وجل .

وفي حديث المعراج وقد مر النبي (ص) على الجنة فرأى ملائكة تبني قصوراً لبنة من فضة ولبنة من ذهب وانهم ليفترون ويجلسون بغير عمل فسأل ﷺ جبرئيل عن القصور التي تبنيها الملائكة ولمن هي ؟ فقال : هي للمسبحين من امتك كل لبنة عوض تسبيحة فقال (ص) : فما هذه الفترة التي تأخذهم فاني اراهم يجلسون بغير عمل فلم لا يتابعون عملهم في بنائهم ؟ فقال له جبرئيل : ينتظرون المدد من امتك فقال (ص) : وما هو المدد ؟ فقال : التسبيح والذكر لله تعالى لأنهم يفترون ولو انهم تابعوا الذكر والتسبيح لتابعت الملائكة العمل والبناء لهم .

العقد الثالث في الصفات

وهو قسمان :

القسم الأول في الصفات الحميدة : والقسم الثاني في الصفات الذميمة

أما القسم الأول ففيه فصول :

الفصل الاول في العدل

قد امر الله تعالى بالعدل في عدة مواضع من القرآن الكريم كما انه ذاته جل شأنه قد سلك مسلك الاستقامة والتوازن في تعاليمه للعباد بعد ما التزم بها لذاته القدسية فقال مخبراً عن نفسه في موضع انه شديد العقاب وفي موضع آخر انه غفور رحيم قصداً للتوازن وتحقيقاً للعدل وليقتدى به عباده في معاملاتهم واجتماعياتهم .

أما تعاليمه جل شأنه ومسالكه في التشريع للأحكام فهي وفق العدل فمنها انه قد نهى عن البخل والشح في مواضع من كتابه العزيز وعرف العباد فيها مفاسد البخل وسوء عاقبته بينما تراه سبحانه وتعالى في موضع آخر ينهى عن الاسراف والتبذير ودلهم ايضاً على مفاسدهما وأخيراً يعطي القاعدة الوسطى لذلك ولمصداق العدل فيقول : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » (١) .

(١) سورة الاسراء الآية ٣٢ .

ومنها انه تعالى قد امر عباده بالصبر وبتحمل الأذى وبالعفو وقد مدح الصابر ووعده بعظيم الأجر بقوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) وإلى جانب هذا لم يجعل المظلوم مغلول اليد أمام ظالمه بل اباح له ان ينتقم من الظالم بمثل ما اعتدى به عليه فقال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٢) وجوز لولي المقتول ان يقتص من القاتل العامد بقوله تعالى: « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلايسرف في القتل » (٣) كل ذلك حسماً لمادة الفساد وتحقيقاً لطريقة العدل ليجمع بين نظام الدارين صلاح الدنيا وسعادة الآخرة .

أما الآيات الآمرة بالعدل . فمنها قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٤) وقال تعالى: « وإذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى » (٥) وقال تعالى: « إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » (٦) وقال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » (٧) بيان إجمالي في آيات العدل ، فأما الأولى حيث كان صدرها قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا فيكون المعنى من مجموع الآيتين لا يحملكم بغضكم لقوم على عدم العدالة في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم فتجوروا عليهم بل اعدلوا واعملوا بالعدل في اوليائكم وأعدائكم بالسوية .

وأما الآية الثانية فمفادها ان قولوا الحق والعدل وإن كان المقول عليه او المشهود عليه قرابتكم فلا تفرقوا في ذلك بين القريب والبعيد .

(١) سورة الزمر فى ذيل آية ١٤ .
(٢) سورة البقرة فى وسط آية ١٩١
(٣) سورة الاسراء الآية ٣٦ .
(٤) سورة المائدة فى وسط آية ١٢ .
(٥) سورة الأنعام فى وسط آية ١٥٣ .
(٦) سورة النساء الآية ٦٢ .
(٧) سورة النحل الآية ٩٣ .

وإنما قال : وإذا قلتم ولم يقل وإذا فعلتم ممايعطي بظاهره اختصاص شرطية العدل في الأقوال دون الأفعال مع ان العدل مطلوب في القول والفعل معاً .

فالجواب أولا فلأن من جعل عادته العدل في القول الذي هو أخف ضرراً وأشد التزاماً دعاه ذلك إلى العدل في الفعل لأنه إذا كان لا يلفظ بباطل فكيف يفعل الباطل .

وثانياً ليكون اعم واشمل كي يدخل فيه الأقارير والشهادات والوصايا والفتاوى والقضايا والأحكام والمذاهب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الأمور كلها يطلب فيها ان يكون المتكلم بها عادلا .

وأما الآية الثالثة التي امر سبحانه في صدرها بأداء الأمانات إلى اهلها وفي ذيلها بالحكم بالعدل ، فقد قيل في تفسير الأمانة إنها كل أمانة إئتمن عليها الانسان ومنها امانات الله عنده وهي اوامره ونواهيه . هذا عن ابن عباس وابي بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة وهو المروي عن ابي جعفر (ع) وابي عبدالله (ع) .

وقيل ان المخاطبين هم ولاة الأمر فقد امرهم الله تعالى ان يقوموا برعاية الرعية بالانصاف والعدل وحملهم على موجب الدين والشريعة ، وهذا قد روي عن ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام ايضاً وانهما قالا : آيتان احداهما لنا والأخرى لكم قال تعالى: « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها » ... الخ وقال : « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » الخ وقال ابو جعفر (ع) : ان اداء الصلاة والزكاة والصوم والحج من الأمانة .

واما الأمر في ذيل الآية بالحكم بالعدل فهو وان كان نزوله في الولاة والحكام وامرهم بالنصفة والعدالة بين الناس إلا انه عام لعموم ملاكات القرآن اولا ولأن كل فرد هو حاكم بالنسبة الى من يملك امورهم وحتى من يملك نفسه

فقط فهو حاكم عليها بقوة العقل فليعدل في تربيتها وتسييرها هذا ثانياً .

وروي عن النبي (ص) انه قال لعلي (ع) سو بين الخصمين في لحظك ولفظك

وورد ان صبيين ارتفعا الى الحسن بن علي عليهما السلام في خط كتباه وحكماه في ذلك ليحكم اي الخطين اجود فبصر به علي (ع) فقال : يا بني انظر كيف تحكم فان هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

واما الآية الرابعة فقد امر الله تعالى فيها بأمور ثلاثة وهي : العدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، ونهى فيها عن امور ثلاثة ايضاً وهي : الفحشاء والمنكر والبغي فلابد من بسط الكلام فيها لنتعرف مقدار نفعها للعباد وعظيم ما حوته من الزاد ليوم المعاد .

اما العدل فقيل : إن معناه هو الانصاف وعدم الميل والعوج .

واما الاحسان فمعناه التبرع والتفضل بمقابلة المعنى المذكور للعدل ، لأن العطف يقتضي التغاير .

وقيل : إن العدل ان ينصف وينتصف والاحسان ان ينصف ولاينتصف .

وقيل : العدل هو التوحيد ، والاحسان أداء الفرائض .

وقيل : العدل في الأفعال ، والاحسان في الأقوال .

وقيل : العدل هو استواء السر والعلن ، والاحسان ان يكون السر أحسن من العلن .

وقيل : ما تكون علانيته احسن من سره كأن ينوي مثلا مقاطعة فلان لكنه في مقام العمل الخارجي يواصله إرغاماً لما تحدثه به نفسه في السر وأمثال ذلك فتكون علانيته احسن من سره . وأما إيتاء ذي القربى فصلة الأرحام او آل بيت النبي (ص) ، واما معنى الفحشاء فقيل : إن المراد به القبيح في السر . وقيل : المراد به الزنا ، وأما المنكر فهو ما ينكره الشرع والعرف . وأما البغي

فهو الكفر والظلم ، فقد سئل امير المؤمنين (ع) اي ذنب اعجل عقوبة لصاحبه ؟ فقال : من ظلم من لا ناصر له إلا الله وجاور النعمة بالتقصير واستطال بالبغي على الفقير . وعن ابي عبدالله (ع) قال : الذنوب التي تغير النعم البغي والذنوب التي تورث الندم القتل والذنوب التي تنزل النقم الظلم والذنوب التي تهتك الستر شرب الخمر والذنوب التي تحبس الرزق الزنا والذنوب التي تعجل الفناء قطيعة الرحم والذنوب التي تظلم الهواء وتحبس الدعاء عقوق الوالدين ، ويمكن حمل الآية على الكل لأنها كما اشرنا بمثابة إعطاء النظام للأنام .

فقد قال عثمان بن مظعون : اسلمت حياءً من رسول الله (ص) لأنه كان كثيراً ما يعرضه علي ولكن قر الاسلام في قلبي بنزول هـــذه الآية وأتيت أبا طالب عم النبي (ص) فأخبرته فقال : يا آل قريش اتبعوا محمداً (ص) ترشدوا لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

وقال عبدالله بن مسعود : إنها اجمع آية للخير والشر . نعم كما قال لأن مصالح العباد وسعادتهم يتوقفان على جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم فالمحصل لهما اشبه بالعلة التامة لها ، أما إذا جلب النفع لهم ولم يدفع الشر عنهم او دفع الشر عنهم ولم يجلب الخير لهم فهو أشبه بالعلة الناقصة ، ومن المعلوم ان الأثر إنما يكون عند تمام العلة فمصالحهم وسعادتهم يتوقفان على جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم معاً

وقد اشتملت الآية الكريمة على جلب الخير لأمرها بالعدل الذي هو أساس الانتظام ، ولذا يحدثنا التاريخ بدوام الملك لكل من كانت سجيته العدل في رعيته فقد ذكر انه حمل بعض عمال انوشيروان اليه في بعض السنين ثمانين الف درهم زيادة على المقرر فسأله عن ذلك فقال : وجدت في ايدي قوم فضلا فأخذته منهم فقال : ردوا هذا المال على من اخذ منه ، فان مثلنا في ذلك كمثل من طين سطحه بتراب أساس بيته فيوشك ان يكون ضعف الأســاس وثقل السطح مسرعين في

خراب بيته كما قد ذكر (١) ايضاً في قصته مع العجوز وابنتها والبقرة في البيداء عند انقطاعه عن اصحابه وأعوانه بسبب انه كان في الصيد وقد لحق ظبياً وضل عن الطريق ومبيته عند العجوز وقد رأى كثرة حليب بقرتهم ونوى وضع الضريبة على البقر عند رجوعه فلما امرت العجوز بنتها بحلب البقرة قالت لها البنت : إن البقرة حائل وقد نوى الملك الظلم فعدل عن نيته ثم عادت إلى البقرة قرب الفجر فوجدتها حلوباً فقالت : إن نية الملوك رجعت إلى العدل وبعد لحوق اصحابه به نهاراً امر بحمل العجوز وابنتها معه ثم سألها عن سبب مقالها فقالت : إنا في هذا المكان من كذا و كذا زمان ما عمل فينا بعدل إلا اخصب بلادنا وما عمل فينا بجور إلا ضاق عيشنا . وفي بعض الأخبار ان عدل الحاكم يوماً يعدل عبادة العابد خمسين سنة فالآية قد امرت بالعدل أولا ثم بالاحسان ثانياً الذي هو سبب التودد والتآلف والالتئام ثم بايتاء ذي القربى وصلة الأرحام التي هي من اهم اسباب طول العمر وتوسعة الرزق إضافة إلى حصول التقارب والتعاون بين الأسرة والتشاور في الأمور التي تعود لصالحهم وبتطبيق هذا فقد جلبت الآية كل خير كما انها قد تضمنت دفع الشر عنهم لنهيها عن الفحشاء وهو العمل القبيح وأظهر مصاديقه الزنا وعن المنكر وهو ما ينكره الشرع والناس ولا يرتضيه ذووا العقول منهم وعن البغي وهو الظلم والكفر وان الالتزام بهذه النواهي مما يدفع عن البشر كل شر ولهذه المضامين في الآية يقول ابن مسعود : إنها اجمع آية للخير والشر ، وإذا تحقق العمل بمفاهيمها من العموم فهي الكفيلة لسعادتهم في الدنيا والآخرة فلتذهب القوانين هباء منثوراً في جنب الآية الكريمة هذا القرآن وإعجازه هذا الاسلام واحكامه هذا الدين ونظامه لا كما يقولون : إن الدين تعبد صرف وتقييد للبشرية عن ان تمارس حقوقها بحرياتها بل هو تهذيب للأخلاق

(١) في كتاب أنوار النعمانية ج ٣ ص ٣١٦ عن الكلبي (رض) عن أبيه .

وتصفية للنفوس الشريرة من اكدارها واقذارها وإعطاء تمام الحرية للعقول في تفكيرها ، ثم هو تقييد لها عن العبث بمصالح الآخرين من ابناء نوعها ، لأن وجوب المحافظة على حقوقهم عند الله والدين بنسبة واحدة لايفرق فيه بين القوي والضعيف والغني والفقير والملك والرعية .

رأي الامامية في العدل

وحيث ان الامامية قد وقفوا على مغازي العدل وعميق فوائده إضافة إلى ما تلقوه من الأوامر الصادرة من اهل بيت نبيهم (ص) به لتوقف صلب النظام واستقامة الأنام عليه تراهم قدأجمعت كلمتهم بالفتوى والارشاد على اشتراط العدالة في إمام الجماعة وفي المقلد بل وفي الشهود فضلا عن اشتراطها في الامام العام والخليفة في الاسلام وقد عدوها ـ أي العدالة ـ من اصول الدين بحيث قد انطبعت عليها نفوسهم وتركزت عليها عقائدهم وأعمالهم ، لذا ورد عن رئيس مذهبهم الامام الصادق عليه السلام قوله : العدل أحلى من الشهد وألين من الزبد وأطيب ريحاً من المسك ، لأنه وفق طبيعته .

وايضاً ترد الوصية بالعدل من رب العدل ومعدنه يرسلها من صفين كتابة إلى ولده الحسن بن علي عليهما السلام وغايته بها سائر اولاده من عموم المسلمين لقول النبي (ص) له : يا علي أنا وإياك ابوا هذه الأمة . فيقول فيها : يابني اجعل نفسك ميزاناً فيمابينك وبين الناس فاحبب لغيرك ماتحب لنفسك واكره له ماتكره لها ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم واحسن كما تحب ان يحسن اليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل ما لا تعلم وان قل ما تعلم ولا تقل ما لا تحب ان يقال لك ، ومن ظن بك خيراً

فصدق ظنه ولا تضيعن حق اخيك اتكالا على ما بينك وبينه فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه ولا يكن اهلك اشقى الخلق بك ولايكونن اخوك على مقاطعتك اقوى منك على صلته ولا يكونن على الاساءة اقوى منك على الاحسان .

فتراه كيف يجسم معنى العدل باعطاء صورة منه جلية وافية بجميع مزاياه وكاشفة عن كل فروعـه ومآثره وكفيلة لكل ما تتطلبه الحياة الاجتماعية الحقة وبدون اي تكلف وماذاك إلا انه قد طبق العدالة على نفسه وعمل بها فهو يرسلها من معدنها سيالة في مجاريها قد تجنت بكل هيكله وتشربت بجميع اعضائه لذا تجد خارج افعاله طبق اقواله .

نموذج من عدله الخارجي

ما تصافقت عليه ايدي المؤرخين واتفقت عليه اقلام الكاتبين وهو ما وقع له بواقعة صفين مع عدوه الألد المبين معاوية بن ابي سفيان المؤسس لصدور الشتم واللعن من الطرفين والمفرق لكلمة المسلمين ومنه ابتدأت (سنة) و (شيعة) فكان مصداق قول النبي (ص) : من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وذلك عندما استولى على الماء ومنع امير المؤمنين (ع) ومن معه من الصحابة وسائر المسلمين من وروده حتى اشرفوا على الهلاك من شـدة العطش ، وبعد اخذ الاذن منه (ع) في منازلتهم وقد هزموهم واخذوا الماء بجميع شرايعه وموارده من اهل الشام وارادوا منعهم من وروده كما فعلوا هم والبادي اظلم فلم يرض بذلك عليه السلام بل اباح الماء لهم بالرغم من غضب بعض اصحابه وقال : إن الماء خلق الله فيه شرع سواء ولم يأخذه في ذلك غضب ولا عصبية بل ترجمه الانطباعات الغريزية إلى قرينه العدل وصحيبه الانصاف وأليفه المواساة

ولو اراد الكاتب استيفاء مآثره في العدل وما صدر منه بالفعل لكان بمفرده كتاباً ضخماً ، واخيراً وصيته لأصحابه ونصيحته لشيعته بقوله (ع) : إني اكره لكم ان تكونوا سبابين والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت ادهى الناس . وقوله (ع) : خذ على عدوك بالفضل فانه احلى الظفرين (١) .

هذا رأي الشيعة في العدالة ، بينما تجد غيرهم من فرق المسلمين لايشترطونها في الامام الخاص ولا الامام العام ، بل قد نفوها عن الله الملك العلام وجوزوا عليه ان يدخل عبده الصالح الذي لم يقترف سيئة واحدة نار جهنم معذباً فيها وان يدخل إبليس فضلا عن سائر العاصين وسط الجنة منعماً فيها ، وما ادري مايقولون في اخباره عن نفسه « ان الله لا يظلم مثقال ذرة » (٢) ، اي زنة ذرة وهي النملة الحمراء الصغيرة التي لا تكاد ترى وقيل هي جزء الهباء في النافذة من اثر شعاع الشمس ، وإنما لم يختر سبحانه الظلم لنفسه لأنه قبيح ولا يختار القبيح إلا الجاهل او المحتاج لدفع ضرر او جلب نفع والله منزه عن ذلك وعن كل نقص وعجز ولم يذكر الذرة لقصر الحكم عليها بل لأنها اقل شيء مما يدخل في وهم البشر واساسهم في ذلك اصلهم المغلوط « الخير والشر من الله » وقد شيدوا عليه ابنية وفرعوا منه فروعاً قد بلغت نهايتها من القبح العقلي والعرفي والشرعي ونسبوا اليه تعالى ما لا يرتضون نسبته لأنفسهم وما هو إلا عن قلة التدبر في ظواهر بعض الآيات التي تعطي بنظرتها الأولى ذلك كما ان بعضهم ذهب إلى كونه تعالى جسماً مرئياً وقالباً حسياً لأمثال قوله تعالى : « على العرش استوى » وقوله تعالى : « السموات مطويات بيمينه » ولم يتفهموا انها كناية عن القوة والقدرة واستعارة عن التمكن والسيطرة .

(١) أي ظفر القتال وظفر الاحسان . (٢) سورة النساء الآية ٤٠ .

وكذلك الشبهة الأولى لمثل قوله تعالى : « وما تشاءون إلا ان يشاء الله » ومثل قوله تعالى : « قل كل من عند الله » ومثل « يهدي من يشاء ويضل من يشاء » ومثل قوله (ص) : « كل شيء بقضاء وقدر » وماشابهها وقد اجيب عن ذلك وغيره بأجوبة عديدة ولربما نخرج بتفصيلها عن موضوع كتابنا هـذا ولـكن الاشارة إلى اصول تلك الأجوبة ممايلزمنا به وجوب تنزيه الله تعالى عن كل ما لايليق به ومنه نسبة افعال العباد اليه حتى المعاصي على حد تعبيرهم « الخير والشر من الله » لشبهة انه تعالى عالم بها قبل وقوعها فاذا لم تقع من العبد تخلف علم الله تعالى فعلمه علة لوقوع افعال العباد فهي معلولة لعلمه ، وبذلك تستند اليه والجواب ان علمه تابع للمعلوم والمعلوم كاشف عنه فعلى اي نحو وقع الفعل من العبد المعلوم له تعالى يكون كاشفاً عن ان الله تعالى قد علمه على هذا النحو كعلمنا بطلوع الشمس غداً مثلا فانه ليس علة لطلوعها ، بل العلة هو التكوين الالهي فيها وكذلك في افعال العباد هو الاختيار المودوع في تكوينهم ، وهذا هو الفارق بين تكوينينا وبين تكوين الشمس مثلا فانا نجد الاختيار لأنفسنا في افعالنا إن شئنا فعلنا وإن شئنا تركنا ، وبخلافه للشمس فانها مجبورة على طلوعها وليس في قدرتها عدم الطلوع لو أرادته مثلا ، ونجد الفرق بين ان نشرب ونأكل فان لنا فيه اختيار الفعل والترك وبين كوني طويلا او قصيراً مثلا فان ليس لي فيه الاختيار وكذلك الاضلال فقد توافق العقل والنقل على ان الله لا يريده ولا يأمر به ولـكنه بمعنى تخلية المرء ونفسه ، ولذا ورد في دعاء النبي (ص) رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين لا ان الله يضله جبراً عليه بحيث يسلبه اختياره لو أراد ترك الضلال كيف وقد عبّد سبحانه طرق الهداية لعباده وأنارها لوفاده بتتابع رسله بوعظه وإرشاده وانه تعالى قد شهد على نفسه بقوله : « والله لايحب الفساد »(١)

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٢ .

وبقوله : « وما الله يريد ظلماً للعالمين » (١) وبقوله : « وقد خاب من حمل ظلماً » (٢) وقوله : « وما الله يريد ظلماً للعباد » (٣) .

وكذلك الجواب عن شبهة القضاء والقدر فان للقضاء معان عديدة يطلق عليها وقد استعمل فيها وعدوها لحد العشرة معان . منها الحتم كقوله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت » أي حتمناه ومنه جاءت الشبهة لأهل الجبر من اهل السنة وهم الأشاعرة . ومنها العلم كقوله تعالى : « إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها » أي علمها . ومنها بمعنى القول كقوله تعالى : « يقضي بالحق » اي يقول بالحق ومنها الحكم كقوله تعالى : « يوم يقضي بالحق » اي يحكم وإلى آخر المعاني المذكورة في محالها فكل لفظ قضاء وقدر في الأخبار ينزل على المعنى المناسب له بقرائن الأحوال فمثل ان الأشياء كلها بقضاء الله وقدره تبارك وتعالى بمعنى انه قد علمها وعلم مقاديرها وله عز وجل في جميعها حكم من خير أو شر فما كان من خير فقد قضاه بمعنى انه أمر به وحتمه وجعله حقاً وعلم مبلغه ومقداره . وما كان من شر فلم يأمر به ولم يرضه ولكنه علم به وبمقداره ومبلغه وحكم فيه بحكمه . فالمعاصي يكون معنى قضاء الله فيها حكمه فيها بالنهي عنها .

علي أمير المؤمنين ووارث علم سيد المرسلين

يدفع الشبهة باختصار

روى الصدوق باسناده إلى الحسن بن علي عليهما السلام قال سمعت ابي علي ابن ابي طالب (ع) يقول : الأعمال على ثلاثة احوال : فرائض وفضائل ومعاص

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٥ . (٢) سورة طه الآية ١١١ .
(٣) سورة المؤمن الآية ٣٤ .

فأما الفرائض فبأمر الله عز وجل وبرضاء الله وبقضاء الله وتقديره ومشيته وعلمه وأما الفضائل فليست بأمر الله عزوجل (١) ولكن برضاء الله وبقضاء الله وبقدر الله وبمشية الله وبعلم الله . وأما المعاصي فليست بأمر الله وليست برضاء الله ولكن بقضاء الله وبقدره وبمشيته وبعلمه ثم يعاقب عليها .

الامام الرضا (ع) يدفع شبهة الجبر

بمفصل من كلامه

فقد روى يزيد بن معاوية الشامي قال : دخلت على الرضا (ع) بمرو فقلت له : يابن رسول الله (ص) روي لنا عن الصادق (ع) انه قال : لا جبر ولا تفويض ولكن امر بين أمرين فما معناه ؟ .

فقال (ع) : من زعم ان الله عز وجل فعل افعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر ، ومن زعم ان الله فوض امر الخلق والرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض فالقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك فقلت : يابن رسول الله فما امر بين امرين قال (ع) : وجود السبيل إلى إتيان ما امروا به وترك ما نهوا عنه فقلت : فهل لله مشية وإرادة في ذلك ؟ فقال (ع) : اما الطاعات فإرادة الله فيها الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها ، وأما إرادته ومشيته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والعقوبة عليها والخذلان لها فقلت : فلله فيه القضاء ، قال (ع) : نعم ما من فعل فعله العباد من خير او شر إلا ولله فيه القضاء ، فقلت : فما معنى هذا القضاء ؟ قال عليه السلام : الحكم عليهم بما يستحقونه على افعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة .

(١) أي الأمر الإلزامي فلا ينافيه كونها بأمر الله الاستحبابي .

فالقرآن بحر واسع ظاهره أنيق وباطنه عميق قد اشتمل على أنحاء الكلام المتداولة في كلام العرب والبلغاء من المجاز والكناية والاستعارة وإطلاق السبب وإرادة المسبب وعكسه ولا يميز بعضها عن بعض إلا من تعمق بنظره وتضلع بعلمه واطلع على جميع معانيه والرجوع إلى من خصهم الله فيه وهم الراسخون في العلم على حد تعبير القرآن الكريم عنهم وبحكم الانصاف وعدم الاعتساف بعد الاستقراء والتتبع لا نجد من اوضح لنا مشاكل القرآن وميز الحق من الباطل إلا اهل بيت نبينا صلى الله عليه وعليهم وسلم . ولا غرو في ذلك فانهم تراجمة وحي الله ومعادن علم رسول الله (ص) وقد رجع اليهم كل شارد ووارد .

الامام الصادق (ع) يحمل تلميذه في القدر

أوجز الكلمات

قال (ع) : يا زرارة اعطيك جملة في القضاء والقدر قال : نعم جعلت فداك قال (ع) : إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد اليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم ، وسئل (ع) (١) عن القدر فقال : ما استطعت ان تلوم العبد عليه فهو فعله وما لم تستطع ان تلوم العبد عليه فهو فعل الله تعالى يقول الله للعبد : لِمَ عصيت لِمَ فسقت فهذا فعل العبد ولا يقول له لِمَ طلت لِمَ قصرت لأنه فعله تعالى .

(وروي) أن الفضل بن سهل سأل الرضا (ع) بين يدي المأمون فقال : يا ابا الحسن الخلق مجبورون فقال : إن الله أعدل من ان يجبر ثم يعذب ، قال : فمطلقون ، قال : الله أحكم من ان يهمل عبده ويكله إلى نفسه .

(١) في أنوار النعمانية ج ٢ ص ٢٦١ .

وفي النهج عن امير المؤمنين (ع) وقدّر الأرزاق فكثرها وقللها وقسمها على الضيق والسعة فعدل فيها ليبتلي من أراد (١) بميسورها ومعسورها وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها .

وفي الاحتجاج روى انه اتصل بأمير المؤمنين (ع) ان قوماً خاضوا في التعديل والتجوير فخرج حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد ان يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة فعلم انهم لم يكونوا كذلك إلا بأن يعرفهم ما لهم وما عليهم والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي والأمر والنهي لا يجتمعان إلا بالوعد والوعيد والوعد والوعيد لايكون إلا بالترغيب والترهيب والترغيب لا يكون إلا بما تشتهيه انفسهم وتلذ أعينهم والترهيب لا يكون إلا بضد ذلك ثم خلقهم في داره وأراهم طرفاً من اللذات ليستدلوا به على ما ورائهم من اللذات الخالصة التي لا يشوبها ألم ألا وهي الجنة وأراهم طرفاً من الآلام ليستدلوا به على ما ورائهم من الآلام الخالصة التي لا يشوبها لذة ألا وهي النار فمن أجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطاً بمحنتها وسرورها ممزوجاً بكدرها وغمومها ، وقد قال فيه الجاحظ بعدما سمعه هو جماع الكلام الذي دونه الناس .

ولما سمع ذلك الجبائي قال : صدق الجاحظ . حيث لم يجدا محيصاً عن الاعتراف لأنه سلام الله عليه قد استخلص بموجز كلماته هذه زبد مخاض الكونين وأوضح خلاصة الدارين وبين عدالة الله في أفعاله لكل العالمين فمن العدل والانصاف ان يقاس (ع) بمعاوية وإضرابه بخلافة رسول رب العالمين ومرجعية المسلمين في أحكام الدين ورد شبه الضالين .

---

(١) أي من قصده سبحانه وأراد اختباره .

نموذج من مغيبات عدل الله تعالى

إن موسى (ع) قال : يارب أرني عدلك فقال تعالى : سوف تراه فذهب موسى (ع) فوجد في طريقه عين ماء وعليها شجرة فصعد (ع) على الشجرة وجعل ينظر إلى الطريق والماء وإذا برجل اقبل على عين الماء وانحنى وشرب الماء فوقع منه هميان (١) مملوء دنانير وذهب وهو لايشعر فجاء من بعده غلام فوجد الهميان فأخذه ومضى ثم جاء من بعده رجل أعمى فوقف على الماء وإذا بصاحب الهميان قد رجع يفتش عن هميانه فوجد الأعمى فقال له : اعطني الهميان فقال الأعمى له وما الهميان ؟ قال : الذي وجدته في هذا المكان فقال : إني لم اجد شيئاً واني أعمى لا أبصر كي اجد شيئاً فلما طال الكلام وقد أيس منه صاحب الهميان فقتل الأعمى ومضى ، فقال موسى (ع) : يارب واين العدل وقد قتل الأعمى ظلماً وهو بريء وقد سلم الغلام وهو آخذ الهميان ، فقال تعالى لموسى (ع) : إن الهميان لوالد الغلام قد سرقه الرجل فأرجعناه لولده وان الأعمى كان قد قتل والد الرجل فسلطناه عليه فقتله .

وحيث قد علم العادل سبحانه في عباده والعالم بمصالح أحكامه وتشريعاته ان العدل هو الركيزة لنظم عباده والأساس لاستيفاء كل ذي حق حقه فقد صدر الأوامر العديدة بطلب ذلك من خلقه . وان يتحلوا بجمال صفة العدل كما قد مرت بعض الآيات في صدر الموضوع من ذلك .

ثم يعود سبحانه إلى النهي عن الاتصاف بضد العدل وهو الظلم بأشد لهجة وأبشع تهديد ، ولئلا يطول علينا المقام نكتفي من ذلك باليسير . فقد قال تعالى :

(١) المحفظة للدراهم يشد على وسط المرء .

« والظالمين أعد لهم عذاباً أليما » (١) وقال تعالى : « والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » (٢) فهل ترى اعظم من هذا الوعيد وقد أعد الله له العذاب لكن لا على الاطلاق بل العذاب الموصوف بأنه اليم ، ولايخفى ايضاً ما فيه من التشديد لكونه معداً له ومهيئاً قبل وروده عليه وكذلك ما في الآية الثانية من التهديد بأن لا يتكل في دفع عذاب ظلمه على اعمال اخرى له حسنة او على شفيع او معين فانه تعالى قد قطع عليه ذلك الأمل بقوله القطعي ما له من ولي يواليه ولا نصير ينصره والكل يتبرأ منه ، لأن الله تعالى هو المدعي عليه والخصم له انتصاراً للمظلوم وتحقيقاً للعدل ، وهو سبحانه القائل : « لأنتصرن للمظلوم ولو بعد حين » لم يكتف جل شأنه بالوعيد للظالم بعذاب الآخرة فقط بل يضيف له انتقامه السريع حتى في الدنيا لعلمه بأن الدنيا عندنا أقدم والحرص عليها اشد وقد وردت كلمات الأئمة الأطهار حاكية عن لسان النبي (ص) ومعبرة عن إرادة الله تعالى في الردع عن الظلم والتخويف من سوء عاقبته سواء كان في الدنيا او في الآخرة فقد ذكر في قصص الأنبياء (٣) انه قيل لرسول الله (ص) ما كانت صحيفة ابراهيم (ع) قال : كانت امثالا وكان فيها ايها الملك المبتلى المغرور اني لم أبعثك (٤) لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فأني لا اردها وان كانت من كافر .

وعن علي (ع) من ظلم دمر عليه ظلمه ، من ظلم عظمت صرعته ، من ظلم أفسد عليه أمره ، من ظلم يتيما عق أولاده ، من ظلم رعيته نصر أضداده ، من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، من ظلم قصر عمره ، من ظلم سلط الله عليه من يظلمه ، الظلم ندامة والطاعة قرة عيني ، الظلم ظلمات يوم القيامة ، الظلم وخيم

(١) سورة الدهر الآية ٣١   (٢) سورة الشورى الآية ٧ .
(٣) الجزائري ص ١٣٨ .   (٤) أي لم أجعلك ملكا وسلطانا ... الخ

العاقبة ، الظلم جور لا ينسى ، راكب الظلم يدركه البوار ، شر الناس من يظلم الناس ، يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم . وقد ورد ايضاً الظلم يدع الديار بلاقع ، دار الظالم بوار ، الظلم لا يدوم وإن دام دمر .

وفي مجموعة ورام إذا كان يوم القيامة نادى مناد اين الظلمة وأعوان الظلمة وأشباه الظلمة حتى من برى لهم قلماً او لاق لهم دواتاً فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنم .

ونكتفي بهذا المقدار من بيان قبح الظلم وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة مما ذكرناه ليتضح به حسن العدل كما قيل :

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

فنعود إلى محاسن العدل وبيان أهميته في نظر الشارع حيث ان هدفه الوحيد حرية العباد وسلامة حقوقهم وحفظ الضعيف منهم إلى جانب القوي ، لذا تراه لم يكتف بما قدمناه ، بل يأخذ الحيطة لحفظ صفة العدالة وغرس الانصاف في نفسية عباده بالنهي حتى عن مبادىء الاجحاف ومقدمات الأنانية وحب الذات فيأتينا جل جلاله بآي من الذكر الحكيم تمثل لنا الانسان الكامل المستقيم لو أخذ بما فيها من التعاليم ، وقد ذكرناها بطولها لنفعها العميم .

قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم . يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير . قالت الأعراب

آمنا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » (١) .

سبب النزول

نزل قوله تعالى : لا يسخر ... الخ ، في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقر وكان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي (ص) فيسمع مايقول فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا أماكنهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلى رجل فقال له : أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان فقال له ثابت : ابن فلانة ذكراماً له يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه حياءً فنزلت الآية عن ابن عباس .

وأما قوله تعالى : ولا نساء من نساء ، نزلت في نساء النبي (ص) سخرن من أم سلمة عن أنس وذلك انها ربطت حقويها بسبيه (٢) وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره فقالت عائشة لحفصة : انظري ماذا تجر خلفها كأنه لسان كلب .

وقيل : عيرتها بالقصر وأشارت بيدها انها قصيرة عن الحسن .

ونزل قوله تعالى : ولا يغتب ... الخ ، في رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقهما سلمان بعثاه إلى رسول الله (ص) ليأتي لهما بطعام فبعثه (ص) إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله (ص) على رحله فقال : ما عندي شيء فعاد اليهما فقالا : بخل أسامة . وقالا لسلمان : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله (ص) فقال لهما

(١) سورة الحجرات الآية ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ . (٢) وهي ثوب أبيض

رسول الله (ص) : مالي أرى خضرة اللحم في افواهكما ؟ قالا : يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحماً ؟ قال : ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية .

وعن ابي قلابة قال : إن عمر بن الخطاب حدث أن ابا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه فانطلق عمر حتى دخل عليه فإذا ليس عنده إلا رجل فقال ابو محجن يا امير المؤمنين إن هذا لا يحل لك قد نهاك عن التجسس فقال عمر : ما يقول هذا ؟ قال زيد بن ثابت وعبدالله بن الأرقم : صدق يا امير المؤمنين قال : فخرج عمر وتركه .

وخرج ايضاً عمر يوماً ومعه عبد الرحمن بن عوف يعسان فتبينت لهما نار فأتيا واستأذنا ففتح الباب فدخلا فإذا رجل وامرأة تغني وعلى يد الرجل قدح فقال عمر : من هذه منك ؟ قال : امرأتي ، قال : وما في هذا القدح ؟ قال : ماء فقال للمرأة : ما الذي تغنين ؟ قالت : أقول .

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقني ألا حبيب ألاعبه
فوالله لولا خشية الله والتقى ... لزعزع من هذا السرير جوانبه
ولكن عقلي والحياء يكفني ... واكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثم قال له الرجل : ما بهذا أمرنا يا امير المؤمنين ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فقال عمر : صدقت وانصرف .

وأما قوله تعالى : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ... الخ ، قيل : نزلت في ثابت بن قيس المتقدم ذكره وقوله للرجل الذي يتفسح له ابن فلانة فقال رسول الله (ص): من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت وقال : أنا يا رسول الله فقال : انظر في وجوه القوم فنظر اليهم فقال (ص) : ما رأيت يا ثابت ؟ فقال : رأيت اسوداً وابيضاً واحمراً قال (ص) : فانك لا تفضلهم إلا بالتقوى والدين فنزلت هذه الآية وآية « يا ايها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا

يفسح الله لكم » (١) عن ابن عباس . وقيل: لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله بلالا حتى علا ظهر الكعبة وأذن فقال عتاب بن أسيد : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ، وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره لغيره وقال ابو سفيان إني لا أقول شيئاً أخاف ان يخبره به رب السموات فأتى جبرئيل رسول الله (ص) فأخبره بما قالوا ، فدعاهم رسول الله (ص) وسألهم عما قالوا فأقروا به ونزلت الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والازدراء بالفقر والتكاثر بالأموال عن مقاتل .

المعنى

لما أمر سبحانه بما قبل هذه الآيات بصلاح ذات البين ونهى عن التفرق عقب ذلك بالنهي عن اسباب الفرقة لقلع هذا المرض من جذوره على عادة حذاق الأطباء وهي السخرية والازدراء بأهل الفقر والمسكنة وأمثالها فقال سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر » ... الخ ، اي لا يسخر غني بفقير لفقره إذ ربما يكون الفقير المهين في ظاهر الحال خيراً واجل منزلة عندالله من الغني الحسن الحال أما لو سخر مؤمن من كافر لم يكن مأثوماً (٢) ، ثم قال : « ولا نساء من نساء » ومعناه على ما تقدم تفسيره في سبب النزول « عسى ان يكن خيراً منهن » هذه علة النهي « ولا تلمزوا انفسكم » اي لا يطعن بعضكم على بعض فاذا طعنت اخاك المؤمن فكأنما طعنت نفسك فعدل سبحانه عن التعبير بقوله : ولا تلمزوا غيركم

(١) فانه جل شأنه عاتب الطرفين معاً تحقيقاً للعدل والتوازن وتثبيتاً لحقوق الجميع والأشاعرة مع هذا ينفون منه العدالة وان العدالة هي التي تحاكمهم فبئس ما قدمت لهم أيديهم .

(٢) لدخوله في النهي عن المنكر .

مع انه هو المقصود الى التعبير بقوله : ولا تلمزوا انفسكم لما فيه من البيان لعلة النهي وان اخاك كنفسك ، ومن الارشاد لمجموعة المؤمنين بأن يكونوا كنفس واحدة « واللمز هو العيب في المشهد والهمز العيب في المغيب » « ولا تنابزوا بالألقاب » والنبز القذف باللقب نظير ما قال ثابت للرجل ابن فلانة كما تقدم وهو تسمية الشخص بغير ما يسمى به ، وإذا دعي يكرهه كقولك للرجل : يا كافر يا فاسق يا منافق ، وقيل كان اليهودي والنصراني يسلم فيقال له بعد يا يهودي او يانصراني فنهوا عن ذلك ، وقيل هو ان يعمل إنسان قبيحاً ثم يتوب منه فيعير بما سلف منه .

وروي ان صفية بنت حي بن اخطب أتت الى النبي (ص) تبكي فقال لها : ما ورائك ؟ فقالت : إن عائشة تعيرني وتقول يهودية بنت يهوديين فقال لها : هلا قلت لها ابي هارون وعمي موسى وزوجي محمد (ص) فنزلت الآية ولا تنابزوا الخ وأما قوله تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » معناه اي بئس الاسم ان تقول له : يا يهودي وقد آمن ، وقيل : إن معناه بئس الشيء اكتساب إثم الفسوق باغتياب المسلمين ولمزهم ، ثم قال تعالى : « ومن لم يتب من التنابز والمعاصي ويرجع الى طاعة الله وامتثال اوامره ونواهيه ويقلع عما تشتهيه نفسه من التنقيص بالمسلمين فأولئك هم الظالمون لنفوسهم ولغيرهم بفعل مايستحقونه عليه من العقاب» ثم قال سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن » قال الزجاج : وهو ان يظن بأهل الخير سوءاً ، فأما اهل السوء والفسوق فلنا ان نظن بهم ماظهر منهم ، وقيل : هو ان يظن بأخيه المسلم سوءاً ولا بأس به ما لم يتكلم به فان تكلم بذلك الظن وأبداه أثم ، وهو قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » يعني الذي اعلنه بعد ما ظنه بأخيه وإنما قال : اجتنبوا كثيراً من الظن ، ولم يقل كله لأن بعض الظن مما يجب العمل به كما لو انسد باب العلم على الفقيه في فرع من الفروع

لكن قام لديه الظن عليه فيجب العمل حينئذ بالظن وكذلك سائر المعاملات وكذلك ظن الخير بالمؤمنين ليس منهياً عنه بل يكون ممدوحاً عليه كقوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » وقيل : يجب على المؤمن ان يحسن الظن ولا يسيئه في شيء يجد له تأويلا جميلا وان كان ظاهراً قبيحاً ثم ينهى سبحانه عباده عن صفة اخرى رذيلة وخسيسة فيقول : ولا تجسسوا أي ولا تتبعوا عثرات المؤمنين ، وقيل : إن التجسس في الشر والتحسس بالحاء في الخير ، كقوله تعالى في حكاية عن يعقوب : « فتحسسوا من يوسف وأخيه » ، وقيل معناه لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوها بعد ما سترها اهلها ، وقيل معناه لا تبحثوا عما خفي حتى يظهر .

وفي الحديث « إياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » .

ثم قال تعالى في النهي عن أخس صفة وأرذل حالة : « ولا يغتب بعضكم بعضاً » الغيبة هي ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه ، لأن الحكمة اقتضت تألف القلوب لا تنفيرها .

وفي الحديث إذا ذكرت الرجل بما فيه مما يكرهه فقد اغتبته وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهته .

وعن جابر قال : قال رسول الله (ص) : إياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا فقيل : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر (١) له صاحبه . وقيل : نظر امير المؤمنين (ع) الى رجل يغتاب رجلا عند ابنه الحسن (ع) فقال : يا بني نزه سمعك عن مثل هذا فانه نظر الى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك ، ثم قال : قال رسول الله (ص)

(١) وفي نسخة حتى يحلله صاحبه .

يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الايمان الى قلبه لا تذموا المسلمين وتتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في بنيه وعن الباقر (ع) قال: وجدنا في كتاب علي (ع) ان رسول الله (ص) قال على المنبر: والله الذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله عز وجل والكف عن اغتياب المؤمن والله الذي لا إله إلا هو لا يعذب الله عز وجل مؤمناً بعذاب بعد التوبة والاستغفار له إلا بسوء ظنه بالله عز وجل واغتيابه للمؤمنين .

وهذا ايضاً يدل على ان التوبة من الغيبة لا تجدي إلا برضاء صاحبها .

وقال الصادق (عليه السلام): من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: « ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم » .

وقال النبي (ص): من اكل بأخيه المؤمن او شرب او لبس ثوباً اطعمه الله بها اكلة من نار جهنم وسقاه سقية من حميم جهنم وكساه ثوباً من سرابيل جهنم ، ومن قام بأخيه المؤمن مقاماً شائناً اقامه الله مقام السمعة والرياء .

وعن الصادق (ع) من روى على اخيه رواية يريد بها شينه وهدم مروته اوقفه الله في طينة خبال (١) حتى يبتعد مما قال .

وقال رسول الله (ص): من اذاع فاحشة كان كمبتدئها ومن عير مؤمناً بشيء لم يمت حتى يرتكبه .

وقال الباقر (ع): من كف عن أعراض الناس اقاله الله نفسه يوم القيامة ومن كف غضبه عن الناس كف الله عنه عذاب يوم القيامة ومن جدد اخاً في الاسلام بنى الله له برجاً في الجنة من جوهرة .

(١) عصارة أهل النار .

وقال النبي (ص) : الغيبة اسرع في جسد المؤمن من الأكلة في لحمه .

ثم ضرب الله سبحانه مثلا للغيبة من افظع الأمثال التي تنفر منها الطباع فقال : « أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً » وتأويله ان ذكرك بالسوء من لم يحضرك بمنزلة ان تأكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك وتكون جهة التشبيه عدم الاحساس لأنه مع عدم الاحساس يكون اشنع على المستغيب لأنه يعطي الخسة والنذالة ، وكأنهم قالوا في جواب الاستفهام « لا » فقيل لهم : « فكرهتموه » ومعناه فكما كرهتم ذلك فاكرهوا هذا ، أي ذكره بالسوء غائباً ، وقيل : ان معناه فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حياً ، وقيل : ان معناه كما يمتنع احدكم من اكل لحم اخيه ميتاً لكراهية الطبع له ، كذلك يجب ان يمتنع عن غيبته لكراهية العقل والشرع له ، لأن دواعي العقل والشرع احق بالاتباع من دواعي الطبع فان داعي الطبع اعمى وداعي العقل بصير .

وعن ميمون قال : بينما أنا نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول : كل ياعبدالله قلت : ولِمَ آكل ؟ قال : بما اغتيب عندك فلان قلت : والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً قال : لكنك استمعت فرضيت ، وكان ميمون بعد ذلك لا يدع أن يغتاب عنده واحد .

وقال رجل لابن سيرين : إني قد اغتبتك فاجعلني في حل ، قال : إني اكره ان أحل ما حرم الله .

وقال رسول الله (ص) : الصائم في عبادة وان كان نائماً على فراشه ما لم يغتب مسلماً .

فليفهم مدى ضرر الغيبة وقد توسعنا بذكر مقدار من اخبار الغيبة ردعاً لكثرة التساهل باستعمالها بحيث قد صار التكلم بها يشاطر الكلام بغيرها او يزيد وقد أصبح جريها على اللسان معتاداً والعذر عند مستعملها هو اني لم اقل إلا

الذي فيه ولم اكذب عليه والحال انه سمع كثيراً ان معنى الغيبة ان تقول فيه ما يكره ذكره مما هو فيه وان لم يكن فيه فهو كذب وبهتان ، لكن منشأ هذا العذر المغلوط هو كثرة استعمالها حتى صارت امراً اعتياداً ، ولنختم الكلام فيها بما ذكره الامام الصادق (ع) ان لله تبارك وتعالى على عبده المؤمن اربعين جنة فمتى أذنب ذنباً كبيراً رفع عنه جنة فاذا اغتاب اخاه المؤمن بشيء يعلمه منه انكشفت تلك الجنن عنه ويبقى مهتوك الستر فيفتضح في السماء على السنة الملائكة وفي الأرض على السنة الناس ولا يرتكب ذنباً إلا ذكروه ويقول الملائكة الموكلون به يا ربنا قد بقي عبدك مهتوك الستر وقد أمرتنا بحفظه فيقول عز وجل : ملائكتي لو أردت بهذا العبد خيراً ما فضحته فارفعوا اجنحتكم عنه فوعزتي لا يؤل بعدها الى خير أبداً .

ثم قال تعالى بعد ذلك : « واتقوا الله » اي تحرزوا من عقابه خصوصاً إذا شدد النكير على أمر من الأمور فان العقاب عليه أيضاً شديد ثم قال تعالى : « ان الله تواب رحيم » يقبل من عبده ان علم منه صدق النية ويرحمه بغفران ذنوبه أولا وباعطائه الأجر والثواب ثانياً ، لأن التوبة هي في حد ذاتها من الأعمال الصالحة وقد أمر الله تعالى بها فيستحق فاعلها الأجر .

ثم قال تعالى : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهذا خطاب عام بلفظ الناس وما تقدمه كان بلفظ المؤمنين ، والمراد بالذكر والأنثى آدم وحواء والمعنى انكم متساوون في النسب وقد زجر تعالى بذلك عن التفاخر بالأنساب .

وروي عن النبي (ص) انه قال : انما انتم من رجل وامرأة كجمام الصاع ليس لأحد على احد فضل إلا بالتقوى كل ذلك من مبادئ تركيز صفة العدالة في المرء كي ينصف غيره .

ثم ذكر تعالى الحكمة في تفريق الأنساب ، وانها هي التعارف لا لتفاخر

فقال : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » الشعوب جمع شعب وهو الحي العظيم مثل مضر وربيعة والقبائل هي دون الشعوب مثل بكر من ربيعة وتميم من مضر هذا قول اكثر المفسرين وقيل : الشعوب دون القبائل وإنما سميت بذلك لتشعبها وتفرقها وقيل : أراد بالشعوب الموالي وبالقبائل العرب « لتعارفوا » أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه ، ولولا ذلك لفسدت المعاملات وخربت الديار ، ولما امكن نقل حديث او خبر ثم اعطى سبحانه القاعدة العامة التي يحق للمتصف بها ان يفاخر غيره فقال : « إن اكرمكم عند الله اتقاكم » ومعناه ان اكثركم ثواباً وأرفعكم منزلة عند الله أتقاكم لمعاصيه وأعملكم بطاعته وقد فسرت التقوى بتفاسير عديدة ويجمعها ما روي عن ابي عبدالله (ع) ان لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث امرك .

وروي عن رسول الله (ص) انه قال : يقول الله يوم القيامة : امرتكم فضيعتم ما عهدت اليكم فيه ورفعتم انسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع انسابكم اين المتقون إن اكرمكم عند الله أتقاكم .

وروي ان رجلا سأل عيسى بن مريم أي الناس افضل ؟ فأخذ قبضتين من تراب فقال : أي هاتين افضل الناس خلقوا من تراب فأكرمهم اتقاهم .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : إن الله عز وجل جعل الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسما وذلك قوله تعالى : « واصحاب اليمين واصحاب الشمال » فأنا من اصحاب اليمين وأنا خير اصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين اثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً وذلك قوله : « واصحاب الميمنة واصحاب المشأمة والسابقون السابقون » فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » الآية ، فاني أتقى ولد آدم ولا فخر واكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها

بيتاً وذلك قوله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب .

ثم قال تعالى : « ان الله عليم » أي بأعمالكم « خبير » أي بأحوالكم لا يخفى عليه شيء من ذلك .

وحيث ان العدل يلازم الايمان الصحيح اخذ سبحانه في بيان الايمان وانه غير الاسلام فقال تعالى « قالت الأعراب آمنا » ونزولها في قوم من بني أسد أتوا النبي (ص) في سنة مجدبة وأظهروا الاسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر وانما كانوا يطلبون الصدقة والمقصود من الآية انهم قالوا للنبي (ص) : إنا صدقنا بما جئت به فأمره الله تعالى أن يخبرهم بما أسرته ضمائرهم ليكون آية ومعجزة له وإنذاراً لمن يكون على حذوهم من المسلمين فقال تعالى : « قل لم تؤمنوا » أي لم تصدقوا على الحقيقة وفي الباطن لأن علامة التصديق هو الانقياد للأوامر وعدم التخلف عن أي شيء سواء وافق شهوة النفس أم خالفها وعدم الاعتراض على أي أمر من الأمور التي يأمر بها رسول الله (ص) « ولكن قولوا أسلمنا » أي استسلمنا وصرنا منقادين مخافة السبي والقتل ثم بين تعالى ان الايمان محله القلب دون اللسان فقال : « ولما يدخل الايمان في قلوبكم » فقد عرفوا الاسلام بأنه إظهار الخضوع والقبول لما أتى به الرسول وبذلك يحقن الدم فان كان مع ذلك الاظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الايمان وصاحبه المؤمن المسلم حقاً فاما من أظهر قبول الشريعة لدفع المكروه عن نفسه فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق وقد اخرج الله تعالى مثل هؤلاء من الايمان بقوله : « ولما يدخل الايمان في قلوبكم » أي لم تصدقوا بعدما أسلمتم تعوذاً من القتل فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر والذي اظهر الاسلام ليسلم من القتل غير مؤمن في الحقيقة وان جرى عليه حكم المسلم .

وروى انس عن النبي (ص) انه قال : الاسلام علانية والايمان في القلب وأشار (ص) إلى صدره .

ثم قال تعالى مرغباً لهم على الايمان التام : « وان تطيعوا الله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً » أي لا ينقصكم من ثواب اعمالكم شيئاً « ان الله غفور رحيم » أي يغفر لكم ما مضى من اسراركم الكفر والنفاق ان اخلصتم بأيمانكم واستقمتم في اعمالكم وإطاعتكم ، ثم يعطى سبحانه صفة الايمان كي لايبقى فيه لبس فيقول : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » أي لم يشكوا في دينهم بعد أيمانهم وبقوا مرابطين على ما سمعوا من النبي (ص) ثابتين على ما عقلوه غير تابعين لأمواج الهواء « وجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » في اقوالهم دون من يقول بلسانه دون قلبه ويبقى يترقب الفرص للنكث والرجوع على العقب فلما نزلت الآيتان أتوا رسول الله (ص) يحلفون انهم مؤمنون صادقون في دعواهم الايمان فأنزل الله تعالى قوله : « قل أتعلمون الله بدينكم » أي تخبرون الله بالدين الذي انتم عليه ، والمعنى ان الله عالم بذلك فلا يحتاج إلى اخباركم به وهذا استفهام إنكار وتوبيخ ، أي كيف تعلمون الله بدينكم « والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم » لأن علمه عين ذاته لا يحتاج فيه إلى كسب من مخبر ومعلم ، كما ان وجوده تعـالى أزلي لا يحتاج إلى موجد وقد كانوا عند مجيئهم إلى النبي (ص) في مقام المنة عليه يقولون : إنا آمنا بك من غير قتال وقد قاتلك بنو فلان فقال تعالى في جوابهم « يمنون عليك ان اسلموا » أي بدخولهم في دين الاسلام « قل لا تمنوا علي إسلامكم » أي باسلامكم « بل الله يمن عليكم إن هداكم للايمان » وأرشدكم اليه حيث نصب لكم الأدلة عليه وأزاح عنكم عللكم وشبهكم وأراكم طرقه ووفقكم له « إن كنتم صادقين » في ادعائكم الايمان لأن من صدق في إيمانه وجد حلاوته

وعظيم فوائده عاجلا وآجلا فيشكر الله على ذلك ويعتبره من نعم الله عليه كما ورد الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

والخلاصة

إن الآية الكريمة تعطينا من تعاليم الأخلاق ما لو التزمناها وطبقناها لأخذت بأيدينا في الارتفاع بدرجات الكمال والرقي بمراتب المعارف إلى أوج نكون به مثال الانسانية ومرآت الروحانية وسحق الأنانية وبلورة النفس وصقلها من كثافة إلى حد نكون منخرطين في صفوف الملائكة ، لأن الأخذ والتلبس بتلك الصفات المنهي عنها ناشىء من تلويث النفس وعدم صفائها والعلة الأولى لكل ذلك بحيث تكون هي ركيزة الخير جلباً وركيزة الشر دفعاً هي الايمان الصحيح بأن مراتب الدنيا وجميع خيرها وشرها بعلم من الله تعالى حسب مصالحها الدفينة في ملاكاتها « يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير » وكذلك قوله : « رزقكم في السماء وما توعدون » هذا مما يخص دار الدنيا وإذا اضيف إلى ذلك الايمان بالنشر والحشر والحساب والجزاء على كل صغيرة وكبيرة الخير بالخير والشر بالشر وتصور دقة الحساب وطوله بكيفياته المرسومة على نعم الدنيا فعندها يهون على المرء ما هو فيه من بؤس فلا يرتكب الشرور والرذائل من الحسد والغيبة وغيرها كما انه يحتقر ايضاً ما هو فيه من الرفاه لو كان من ذوي الوسعة والرفاه لما يرى من طول حسابه وشديد موقفه تجاه رفاهه فلا يرتكب ايضاً خسائس الصفات من التجبر والتكبر والسخرية والاستهزاء كما قد نورتنا مضامين الآية الكريمة بذلك كله .

النتاج من الخلاصة

إن بتلك الآداب تكون مجموعة متراصة متحابة متكاتفة ومؤلفة من غني وفقير وقوي وضعيف وعالم وجاهل ورئيس ومرؤوس متوازنة لا يسخر بعضها ببعض ولا يغتب بعضها بعضاً ولايتجسس بعضها على بعض ولا يظن البعض سوءاً بالبعض فتكون الدنيا بذلك لهم والأخرى مقر سعادتهم .

هذا القرآن وتعاليمه هذا الدين وتصاميمه هذا الاسلام وأحكامه لو وجد له أنصاراً به يعملون وأعواناً له يطبقون . إن الدين يعالج امراض النفوس بمثل هذه الآية وما تحمله من الوصفات فاذا شفاها من علائقها الوهمية وصفاها من ترسباتها القذرة المكروبية اندفعت الجوارح الخارجية بأعمالها الصالحة النقية مستمدة للمعونة من مقدراتها السماوية مؤمنة بما انقدح لها بأن لا أثر للحسد واخواته في الحصول على ما ترومه نابذة لظلمة خسائس تلك الصفات وراء ظهرها مقبلة على التلبس برفيع كامل الصفات بنور ايمانها .

ثم يعطي سبحانه وتعالى القاعدة للولاية العامة والأساس في الامامة الشاملة بجعل العدالة شرطاً أساسياً فيها ولم يعط أي رخصة في التسامح فيها ويصبها مصب الأخبار عن محاورة قد جرت بينه عز وجل وبين خليله ابراهيم عليه السلام ورد طلبه على عمومه بالرغم من انه تعالى قد اكرمه سابقاً باستجابة دعائه كل ذلك للاعلام وليسمع عموم الأنام بشرطية العدالة في الامام ، قال تعالى : « وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين » ... الخ (١) .

(١) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

معنى الآية الكريمة

الابتلاء هو الاختبار وهو مجاز لأن الحقيقة ممتنعة عليه جل جلاله ، أي ليظهر للناس امتثاله (ع) وصبره على الطاعة ليقتدوا به ، واما الكلمات التي ابتلاه واختبره بها فقد اختلف المفسرون فيها « فقال بعضهم » هي ما رآه في نومه من ذبح ولده اسماعيل ابي العرب وعلى هذا القول يكون معنى قوله : فأتمهن أي أتمها ابراهيم (ع) وعزم عليها وسلم لأمر الله تعالى فقال سبحانه ثواباً وأجراً له حيث عمل بأمره اني جاعلك للناس إماماً ثم انزل عليه الحنيفية وهي الطهارة عشرة اشياء خمسة منها في الرأس وهي أخـــذ الشارب وإعفاء اللحى وطم الشعر والسواك والخلال (١) وخمسة في البدن وهي حلق الشعر من البدن والختان وتقليم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء فهذه الحنيفية الطاهرة التي جاء بها ابراهيم (ع) فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة وهو قوله تعالى خطاباً لنبينا محمد (ص) : « قل بل ملة ابراهيم حنيفاً » (٢) ، أي اتبع ملة ... الخ .

وقال قتادة : إنها عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وسنة في شريعتنا وهي المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك «في الرأس» والختان وحلق العانة ونتف الأبط وتقليم الأظفار والاستنجاء بالماء « في البدن » .

وفي رواية اخرى عن ابن عباس انه ابتلاه بثلاثين خصلة من شرائع الاسلام لم يبتل احداً بها فأقامها كلها ابراهيم فأتمهن فكتب له البراءة فقال تعالى : « وابراهيم الذي وفى » وهي عشر في سورة براءة « التائبون العابدون » ...الخ « وعشر في الأحزاب « ان المسلمين والمسلمات » ...الخ ، وعشر في سورة المؤمنون

(١) أي خلال الأسنان بعد الأكل . (٢) سورة البقرة الآية ١٣٠ .

« قد أفلح المؤمنون إلى قوله هم الوارثون » .

وروي وعشر في سورة « ســـأل سائل إلى قوله والذين على صلاتهم يحافظون » فجعلها اربعين .

« وقيل » انه أمر بمناسك الحج فأتمها «وقيل» ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والختان وبذبح ابنه وبالنار وبالهجرة فكلهن وفى الله فيهن « وقيل » ابتلاه الله بالآيات التي بعدها وهي قوله تعالى : إني جاعلك للناس إماماً إلى آخر القصة « وقيل » أراد بذلك كل كلفة من الطاعات العقلية والشرعية ، والآية محتملة لجميع هذه الأقوال في معنى الكلمات والحنيفية .

وقال سعيد بن المسيب : كان ابراهيم اول من أضاف الضيف وأول من اختتن وأول من قص الشارب واستحد وأول من رأى الشيب فقال : يا رب ما هذا ؟ قال : هذا الوقار قال : يا رب زدني وقاراً .

وزاد فيه السكوني عن ابي عبدالله (ع) انه اول من قاتل في سبيل الله وأول من اخرج الخمس وأول من اتخذ النعلين وأول من اتخذ الرايات ، وقد تقدم ذكر بعضها في قصصه (ع) .

وروى ابن بابويه مرفوعاً إلى المفضل بن عمر عن الصادق (ع) قال : سألته عن قول الله عز وجل : « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات » ما هذه الكلمات قال : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه وهو انه قال : يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ألا تبت علي فتاب الله عليه انه هو التواب الرحيم ، فقلت : يابن رسول الله فما يعني بقوله فأتمهن قال : أتمهن إلى القائم عجل الله فرجه اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين (ع) قال المفضل : فقلت : يابن رسول الله فأخبرني عن كلمة الله عزوجل وجعلها كلمة باقية في عقبه قال (ع): يعني بذلك الامامة جعلها في عقب الحسين (ع) إلى يوم القيامة فقلت : يابن

رسول الله فكيف صارت الامامة في ولد الحسين (ع) دون ولد الحسن وهما جميعاً ولدا رسول الله (ص) وسبطاه وسيدا شباب اهل الجنة فقال : إن موسى وهارون نبيان مرسلان اخوان فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى ولم يكن لأحد ان يقول : لمَ فعل الله ذلك وان الامامة خلافة الله عز وجل ليس لأحد ان يقول : لمَ جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن ، لأن الله هو الحكيم في افعاله لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .

«وقيل» إن الكلمات هي الامامة كما تقدم بدليل ان الكلام متصل ولم يفصل بين قوله اني جاعلك للناس إماماً وبين ما تقدمه بواو العطف ولم يقل واني جاعلك بل قال : إني جاعلك ومعنى قوله أتمهن أي ان الله تعالى أتمهن بأن اوجب بها الامامة بسبب طاعته واضطلاعه بما ابتلاه ومعناه إني جاعلك إماماً يقتدى بك في افعالك واقوالك لأن المستفاد من لفظ الامام أمران احدهما المقتدى به في افعاله واقواله ثانيهما الذي يقوم بتدبير الأمة وسياستها وامورها وتأديب جناتها وتولية ولاتها وإقامة الحدود على مستحقيها ومحاربة من يكيدها ويعاديها ، فعلى الأول لا يكون نبي إلا وهو إمام وعلى الثاني لا يجب في كل نبي ان يكون إماماً فلما ابتلى ابراهيم ربه بالكلمات فأتمهن جعله الله إماماً جزاء له على ذلك ولحصول القابلية فيه بتلكة النفس والسيطرة عليها حسبما كشف عن ذلك للناس الامتثال للطاعات الشاقة كما بينا

فلما رأى ذلك ابراهيم من إكرام ربه له طلب امراً آخر وقال (ع) : « ومن ذريتي » أي واجعل من ذريتي من يوشح بالامامة ويرشح لهذه الكرامة وقيل : إنما قال ذلك ليتعرف هل يكون في عقبه أئمة يقتدى بهم قال تعالى في جوابه تحقيقاً لاشتراط العدالة في الامام ومرجع الأنام وقطعاً للمعاذير بصريح قوله وناصع لفظه : « لا ينال عهدي الظالمين » قال مجاهد : العهد هو الامامة. وهو المروي عن ابي جعفر (ع) وابي عبدالله (ع) أي لا يكون الظالم إماماً

للناس لأنه إذا ظلم نفسه التي هي اعز الأشياء عليه بارتكاب المعاصي وتسليمها إلى عذاب جهنم فلايكون مأموناً من ظلم الناس بطريق اولى فلا يكون تسليطه عليهم عدلا وقد استدل علماء الشيعة على وجوب عصمة الامام عن القبائح بهذه الآية إضافة إلى استدلالاتهم الأخرى وقد عرفوا العدالة بأن يكون للانسان ملكة تمنعه عن فعل الكبائر وعن الاصرار على الصغائر هـذا بلحاظ اقل افرادها واضعف مراتبها ، لأنها لا حـد لها في مراتب الارتفاع والثقل في الوزن ولذا اضافوا اليها الورع ، والمراد منه الكمالات النفسية التي لم تبلغ درجة الالزام بحيث ان تركها حرام بل ان الاتصاف بها يكون كاشفاً عن وجود تلك الملكة وقوة السيطرة على النفس حتى بالنسبة إلى المباحات فيتركها لكون الاتصاف بها وارتكابها مما ينافي المروة على حد تعبير الفقهاء وإن شئت فقل مما ينافي كونه شريفاً ورفيعاً وفقاً للتعبير الدارج كمثل الجلوس في الأسواق والأكل فيها حيث قد ورد انها مقاعد الشياطين ومثل الضحك الكثير وعلى الأخص إذا كان في الطرقات ومثل رفع الصوت لغير موجب ومثل التسامح في نقل الكلام الغير الثابت او الاستماع له وللمهازيل من الكلام فان ذلك كله منبىء عن ضعف تلك الملكة الرادعة وإن لم يضر بأصل العدالة لكن الالتزام بها مما يزيد الوثوق بعدالته ، ومن هنا قد ورد ان المكروهات حمى المحرمات والمندوبات حمى الواجبات .

الفصل الثانى

في العفو وفضيلته

فاعلم انه قد ورد الأمر به في القرآن والارشاد اليه من الرحمن والترغيب فيه من ذوي الفصاحة والبيان ما يكاد ان يجعله في صف الواجبات وتركه في سلك المحرمات .

قال الله تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (١) . وقال تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم » (٢) . وقال تعالى : « وان تعفوا اقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم » (٣) . وقال تعالى : « وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم » (٤) . وقال تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » (٥) . وقال تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام » (٦) . وقال تعالى : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » (٧) . وقال تعالى : « فاصفح الصفح الجميل » (٨) . وقال تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » (٩) . وقال تعالى : « ان تبدو خيراً او تخفوه او تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً » (١٠) . وقال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء

(١) سورة الشورى الآية ٣٩ .
(٢) سورة النور الآية ٢٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٩ .
(٤) سورة التغابن الآية ١٥ .
(٥) سورة البقرة الآية ١٠٤ .
(٦) سورة الزخرف الآية ٩٠ .
(٧) سورة المائدة الآية ١٢ .
(٨) سورة الحجر الآية ٨٦ .
(٩) سورة الأعراف الآية ١٩٨ .
(١٠) سورة النساء الآية ١٤٩ .

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (١) .

إن الله قد امرنا بالمسارعة إلى المغفرة وعدم التريث والتأخر ، وهذا إنما يكون في مقام خوف فوت الشيء والوقوع بالخسران والندم ، إما إذا كان الشيء مستطيلا وقته ومستمراً زمانه فلاحاجة إلى المسارعة اليه وفي كل وقت تطلبه تجده ميسوراً ، وحيث ان طلب المغفرة من الله تعالى إنما يكون في الدنيا دار التكليف واما في الآخرة وبعد الموت وانقطاع التكليف فلا مجال لذلك كما ورد اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل لأن المراد من المسارعة إلى المغفرة أي المسارعة إلى اسبابها لا هي نفسها لأن المغفرة نفسها فعل الله تعالى وهو غير مقدور لنا واسبابها الأعمال التي توجب المغفرة وافعال الطاعات لقوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » وحيث ان المرء قد حكم عليه بالموت وهو غير معلوم الوقت ولعله قد حان وخيم عزرائيل بأجنحته على رأسه فيفوته إذاً طلب المغفرة ، فلذا يأمرنا الحكيم بالمسارعة إلى ذلك ثم إن الشيء قد يكون بحالة لا يؤسف على فوته لقلة فائدته وعدم التضرر بخسارته ، فلهذا يدفع هـــذا الوهم والاحتمال ويزيل عنا الاتكال ببيان عظيم الثمرة وجليل الفائدة فيعطف على قوله مغفرة قوله وجنة عرضها السموات والأرض عطفاً بيانياً ترغيباً لعباده على المسارعة والمسابقة على الحصول على ذلك الربح ولايخفى ما في توصيف الجنة بأن عرضها بمقدار السموات والأرض من الدلالة على عظيم سعتها فكأنه يقول : إذا كان عرضها هكذا فكيف بطولها ثم يقول سبحانه : انها أعدت وهيئت وفيه ايضاً من بيان التعظيم لأهلها والتجليل لطالبيها ما لا يخفى على النبيه وكأنه تعالى يقول : إن هذا العطاء لطالب المغفرة ليس عرضياً وصدفياً ، وبالوقت الحاضر وإنما هو عن استعداد وتهيؤ كما لو انك دعوت شريفاً وكبيراً على الحضور في بيتك كيف تستعد له قبل أيام بخلاف ما لو

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٣ .

دعوت عادياً فلعلك تكتفي له بموجود بيتك الفعلي فهل لنا ان نأخذ ذلك من ربنا جل جلاله بمحل من التقدير والاعتبار ثم يأتي سبحانه على صفة المستحقين لهذه الكرامة ومن قد هيئت لهم الجنة فيقول : « أعدت للمتقين » وهم من خافوا الله ولم يعصوه او عصوا وندموا وتابوا وطلبوا منه المغفرة وفعلوا الطاعات وقد نص ايضاً على تشخيص الطاعات فقال : « الذين ينفقون في السراء والضراء » أي لا يفرق عندهم حالة الضيق والسعة فهم قد فرضوا لموارد النفقة حصة في أرزاقهم وإن ضاقت امورهم وما ذاك إلا لقوة إيمانهم بالله كما قد مر عليك ما ذكرنا عن الصادق (ع) قوله : اني لأملق احياناً فأتاجر الله بالصدقة وإذا أضيف إلى ذلك مدحة الله تعالى لهم ورضاه عنهم مع اجر الآخرة فالتجارة تكون اعظم .

ثم يوصفهم سبحانه ثانياً بقوله : « والكاظمين الغيظ » وقد ورد فيه اخبار كثيرة منها ما رواه ابو امامة قال : قال رسول الله (ص) : من كظم غيظه وهو قادر على إنفاذه ملأه الله يوم القيامة رضا .

وفي خبر آخر ملأه الله يوم القيامة أمناً وإيماناً .

وقال ايضاً : كاظم الغيظ كضارب السيف في سبيل الله في وجه عدوه .

وقال (ص) : من أحب السبل إلى الله عز وجل جرعتان جرعة غيظ تردها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر .

وقال (ص) : من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه وحلم عنه كان له أجر شهيد .

وعن الصادق (ع) قال : قال لي ابي (ع) : ما من شيء أقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر .

وعنه (ع) نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها فان عظم الأجر لمن عظم البلاء

وقال (ع) : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

وفي قصص الأنبياء ان نوحاً سأل إبليس انك متى تكون اقدر على ابن آدم ؟ قال : عند الغضب .

ثم قال تعالى في وصف المتقين ثالثاً : « والعافين عن الناس » .

وقد روي عن رسول الله (ص) انه قال : إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت .

وقال (ص) : ما عفا رجل عن مظلمة قط إلا زاده الله بها عزاً .

وعنه (ص) ايضاً ان العفو يزيد صاحبه عزاً فاعفوا يعزكم الله . فالانسان إذا اراد الانتقام لا يقصد به إلا إعزاز نفسه ودفع الذل عنها فاذا تعهد له الباري عز اسمه بزيادة العز عند العفو فماذا يريد بعد هذا ولماذا لا يعفو؟ نعم لأن الشيطان يطارده حيث هو معه في معركة مستمرة فيهيج غضبه ويلهب ناره وينسيه ما تعقله حتى يوقعه فيما يريد فيكون مسروراً فهل لنا ان نربح معركتنا معه باستحضار صورة تعاليم ربنا عز وجل وإرشاد نبينا (ص) وإيضاحات أئمتنا (ع) فنبقيه خاسراً ومحزوناً .

ففي الأمالي عن الصادق (ع) انه قال : إنا اهل بيت مروتنا العفو عمن ظلمنا . ومقصده (ع) الترغيب لمحبيهم ان يتشبهوا بهم لا انه يريد ان يمدح نفسه

وعنه (ع) العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين .

وفي الكافي عن ابي الحسن عليه السلام ما التقت فئتان قط إلا نصر الله أعظمها عفواً .

وفي كتاب الخصال ثلاث من كن فيه استكمل خصال الايمان : من صبر على الظلم و كظم غيظه واحتسب وعفا وغفر كان ممن يدخله الله الجنة بغير حساب ويشفعه في مثل ربيعة ومضر « وإذا ما غضبوهم يغفرون » .

وفي معاني الأخبار والأمالي عن الرضا (ع) في قوله تعالى : « فاصفح

الصفح الجميل » قال : العفو من غير عتاب (١) .

وفي كتاب عيون أخبار الرضا عنه (ع) اولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة (٢) ، وقال رسول الله (ص) : عليكم بمكارم الأخلاق فان الله عز وجل بعثني بها وان من مكارم الأخلاق ان يعفو الرجل عمن ظلمه .

فلنفهم ان العفو والغفران هما من صفات رب العالمين اودعها في أسرار أصفيائه ليتخلقوا بأخلاق خالقهم وندبونا إلى الالتحاق بهم والتحلي بشريف صفاتهم ومن لا يعفو عن بشر مثله كيف يرجو العفو من ملك جبار ، وقد قال امير المؤمنين (ع) العفو زكاة الظفر .

وقال رسول الله (ص) حاكياً عن الله تعالى : صل من قطعك واعف عمن ظلمك واعط من حرمك واحسن إلى من أساء اليك وكان (ص) يقول : أيعجز احدكم ان يكون كأبي ضمضم قالوا : يا رسول الله وما ابو ضمضم ؟ قال : هو رجل كان ممن قبلكم كان إذا اصبح يقول : اللهم إني أتصدق بعرضي على الناس ولنكتفي بهذا المقدار حيث قد علمنا من مجموع هذه الأخبار ان العفو سر الله في القلوب قلوب خواصه فهل لنا ان نكون من خواصه وعلى الأقل من أتباعهم .

وقال تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » سورة الأعراف الآية ١٩٩و٢٠٠

المعنى قيل : إن العفو هو الفاضل من اموالهم عن النفقة وكان رسول الله ﷺ يأخذ الفضل من اموالهم ليس فيها شيء موقت ، ثم نزلت آية الزكاة وهي قوله تعالى: « وآتوا حقه يوم حصاده » حيث ان الآية الأولى مكية ، وقيل : إن معناه خذ العفو من أخلاق الناس ، وقيل : الميسور منها ومعناه إن الله تعالى

(١) هذا معنى الجميل .

(٢) وعلة ذلك اندفاع شبهة الذل والعجز عنه لقدرته على أخذ حقه .

أمر نبيه بالتساهل مع الناس ويعضده الخبر « أحب الله عبداً سمحاً بائعاً ومشترياً قاضياً ومقتضياً ، وقيل: إن معناه قبول العذر وترك المؤاخذة ، وقيل : لما نزلت هذه الآية سأل رسول الله (ص) جبرئيل عن ذلك قال : لا أدري حتى أسأل العالم ثم اتاه فقال : يا محمد إن الله تبارك وتعالى يأمرك ان تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك . واما معنى قوله : « وامر بالعرف » فهو كل ما حسنه العقل والشرع ، وقيل : هو كل خصلة حميدة ثم قال تعالى : « واعرض عن الجاهلين » أي اعرض عنهم عند قيام الحجة عليهم والأياس من قبولهم ولا تقابلهم بالسفه صيانة لقدرك لأن من حارب السفيه وكافاه قد وضع النار على الحطب . وقيل : لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) : كيف يا رب والغضب فنزل قوله : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله » ومعناه ان ذلك الغضب منه فان نالك منه وسوسة ونخسة في القلب بما يسول للانسان فاعرض عنه واستعذ بالله أي سل الله تعالى ان يعيذك منه ، وقيل : إن النزغ هو اول الوسوسة واما المس يكون بعد التمكن ولذا فصل سبحانه بين النزغ جعله للنبي (ص) حيث لا يتمكن منه الشيطان وبين المس فجعله لغيره بقوله تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون» ومعناه ان طريقة المتقين إذا عرضت لهم وساوس الشيطان وأغراهم بمعصية تذكروا ماعليهم من العقاب بذلك فيجتنبونه ويتركونه فاذا هم مبصرون للرشد ويرجعون إلى ما وهبهم الله من العقل الذي لا يرشد إلا للخير ولا يتأتى منه إلا الحسن .

ومن الأخبار في مدح المعروف فعن ابي عبدالله (ع) قال : صنايع المعروف تقي مصارع السوء .

وعن ابي جعفر (ع) ان صنايع المعروف تدفع مصارع السوء . ومن المعلوم انه مستلزم لتأليف قلوب الخلق وجامعاً لهم على محبة المصطنع فكان معروفه

وقاية له والناس يتقون أذاه ويجتنبون إهانته بل يحرسونه ممن يريد به ذلك .

ومن فوائد المعروف البركة قال رسول الله (ص) : إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز منه هذا بالنسبة إلى فوائد الدنيا ، واما بالنسبة إلى كسب ثمرات الآخرة فقد قال رسول الله (ص) : اول من يدخل الجنة المعروف وأهله وأول من يرد علي الحوض .

وقال (ص) : أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، ومعناه انه إذا كان يوم القيامة قيل لهم : هبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة .

وقال (ص) : كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة الملهوف . وقال الصادق (ع) : رأيت المعروف كاسمه وليس شيء افضل من المعروف إلا ثوابه ، وليس كل من يحب ان يصنع المعروف إلى الناس يصنعه وليس كل من يرغب يقدر عليه ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه فاذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن فهناك تمت السعادة للطالب والمطلوب اليه . وقال (ع) : رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال : تصغيره وستره وتعجيله فانك إذا صغرته عظمته عند من تصنعه اليه وإذا سترته تممته وإذا عجلته هنأته وإن كان غير ذلك محقته ونكدته .

وفي رواية المفضل بن عمر قال : قال ابو عبدالله (ع) : يا مفضل إذا اردت ان تعلم إلى خير يصير الرجل أم الى شر انظر إلى من يصنع معروفه فان كان يصنع معروفه عند اهله فاعلم انه يصير إلى خير وإن كان يصنع معروفه عند غير اهله فاعلم ان ليس له في الآخرة من خلاق .

وان من أعون الأعوان على العفو هو الحلم ففي حديث شمعون بن لاوي عن النبي (ص) ان اول ما يتشعب من العقل الحلم ومن الحلم العلم ، والمراد به في امثال هذه المقامات عدم المسارعة إلى الانتقام والمعاقبة مع القدرة لعلمه بالعواقب

اما لكرم النفس ويتحد حينئذ مع العفو والتجاوز او للعلم بعدم الفوات وهو الأناءة وعدم الاستعجال وفي الدعاء وانما يعجل من يخاف الفوت اولكون عدم المسارعة ابلغ في الانتقام حيث يوكل امره باعتدائه عليه إلى الله تعالى ، وفي خبر همام وان بقي عليه وصبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم منه والله اشد بأساً وأشد تنكيلا . وحقيقة الحلم اطمئنان النفس وغلبتها على قوتي الشهوية والغضبية وقهرها تحت سلطنة القوة العاقلة بحيث لا تصدران إلا عن امرها ولا تهجمان إلا من امرها فمن أوتي فضيلة الحلم فقد اوتي سائر الخصال الحميدة ومن فقده لا يتمكن من كسب الكمال وإلى ذلك يشير ما في الخصال عن الباقر (ع) من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب حرّم الله جسده على النار .

ومما ناجى موسى (ع) به ربه ان قال : إلهي فما جزاء من صبر على اذى الناس وشتمهم فيك ؟ قال تعالى : اعينه على اهوال يوم القيامة .

وقال امير المؤمنين (ع) : ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك ويعظم حلمك .

وفي النهج عنه (ع) ان اول عوض الحليم ان الناس انصاره على الجاهل .

وفي البحار عن الاختصاص عن الرضا (ع) من صبر على ما ورد عليه فهو الحليم . وعن لقمان عدو حليم خير من صديق سفيه .

وعن النبي(ص) ياعلي ألا اخبركم بأشبهكم بي خلقاً ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : احسنكم خلقاً واعظمكم حلماً وابركم بقرابته واشدكم من نفسه إنصافاً .

وعنه (ص) من لم يكن فيه ثلاث لم يقم له عمل ـ إلى ان قال ـ وحلم يرد به جهل الجاهل .

وفي الخصال عنه (ص) ما جمع شيء إلى شيء افضل من حلم إلى علم .

وفي الكافي في باب صفة العلماء اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار .

وقال الصادق (ع) : الحلم سراج الله يستضيء به صاحبه إلى جواره ـ أي جوار الله تعالى ـ ولا يكون حليما إلا المؤيد بأنوار الله وبأنوار المعرفة والتوحيد

وقال رسول الله (ص) في دعائه : اللهم اغنني بالعلم وزيني بالحلم .

وفي البحار لما مات الحسن بن علي (ع) وأخرجوا جنازته حمل مروان سريره فقال له الحسين (ع) : أتحمل سريره أما والله لقد كنت تجرعه الغيظ فقال مروان : إني كنت افعل ذلك بمن يوازي حلمه الجبال ، نعم انه كان يسمع شتم ابيه من بني أمية بأم أذنيه وحتى من رئيسهم معاوية وهو على منبر أبيه والحسن جالس تحت رجليه ولا يكفيه ذلك حتى يسمعه شتم ابيه و كما قال الشاعر :

أعلى المنابر تعلنون بسبه وبسيفه قامت لكم أعوادها

وإن الحلم من اشرف الكمالات النفسية بعد العلم وانه يدور على خمسة اسباب اما ان يكون الانسان عزيزاً في حد ذاته فيذل فيحلم ، واما ان يكون صادقاً فيكذب فيحلم ، واما ان يدعو إلى الحق فيستخف به فيحلم . واما ان يؤذى بلا جرم فيحلم ، واما ان يطالب بحق له ويخالفوه فيه فيحلم فان آتيت كلا منهم حقه بحلمك وترك جوابه والاعراض عنه وجعله سفيهاً فتكون عندئذ الناس انصارك .

نموذج من عفو خواصه تعالى

هذا أمير المؤمنين وسيد الوصيين ومن خلف محمداً (ص) سيد المرسلين بجميع صفاته التي منح بها من رب العالمين تراه في مقام العفو حيث انه قد تشبع بهذه الأحاديث وتضلع بهاتيك الآيات يبرز في الخارج للعيان أجلى صورة عما انطبعت عليه قدسية ذاته وانطوت عليه نزاهة سريرته من العفو الجليل والصفح الجميل في واقعة البصرة بعد ان فتح الله على يديه وسلطه على من حمل وحقد عليه

من اهالي البصرة وقوادها ومن سبب نقضها لبيعتها وارتدادها (١) وأهرق من المسلمين دماءها فتراه عليه السلام يضرب عن ذلك كله صفحاً ويعفو عن الجميع عفوه المعروف بتفاصيله في خطبه وفي كتب المؤرخين وفوق العفو إحسانه وإكرامه لأم المؤمنين .

ظاهرة أخرى

في واقعة صفين عندما يبرز له عدوه المبين عمرو بن العاص العضو الأساسي لمعاوية بل هو اليد اليمنى ومن قد ضاهى إبليس بمكره وحيله وخدعه فيصرعه أمير المؤمنين (ع) على الأرض وحيث انه قد انعقد لسانه ولم يساعده جنانه لما يرى من لمعان سيفه المقرون في عقيدته بحتفه يلجأ إلى طلب العفو منه بكشف عورته وإبداء سوأته معبرة عن جبنه وذله فيصفح عنه بوجهه الكريم وبمثلها حرفاً بحرف قد عفا عن بسر بن ارطاة في موقعة صفين ايضاً لما كشف عن عورته عند صرعته . وقد قال معاوية نفسه في ذلك :

فقد لاقى أبا حسن علياً ... فآب الوائلي مآب خازي
فلو لم يبد عورته للاقى ... به ليثاً يذلل كل غازي

وفي شعر الحارث بن نصر السهمي :

فقولا لعمرو وابن ارطاة أبصرا ... سبيلكما لا تلقيا الليث ثانية
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتا للنفس والله واقية

(١) فان طلحة والزبير وأتباعهم أولى من مالك بن نويرة بأن يوصفوا بالردة لأنهم بالاضافة إلى منعهم زكاة أهل البصرة بل استيلائهم عليها وهي في بيت مال المسلمين فان في أعناقهم بيعة لأمير المؤمنين (ع) بينما مالك لم يكن في عنقه بيعة القوم على أن ما رموه به من منع الزكاة كان اختلاقاً وهو صحابي فما أدري لم لم يسموا أولئك مرتدين .

وقال أبو فراس :

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوأته عمرو

وقال عبد الباقي العمري :

وليلة الهرير قد تكشفت عن سوأة ابن العاص لما غلبا
فحاد عنه مغضباً حيدرة وعف والعفو شعار النجبا
ولو يشأ ركب فيه زجة تركيب منزجي كمعدي كربا

الفصل الثالث

في بيان فضيلة الاحسان من آي القرآن

قال الله تعالى : « واحسنوا إن الله مع المحسنين » (١) « والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (٢) وقال تعالى : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » (٣) وقال تعالى : « ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين » (٤) .

فتراه سبحانه عندما يقرر صفات المتقين في صدر الآية بقوله : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس لم يأت بصفة الاحسان لهم على نفس المنوال ويقول : والذين هم محسنون مثلا بل عدل عن هذا السوق إلى نحو يكون أبلغ وهو قوله : والله يحب المحسنين ترغيباً لخلقه وتشويقاً

(١) سورة البقرة الآية ١٩٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٢٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٤١ .
(٤) سورة المائدة ذيل آية ٩٥ .

لعباده لأن يتصفوا بكونهم محسنين كي يكونوا عنده عز اسمه من المحبوبين وهل يخشى العبد من شيء إذا كان محبوباً له تعالى .

والمحسن معناه هو المنعم على غيره على وجه عار من صفات القبح كالمن والأذى وقصد الاستكثار ولمساعدته على المعاصي وأمثال ذلك ويكون ايضاً محسناً إذا عمل بالطاعات وفعل القربات لأنه محسن لنفسه بالحصول على رفيع الدرجات والخلود بالجنات .

وقد روي ان جارية لعلي بن الحسين (ع) جعلت تسكب عليه الماء فسقط الابريق من يدها فشجه فرفع رأسه اليها فقالت له : إن الله يقول : والكاظمين الغيظ قال لها : كظمت غيظي قالت : والعافين عن الناس قال : قد عفا الله عنك قالت : والله يحب المحسنين قال : اذهبي فانت حرة لوجه الله .

واما الأخبار الواردة في الحث على الاحسان والترغيب فيه فكثيرة ومنها ما في الكافي عن النبي (ص) ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة العفو عمن ظلمك وتصل من قطعك والاحسان إلى من أساء اليك وإعطاء من حرمك .

وفي الفقيه عن أمير المؤمنين (ع) لا يكونن اخوك على قطيعتك أقوى منك على صلتك ولا على الاساءة اليك أقدر منك على الاحسان اليه .

وفي الكافي عن الصادق (ع) انه قال لاسحاق بن عمار : احسن يا اسحاق إلى اولياني ما استطعت فما احسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلا خمش وجه إبليس وقرح قلبه .

وفي الغرر عن أمير المؤمنين (ع) بالاحسان تملك القلوب وفيه ايضاً عنه ﷺ بالاحسان تسترق الرقاب وفيه عنه صاحب الاخوان بالاحسان ، وفيه عنه ﷺ عنوان النبل الاحسان إلى الناس . وفي الكافي عن ابي جعفر (ع) انه كتب الى بعض الولاة بسم الله الرحمن الرحيم .

اما بعد فان موصل كتابي هذا ذكر عنك مذهباً جميلا وإنما لك من عملك ما احسنت فيه فأحسن إلى اخوانك . وفي الغرر سبب المحبة الاحسان .

وكلما كان الاحسان الى اهل الايمان والفضيلة كان افضل ، وفي ميزان الحسنات اثقل وهو إما بسوق نفع له او بدفع ضر عنه وكل منهما إما ان يتعلق بدينه او بعقله او بجسده او بعرضه او بماله ، ولأجل إصلاح هذه الخمسة بعثت الرسل وشرع الدين وقررت الحدود والموازين .

ثم ان الاحسان قد يكون بعمل الجوارح وقد يكون باللسان وقد يكون بالقلب والجنان كأن يرجو ويؤمل ويحب ويضمر في نفسه ان ينفع المؤمن او ان يدفع عنه ضره فيؤجر على ذلك ويشير إلى هذا عدة من الأخبار وانه من الحقوق ان يحب الرجل لأخيه المسلم ما أحبه لنفسه .

وفي الخصال عن الصادق (ع) انه قال : قال إبليس : خمسة ليس لي فيهن حيلة وسائر الناس في قبضتي من اعتصم بالله عن نية صادقة واتكل عليه في جميع اموره ، ومن كثر تسبيحه في ليله ونهاره ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه الخبر ، غير انه يشترط لاتصافه بالمحسن ان لا يشوب إحسانه بالمن والأذى كما تقدم بيانه وشرط كمال الاحسان بحيث يصل إلى أعلا درجات ماذكر في آداب الصدقة من الاخفاء واستقلال الكثير وسد خلته ببذل ما يغنيه ويشير إلى ذلك قوله تعالى: « واحسن كما احسن الله اليك » فانه تعالى أعطى فأجزل وأنعم فأسبغ ومنح فأفضل من غير استحقاق وبدون سؤال بل ولا تشكر ولا معرفة منابه جل شأنه ولم يتبع ماآتاه بمن ولا أذى والتشبيه يقتضي العموم وكل بمقدوره وحسب إمكانه وقد ورد الحث على مساعدة الاخوان ومتابعة الاحسان بما لا مزيد عليه

منها ان السابقين إلى الكوثر ويشربون منه قبل سائر الناس من تصدى إلى قضاء حوائج الناس بالقرضة الحسنة ومن ساعد العلماء والمرأة المطيعة لزوجها

فانهم يشربون من الكوثر قبل الناس يوم العطش الأكبر .

وقال (ع) : خير الناس من كف الناس فكه (١) وفك لهم كفه (٢) .

ذكر الصدوق (رضي الله عنه) في كتاب عيون أخبار الرضا (ع) (٣) ان المأمون طلب الرضا (ع) لأجل الاستسقاء فاستسق عليه السلام وقد نزل المطر على اثر ذلك ثم خطب الناس وحثهم فيها على شكر الله تعالى لاستدامة نعمته عليهم ثم قال (ع) : اعلموا انكم لا تشكرون الله بشيء بعد الايمان به والاعتراف بحقوق اوليائه من آل محمد (ص) احب اليه من معاونتكم لاخوانكم المؤمنين على دنياهم التي هي معبر لهم الى جنان ربهم فان من فعل ذلك كان من خاصة الله تبارك وتعالى وقد قال رسول الله (ص) في ذلك قولا ما ينبغي لقائل ان يزهد في فضل الله عليه فيه ان تأمله وعمل عليه فقد قيل يا رسول الله هلك فلان فانه يعمل من الذنوب كيت وكيت ، فقال رسول الله (ص) : بل قد نجا ولا يختم الله عمله إلا بالحسنى وسيمحو الله عنه السيئات ويبدلها حسنات ، انه كان يمر مرة في طريق إذ عرض له مؤمن قد انكشفت عورته وهو لا يشعر فسترها عليه ولم يخبره بها مخافة ان يخجل ، ثم ان ذلك المؤمن عرفه في مهواه (٤) فقال المؤمن له : اجزل الله لك الثواب واكرم لك المآب ولا ناقشك في الحساب فاستجاب الله له فيه فهذا العبد لا يختم الله له إلا بخير بدعاء ذلك المؤمن فاتصل قول رسول الله (ص) بهذا الرجل فتاب واناب وأقبل على طاعة الله عز وجل فلم يأت على ذلك إلا سبعة ايام حتى أغير على سرح المدينة (٥) فوجه رسول الله (ص) في اثرهم جماعة ذلك الرجل احدهم فاستشهد فيهم فاذاً لاينبغي ان نفوت على انفسنا الفرص المؤاتية في معونة

---

(١) أي كفهم لسانه .

(٢) بالعطاء وإطلاق اليد .

(٣) ج ٢ ص ١٦٩ .

(٤) أي المهبط ما بين الجبلين .

(٥) المال السائم .

المؤمنين وستر عوراتهم وان نغتنم استجابة دعائهم .

وفي الكافي عن النبي (ص) من اعان مؤمناً نفس الله عنه ثلاث وسبعين كربة واحدة في الدنيا واثنتان وسبعون كربة عند الكربة العظمى حيث يتشاغل الناس بأنفسهم . وفيه عن الصادق (ع) إن الله فى عون المؤمن ما كان المؤمن في عون اخيه . وايضاً عنه (ع) من اعان اخاه المؤمن على سلطان جائر اعانه الله على جواز الصراط عند زلة الأقدام . وعنه (ع) وما من مؤمن يعين مظلوماً إلا كان ذلك افضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام .

وفي الكافي عن الصادق (ع) من بخل بمعونة أخيه والقيام له في حاجته ابتلي بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر به . وفيه عنه (ع) أيما رجل من شيعتنا اتى رجلا من اخوانه فاستعان به في حاجته فلم يعنه وهو يقدر إلا ابتلاه الله بأن يقضي حوائج عدة من اعدائنا يعذبه الله عليها يوم القيامة .

وفي الكافي عن صفوان قال : كنت جالساً مع ابي عبدالله (ع) اذ دخل عليه رجل من اهل مكة يقال له ميمون فشكا اليه تعذر الكرى فقال لي : قم فأعن اخاك فقمت معه فيسر الله كراه فرجعت الى مجلسي فقال ابو عبدالله (ع) ما صنعت في حاجة اخيك ؟ فقلت : قضاها الله بأبي انت وامي فقال : أما انك ان تعين اخاك المسلم احب إلي من طواف اسبوع بالبيت مبتدئاً ثم قال : ان رجلا اتى الحسن بن علي (ع) فقال : بأبي انت وامي أعني على قضاء حاجة فانتعل وقام معه فمر على الحسين (ع) وهو قائم يصلي فقال : اين كنت عن ابي عبدالله ﷺ تستعينه على حاجتك ؟ قال : قد فعلت بأبي انت وامي فذكر انه لو اعانك كان خيراً له من اعتكافه شهراً (١) .

وقال امير المؤمنين عليه السلام في حث العباد على تقديم الزاد ليوم المعاد

(١) والاشكال على الخبر له دافع .

اذا وجدت من ذوي الفاقة من يحمل زادك لدارك في يوم حاجتك وفقرك فاغتنم حمله إياه .

الأمر بالتعاون في القرآن المجيد بحدوده

قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب» (١) ، لا زال سبحانه يحث ويرشد عباده على وإلى ما فيه صلاحهم وانتظامهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة بألوان من الكلام وفنون من البيان منها قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ومنها قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ومنها هذه الآية فقد أمر تعالى فيها عباده بأن يعين بعضهم بعضاً أولا وان يكون ذلك التعاون تحت نطاق خاص ثانياً وهو ما يكون مؤلفاً للقلوب كالمذكور في صدر الآية وهو البر لا ما يكون منفراً ومفرقاً كالمذكور في ذيلها وهو الاثم .

فالتعاون المطلوب في هذه الآية يشمل كل طبقات العباد الغني والفقير والعالم والجاهل والرئيس والمرؤوس لا يشذ منهم فرد وكل بحسبه وبما هو المطلوب منه والمقدور لديه ، فمعونة الغني للفقير بتكميل نقصه وسد ضرورياته سواء كان بالبذل له او بتهيئة وسائل الاكتساب بنحو من العطف والتحنن وبجعله أحد افراد عائلته حيث هو ابن نوعه بدل الاعراض عنه واستهوانه ، وبذلك تكون معونة الفقير للغني حينئذ باحترامه والمحافظة على حقوقه وأحواله واعتبارها رصيداً له عند إعوازه وانه مشفق منعم عليه بدل ان يحسده ويحقد عليه .

(١) سورة المائدة في ذيل آية ٢ .

وكذلك معونة العالم للجاهل بارشاده وتنويره وتوجيهه نحو صلاحه وخيره بالتزام دينه وبيان حكمة التشريع وإيضاح الفلسفة باستعمال كل وسائل الايضاح له والأخذ بيده من المرتبة السفلى أعني الجهل الى العليا أعني العلم ومعونة الجاهل له تكون حينئذ باستماع إرشاداته وتوعي عظاته وتطبيقها عملياً وان يفهم ان العالم قد ضحى بالكثير من عزيز عمره في الحصول على هذه المجموعة من العلم وبدل ان يتخصص ويعتز بها لنفسه فيتحمل ايضاً الأتعاب روحاً وبدناً دون أي عوض ليلحق الجاهل بدرجته ويجعله شريكا له في صفته ويسره ان يكون معه في رتبته ومعونة الرئيس للمرؤوس ان يسهر في مصالحه وتربيته والدفاع عن حياته واعتباره بده التي يصول بها وانه قوام رئاسته ومعونة المرؤوس له تكون حينئذ بمتابعته والانقياد له وتنفيذ اوامره على الأخص فيما إذا احرز ان سعي الرئيس لصالحه دون ان يكون غرضه إشباع نهمته وإقناع شهوته . ومن مجموع هذا التعاون تتولد مجموعة قوية متراصة لو شاءت نسف الجبال الرواسي لفعلت كما قد تحقق ذلك عند بدء الدعوة الاسلامية حيث كانت مجموعة قلوب وشعور وتفكير لامجموعة هياكل وصور وتبديد ، وإلى هذا كله ترشد الآية الكريمة بجزئها الأول وهو قوله تعالى : وتعاونوا ، واما جزئها الثاني فهو ان التعاون المطلوب من قبله تعالى المفيد لنظم عباده لابد وان يكون داخل نطاق البر والتقوى وعدم مزجه بالاثم والعدوان ، أي بامتثال اوامره والانزجار عن نواهيه ، لأنه جل شأنه لا يأمر إلا لمصلحة ولا ينهى إلا عن مفسدة وكلاهما يعودان لعباده ولا يتهم سبحانه بجرهما اليه نفسه لأنه غني عن ذلك كله ، فلو أطاعه جميع من في الأرض ومن في السماء لم يزيدوا في ملكه شعرة ولو عصاه جميعهم لم ينقصوا من ملكه شعرة ثم يختم الآية بالتهديد والوعيد لمن يشذ عن هذا النظام ويخل بصالح الأنام بقوله : « واتقوا الله » أي تحفظوا وخافوا من مخالفته « إن الله شديد العقاب » .

من ثمرات الاحسان في القرآن

قال الله تعالى : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وماخلق الذكر والأنثى ان سعيكم لشتى فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى فأنذرتكم ناراً تلظى » ... الخ .

المعنى : انه تعالى قد أقسم بعظائم مخلوقاته ان سعي عباده لمتفرق وان اعمالهم لمختلفة فعمل للجنة وعمل للنار .

عن ابن عباس وقيل : إن معناه ان سعيكم متفرق فساع منكم في فكاك رقبته وساع منكم في هلاك نفسه وساع للدنيا وساع للآخرة والعقبى .

وقد روي عن ابن عباس ان نزول هذه السورة في رجل كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال وكان صاحب النخلة إذا دخل دار الفقير وصعد النخلة ليأخذ منها التمر وربما سقطت منها تمرة فيأخذها صبيان الفقير فينزل الرجل من النخلة ويأخذها من ايديهم فان وجدها في فم احدهم أدخل اصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه فشكا ذلك الرجل إلى النبي (ص) وأخبره بما يلاقي من صاحب النخلة فقال (ص) له : اذهب ولقي رسول الله صاحب النخلة فقال له : تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة فقال : إن لي نخلا كثيراً وما فيه نخلة اعجب إلي تمرة منها ثم ذهب وكان رجل يسمع كلام رسول الله (ص) فقال : أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة ان انا اخذتها ؟ قال (ص) : نعم فذهب ولقيه وساومه فقال : أشعرت ان محمداً اعطاني بها نخلة في الجنة فقلت : يعجبني تمرتها فلا ابيعها إلا ان اعطى ما لا اظنه اعطى فقال : ما هناك ؟ قال :

اربعون نخلة فقال الرجل : جئت بعظيم تطلب بنخلتك المائلة اربعين ثم قال له : أشهد ان كنت صادقاً فمر إلى الناس فأشهدهم بأن له عوض نخلته المائلة اربعين نخلة من حشي الفلاني كلها حاملة ثم ذهب إلى النبي (ص) فقال : إن النخلة قد صارت في ملكي فهي لك فذهب رسول الله (ص) إلى صاحب الدار فقال له : إن النخلة لك ولعيالك فأنزل الله تعالى : والليل ... الخ .

وعن عطا ان الرجل الذي اشترى النخلة اسمه ابو الدحداح .

فقوله تعالى : فاما من أعطى وأتقى ، أي الذي اعطى الأربعين نخلة وأتقى بذلك النار وصدق بالحسنى ، أي بما وعد الله المحسنين بالواحد عشراً إلى كثير حتى ورد إلى مائة الف « فسنيسره لليسرى » أي لايريد شيئاً من الخير إلايسره الله له ، وقيل: إن المراد من اليسرى الخصلة اليسرى والحالة اليسرى وهي دخول الجنة واستقبال الملائكة إياه بالتحية والبشرى ، هذا نتاج تقوى المتقي باعطائه وإنفاقه « واما من بخل » بما آتاه الله « واستغنى » أي طلب بما عنده الغنى او انه لما عنده قد صار غنياً عما عند الله في نظره الخائب « وكذب بالحسنى » من ان الله يعطي بالواحد عشراً إلى مائة الف فما زاد او ان المعنى انه كذب بالثواب والجنة والمراد به صاحب النخلة « فسنيسره للعسرى » أي لايريد شيئاً من الشر إلا يسره الله له ، أي يخلي بينه وبين الأعمال الموجبة للعذاب والعقوبة فيتعسر عليه امر الآخرة ، لأنه استغنى عن رحمة الله وألطافه بما عنده من المال ثم يعود سبحانه في وعظ عباده ببيان عاقبة اموال الدنيا فقال : « وما يغني عنه ماله إذا تردى » قيل في تفسيره انه ما تردى من جبل او حائط او في بئر وإنما تردى في نار جهنم .

ثم يبين سبحانه ما فعله لعباده ومايجب عليه فيقول :« إن علينا للهدى » أي ان علينا البيان والدلالة على الطريق المنجي . اما الاهتداء فلا نجبركم عليه

لأنه اليكم وفي اختيار كم ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ثم قال تعالى منذراً لعباده بأن لا ملجأ لهم غيره وان مرجعهم اليه : « وان لنا للآخرة والأولى » أي ان لنا ملك الآخرة وملك الأولى فلا يزيد في ملكنا اهتداء من اهتدى ولاينقص العادل والمائل عن الهدى « فأنذرتكم ناراً تلظى » أي ان الذي علي لكم ان بينت لكم وأوضحت عقابي لمسرفكم وخوفتكم ناراً تلهب وتتوهج وتتوقد « لايصلاها إلا الأشقى » وهو الكافر بالله « الذي كذب » بما وعد الله « وتولى » أي أعرض عن الايمان « وسيجنبها » أي يكون منها على جانب « الأتقى » أي المبالغ في التقوى ولايكتفي بالقليل « الذي يؤتي ماله » أي ينفقه في سبيل الله تعالى « يتزكى » أي يطلب بذلك ان يكون زكياً عندالله لايطلب به رياء ولا سمعة « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » أي لم يفعل الأتقى الخيرات من إعطاء ماله لأجل يد أسديت اليه ليكافىء عليها ولا لأجل ان تكون له يد عند المعطى له «إلا» بل إنما يعطي « ابتغاء وجه ربه الأعلى » أي طلباً لرضائه وثوابه « ولسوف يرضى » أي ولسوف يعطيه ربه من الجزاء ما يرضى به ، لأنه يعطيه كلما تمنى وما لم يخطر بباله فيرضى به لا محالة .

فالانسان بعد سماع هذا لا يمنعه من الاحسان والانفاق إلا الحرص على الدنيا والبخل بمتاعها وانه لوهم وخيال يظهر عند حلول الآجال قيل للحسن : إن فلاناً قد جمع مالا فقال : هل جمع لذلك عمراً ؟ قالوا : لا ، قال : فما تصنع الموتى بالأموال .

عمرو أبو الدحداح الانصاري

وقد نقلت له في الصدقة قصة اخرى تضاهي ماذكرناه في سبب نزول سورة والليل قال الكلبي : ان النبي (ص) قال : من تصدق بصدقة فله مثلاها في الجنة

فقال ابو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله إن لي حديقتين ان تصدقت باحديهما فان لي مثليها في الجنة قال (ص) : نعم قال : وأم الدحداح معي قال : نعم قال : والصبية معي قال : نعم فتصدق بأفضل حديقتيه فدفعها إلى رسول الله (ص) فنزلت الآية وهي قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » (١) وقد ضاعف الله له صدقته له الفي الف وذلك قوله تعالى أضعافاً كثيرة قال الكلبي : فرجع ابو الدحداح فوجد أم الدحداح والصبية في الحديقة التي جعلها صدقة فقام على باب الحديقة وتحرج ان يدخلها فنادى يا ام الدحداح قالت : لبيك يا ابا الدحداح قال : إني جعلت حديقتي هذه صدقة واشتريت مثلها في الجنة وام الدحداح معي والصبية معي قالت : بارك الله لك فيما شريت واشتريت فخرجوا منها وأسلموا الحديقة إلى النبي (ص) فقال النبي (ص) : كم نخلة متدل عذوقها في الجنة لأبي الدحداح .

المعنى لما حث سبحانه وتعالى قبل هذا على الجهاد وهو يكون بالنفس وبالمال عقبه بالتلطف والترغيب في الاستدعاء إلى اعمال البر والانفاق في سبيل الخير لأن بذل المال من الأسباب المقومة للدين ومن الأركان التي يبتني عليها نشره واتساعه سواء كان بالانفاق على ضعفاء المسلمين او ببذله في مشاريع نشر التعاليم كما قد بذلت خديجة ام المؤمنين وافر مالها في نصرة النبي (ص) حتى بلغت بها الحال ان نامت على حصير وتوسدت ذراعها وحتى قيل : إن الاسلام قد بني على مال خديجة وسيف علي (ع) .

فلذلك كله قال تعالى : « من ذا الذي يقرض الله » أي ينفق في سبيل الله وطاعته والمراد بالاستفهام الأمر وليس هذا بقرض حاجة كما ظنه اليهود فقالوا : إنما يستقرض منا ربنا عن عوز فانما هو فقير ونحن اغنياء كما اخبر سبحانه عنهم

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥ .

بقوله : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا ... الخ » (١) .

وإنما سماه تعالى قرضاً تلطفاً للدعاء إلى فعله وترغيباً لبذله وتأكيداً للجزاء عليه حيث ان القرض مردود اولا وموجب للجزاء ثانياً ، ثم شرط ذلك بقوله تعالى : « قرضاً حسناً » وهو ما ينفق من حلال ولا يفسده بمن ولا اذى وقيل: هو ان يكون محتسباً طيبة به نفسه ، وقيل : هو ان يكون حسن الموقع ، وقيل: ان لا يكون حقيراً وخسيساً والأولى ان يكون جامعاً لهذه الأمور كلها « فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » اي يزيده مالا يعلمه إلا الله تعالى ، ولهذا ابهم وقال : وكثيرة ولم يحده بعدد .

وروي عن الصادق (ع) انه قال : لما نزلت آية من جاء بالحسنة فله خير منها قال رسول الله (ص) : رب زدني زدني فانزل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها قال : رب زدني فأنزل : من ذا الذي يقرض الله . . . الخ ، والكثير عند الله لا يحصى ثم قال تعالى : « والله يقبض ويبسط » أي يقبض الرزق ويقتره عن اقوام ويبسطه ويوسعه على اقوام ، وقيل : إن معناه يقبض الصدقات ويبسط الجزاء عليها عاجلا او آجلا ، وقيل : يقبض الرزق بموت واحد ويبسطه لوارثه « واليه ترجعون » هذا تأكيد للجزاء حيث إنا لابد من رجوعنا اليه .

من آثار التعاون وقضاء حاجة المؤمن

فى كتاب انوار النعمانية (٢) قال الصادق (ع) : إن من طاف بالبيت اسبوعاً كتب الله له ستة آلاف حسنة ومحا عنه ستة آلاف سيئة ورفع له ستة

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٩ . (٢) ج ٢ ص ١٧٢ .

آلاف درجة ، ثم قال (ع) وقضاء حاجة المؤمن افضل من طواف وطواف حتى عد عشراً .

ومن افضل مراتب الاحسان إذا كان للأرحام حيث انه إحسان وصلة للرحم ايضاً فقد قال تعالى : « والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » إلى ان قال : « اولئك لهم عقبى الدار جنات عدن ... الخ » (١) .

المعنى قيل : إن المراد بالوصل لما امر الله به هو الايمان بجميع الرسل والكتب كما في قوله تعالى : « لا نفرق بين احد من رسله » وقيل : هو صلة محمد (ص) ومؤازرته ومعاونته والجهاد معه في زمانه وبعد زمانه بترويج شريعته وقيل : هو صلة الرحم .

وروي ان ابا عبدالله (ع) لماحضرته الوفاة قال : اعطوا الحسن بن الحسين ابن علي بن الحسين (ع) وهوالأفطس سبعين ديناراً فقالت له ام ولد له : أتعطي رجلا حمل عليك بالشفرة فقال لها : ويحك أما تقرئين قوله تعالى : « والذين يصلون ... الخ » ، فبهذا يمكن الاستدلال على ان المقصود بها الرحم .

وفي قصص الأنبياء (٢) مما ناجى به موسى ربه ان قال : إلهي فما جزاء من وصل رحمه ؟ قال : يا موسى أنسيء اجله وأهوّن عليه سكرات الموت ويناديه خزنة الجنة هلم الينا من أي ابوابها شئت .

وروى جابر عن ابي جعفر (ع) قال : قال رسول الله (ص) : بر الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب ثم تلا هذه الآية .

وروى محمد بن الفضيل عن موسى بن جعفر (ع) في هذه الآية انه قال : صلة آل محمد (ص) معلقة بالعرش تقول : رب صل من وصلني واقطع من قطعني

(١) سورة الرعد الآية ٢١ . (٢) الجزائري ص ٣٤٦ .

وهي تجري في كل رحم .

وروى الوليد بن ابان عن الرضا (ع) قال : قلت له : هل على الرجل في ماله سوى الزكاة ؟ قال : نعم اين انت عما قال الله تعالى : « والذين يصلون الخ » وقيل المراد به هو ما يلزم من صلة المؤمنين بأن يتولوهم وينصروهم ويذبوا عنهم ويساعدوهم ويدخل فيه صلة الرحم وغير ذلك .

فعن الصادق (ع) من كان وصولا لاخوانه بشفاعة في دفع مغرم او جر مغنم ثبت الله قدميه يوم تزل فيه الأقدام . ثم قال تعالى : « ويخشون ربهم » أي يخافون عقاب ربهم في قطع الصلة « ويخافون سوء الحساب » أي المداقة في الحساب ، فقد روي عن ابي عبدالله (ع) انه قال سوء الحساب هو ان يحسب عليهم السيئات ويحسب لهم الحسنات وهو الاستقصاء .

وروي عنه (ع) ايضاً انه قال لرجل : ما لك ولأخيك ؟ قال : جعلت فداك لي عليه شيء فاستقصيت حتى منه قال (ع) : اخبرني عن قوله تعالى : ويخافون سوء الحساب أتراهم خافوا ان يجور عليهم او يظلمهم لا والله ولكن خافوا الاستقصاء والمداقة .

وقال رسول الله (ص) (١) : من مشى إلى ذي قرابة بنفسه وماله ليصل رحمه اعطاه الله عز وجل أجر مائة شهيد وله بكل خطوة اربعون الف حسنة ومحا عنه اربعون الف سيئة ورفع له من الدرجات مثل ذلك وكان كأنما عبد الله عزوجل مائة سنة صابراً محتسباً ، ومن كفى ضريراً حاجة من حوائج الدنيا او مشى له فيها حتى يقضي الله حاجته اعطاه براءة من النفاق وبراءة من النار وقضى له سبعين حاجة من حوائج الدنيا والآخرة ولا يزال يخوض في رحمة الله حتى يرجع .

وقال (ص) : ومن سعى لمريض في حاجته قضاها أو لم يقضها خرج من

(١) من حديث طويل من رسول الله (ص) كان إملاؤه وخط علي (ع) .

ذنوبه كيوم ولدته أمه فقال رجل من الأنصار : بأبي انت وامي يا رسول الله فان كان المريض من أهل بيته او ليس ذلك اعظم اجراً إذا سعى في حاجة اهل بيته قال (ص) : نعم ، ثم قال : ألا ومن مطل على ذي حق حقه وهو يقدر على أداء حقه فعليه كل يوم خطيئة عشار ألا ومن علق سوطا بين يدي سلطان جائر جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من نار طوله سبعون ذراعاً يسلطه الله عليه يوم القيامة في نار جهنم وبئس المصير . ومن اصطنع إلى اخيه فامتن عليه احبط الله عمله وثبت وزره ولم يشكر له سعيه . ثم قال (ص) : يقول الله عز وجل : حرمت الجنة على المنان والبخيل والقتات (١) ألا ومن تصدق بصدقة فله بوزن كل درهم مثل جبل احد من نعيم الجنة ومن مشى بصدقة إلى محتاج كان له كأجر صاحبها من غير ان ينقص من أجره شيء . ومن صلى على ميت صلى عليه سبعون الف ملك وغفر له ما تقدم من ذنبه فان أقام حتى يدفن ويحثى عليه التراب كان له بكل قدم نقلها قيراط من الأجر والقيراط مثل جبل احد ألا ومن ذرفت عيناه من خشية الله عز وجل كان له بكل قطرة من دموعه قصر في الجنة مكلل بالدر والجوهر فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ألا ومن استخف بفقير مسلم كمن استخف بحق الله والله يستخف به يوم القيامة إلا ان يتوب . وقال (ص) : ومن اكرم فقيراً مسلماً لقي الله وهو عنه راض .

في خصوص الاحسان الى اليتيم

قال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » (١) ، فقد قيل في تفسيره - أي لا تحتقر اليتيم - وقد كان النبي (ص) يحسن إلى اليتامى ويبرهم ويوصي بهم وجاء

(١) النمام . (٢) سورة والضحى .

في الحديث عن ابي أوفى قال : كنا جلوساً عند رسول الله (ص) فأتاه غلام فقال غلام يتيم وأخت لي يتيمة وأم لي أرملة اطعمنا مما اطعمك الله اعطاك الله مما عنده حتى ترضى قال (ص) : ما احسن ما قلت يا غلام اذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا فجاء بواحدة وعشرين تمرة فقال (ص) : سبع لك وسبع لأختك وسبع لأمك فقام اليه معاذ بن جبل فمسح رأسه وقال : جبر الله يتمك وجعلك خلفاً من ابيك وكان من ابناء المهاجرين ، فقال رسول الله (ص) : رأيتك يا معاذ وما صنعت قال : رحمته ، فقال (ص) : لا يلي احد منكم يتيما فيحسن ولايته ووضع يده على رأسه إلا كتب الله له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكل شعرة سيئة ورفع له بكل شعرة درجة .

وعن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر يده عليها نور يوم القيامة . وقال (ص) : أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة إذا اتقى الله عز وجل وأشار بالسبابة والوسطى .

وعن عمر بن الخطاب عن النبي (ص) انه قال : إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله لملائكته : يا ملائكتي من ابكى هذا اليتيم الذي غيب ابوه في التراب فتقول الملائكة : انت اعلم فيقول الله : يا ملائكتي فاني أشهدكم ان لمن أسكته وأرضاه ان ارضيه يوم القيامة .

وعن امير المؤمنين (ع) (١) من آوى اليتيم ورحم الضعيف ورفق بولده او بمملوكه أدخله الله في رضوانه ويسر عليه رحمته . وان ابراهيم الخليل قال : إلهي ما لمن اسند اليتيم وآوى الأرملة ؟ قال تبارك وتعالى : جزاؤه ان اظله تحت عرشي .

وعن الصادق (ع) قال : اربع من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة من

(١) في كتاب الاشعثيات .

آوى اليتيم ورحم الضعيف وأشفق على والديه ورفق بمملوكه . وقال امير المؤمنين ﷺ : قال رسول الله (ص) : للمسلم على المسلم ست يسلم عليه إذا لقيه ويسمته إذا عطس ويعوده إذا مرض ويجيبه إذا دعاه ويشهده إذا توفي ويحب له مايحب لنفسه وينصح له بالغيب .

آثار الاحسان

في كتاب الاختصاص (١) عن أبي حمزة الثمالي قال : كان رجل من أبناء النبيين له ثروة من مال وكان ينفق على اهل الضعف واهل المسكنة واهل الحاجة فلم يلبث ان مات فقامت امرأته في ماله كقيامه فلم يلبث المال ان نفد ونشأ له ابن فلم يمر على احد إلا ترحم على ابيه ويسأل الله ان يخيره فجاء إلى أمه فقال : ما كان حال ابي فاني لا أمر على احد إلا ترحم عليه ويسأل الله ان يخيرني فقالت إن اباك كان رجلا صالحاً وكان له مال كثير فكان ينفق على اهل الضعف واهل المسكنة واهل الحاجة فلما ان مات قمت في ماله كقيامه فلم يلبث المال ان نفد قال لها : يا اماه ان ابي كان مأجوراً فيما ينفق وكنت آثمة قالت : ولِمَ يا بني ؟ فقال كان ابي ينفق ماله وكنت تنفقين مال غيرك قالت : صدقت يابني وما اراك تضيق علي ؟ قال : انت في حل وسعة فهل عندك شيء نلتمس به من فضل الله ، قالت : عندي مائة درهم فقال : إن الله تبارك وتعالى إذا أراد ان يبارك في شيء بارك فيه فأعطته المائة درهم فأخذها ثم خرج يلتمس من فضل الله عز وجل فمر برجل ميت على ظهر الطريق من احسن ما يكون هيئة فقال : ما اريد تجارة بعد هذا أنا آخذه وأغسله وأكفنه وأصلي عليه وأقبره ففعل فأنفق عليه ثمانين درهماً

(١) ص ٢١٤ .

وبقيت معه عشرون درهماً فخرج على وجهه يلتمس بها من فضل الله فاستقبله شخص فقال : اين تريد يا عبدالله ؟ فقال : اريد ألتمس ، فقال : وما معك من شيء نلتمس به من فضل الله قال : نعم معي عشرون درهماً قال : واين يقع منك عشرون درهماً قال : إن الله تعالى إذا اراد ان يبارك في شيء بارك فيه ؛ قال : صدقت ثم قال له : فأرشدك وتشركني قال : نعم قال : فان اهل هذه الدار يضيفونك ثلاثاً فاستضفهم فانه كلما جاءك الخادم معه هر اسود فقل له : تبيع هذا الهر وألح عليه فانك ستضجره فيقول لك : ابيعه بعشرين درهماً فاذا باعكه فاعطه العشرين درهماً وخذه واذبحه وخذ رأسه فاحرقه ثم خذ دماغه ثم توجه إلى مدينة كذا و كذا فان ملكهم اعمى فاخبرهم انك تعالجه ولا يرهبنك ما ترى من القتلى والمسلوبين فان اولئك كان يخبرهم على علاجه فاذا لم ير شيئاً قتلهم فلا يهولنك واخبر بانك تعالجه واشترط عليه فعالجه ولا تزده اول يوم من كحلة فانه سيقول لك : زدني فلا تفعل ثم اكحله من الغد اخرى فانك سترى ما تحب فيقول لك : زدني فلا تفعل فاذا كان الثالث فاكحله فانك سترى ما تحب فيقول لك : زدني فلا تفعل فلما ان فعل ذلك برىء فقال : أفدتني ملكي ورددته علي وقد زوجتك ابنتي قال : إن لي اماً قال : فأقم معي ما بدا لك فاذا اردت الخروج فاخرج قال : فأقام في ملكه سنة يدبره بأحسن تدبير وأحسن سيرة فلما ان حال عليه الحول قال له : إني اريد الانصراف فلم يدع شيئاً إلا زوده من كراع وإبل وغنم وآنية ومتاع ثم خرج حتى انتهى إلى الموضع الذي رأى فيه الرجل فاذا الرجل قاعد على حاله فقال : أما وفيت فقال للرجل : اجعلني في حل مما مضى قال ثم جمع الأشياء ففرقها فرقتين ثم قال : تخير فتخير أحديهما ثم قال : وفيت قال : لا ، قال : ولِمَ ؟ قال : المرأة مما أصبت قال : صدقت نخذ ما في يدي لك مكان المرأة قال : لا ولا آخذ ما ليس لي ولا اتكثر به قال : فوضع على رأسها المنشار

ثم قال : أجذ - اي اقطع - فقال : قد وفيت وكاما معك وكلما جئت به فهو لك وإنما بعثني الله تبارك وتعالى لأكافئك على الميت الذي كان على الطريق فهذا مكافأتك عليه .

التأكيد على الاحسان للاخوان

في كتاب دار السلام (١) عن تحف العقول في مواعظ الصادق (ع) يابن جندب إن للشيطان مصائد يصطاد بها فتحاموا شباكه ومصائده ، قلت : يابن رسول الله وما هي ؟ قال : اما مصائده فصد عن بر الاخوان ، واما شباكه فنوم عن قضاء الصلاة التي فرضها الله تعالى ، أما انه ما يعبد الله بمثل نقل الأقدام إلى بر الاخوان وزيارتهم ، وبل للساهين عن الصلوات النائمين في الخلوات المستهزئين بالله وآياته في الفترات .

مقارنات الاحسان الطبيعية

بالاضافة إلى ماذكرناه من ثمرات الاحسان من حب الناس للمحسن وزيادة الالفة واجتماع القلوب وغيرها فانه يورث السماحة في الطبع والبشاشة في الوجه ويقاوم صفة البخل الذميمة ، وبالأخير ان من لوازمه حسن الخلق والانطباع مع سائر انواع البشر وان حسن الخلق من افضل الصفات وقد مدح الله تعالى نبيه الكريم بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » (٢) . فقيل : إن معناه أي على دين عظيم وهو دين الاسلام وقيل : إن معناه انك متخلق بأخلاق الاسلام وعلى طبع

(١) ج ٣ ص ٤٩ . (٢) سورة ن .

كريم وحقيقة ما يأخذ به الانسان نفسه من الآداب وإنما سمي خلقاً لأنه يصير كالخلقة مع ان اصله كان بالتطبع والتخلق ومكافحة النفس والشيطان لأنهما يدعوان إلى الضد من المقاطعة وسوء الأخلاق .

وقيل : إن الخلق العظيم هو الصبر على الحق وسعة البذل وتدبير الأمور على مقتضى العقل بالصلاح والرفق والمداراة وتحمل المكاره في سبيل الدعوة إلى الله تعالى وتوجيه عباده اليه والتجاوز والعفو وبذل الجهد في نصرة المؤمنين وترك الحسد والحرص وامثال ذلك . وقالت عائشة : كان خلق النبي (ص) ماتضمنته العشر الأول من سورة المؤمنين . ومن مدحه الله بأنه على خلق عظيم فليس وراء مدحه مدح . وقيل : سمي خلقه (ص) عظيما لأنه عاشر الخلق بخلقه وزايلهم بقلبه فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق . وقيل : لأنه امتثل تأديب الله سبحانه إياه بقوله تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وقيل : سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ، ويعضده ما روي عنه (ص) انه قال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . وقال (ص) : أدبني ربي فأحسن تأديبي . وقال ﷺ : إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار . ولايستبعد ذلك لأنه قد قاوم النفس اولا والكثرة ما ينتج من اعمال الخير ثانياً .

وعن ابي الدرداء قال : قال النبي (ص) : ما من شيء اثقل في الميزان من خلق حسن .

وعن الرضا عن آبائه (ع) عن النبي (ص) قال : عليكم بحسن الخلق فان حسن الخلق في الجنة لامحالة ، وإياكم وسوء الخلق فان سوء الخلق في النار لامحالة وقد علل في بعض الأخبار بأنه لا يخرج من ذنب إلا ودخل في آخر .

وعنه (ص) انه قال : احبكم إلى الله احسنكم اخلاقاً الموطئون اكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وابغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الاخوان

المتمسون للبراء العثرات . وقال (ص) : خير الناس احسنهم اخلاقاً . وقال (ص) : إنكم ان لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . وقال (ص) : الأخلاق منائح من الله عز وجل فاذا احب عبداً منحه خلقاً حسناً وإذا ابغض عبداً منحه خلقاً سيئاً . من زرع المعروف حصد الشكر . وقال (ص) : حسن الخلق زمام من رحمة الله في انف صاحبه والزمام بيد ملك والملك يجره إلى الجنة وسوء الخلق زمام من عذاب الله في انف صاحبه والزمام بيد شيطان والشيطان يجره إلى النار وقال (ص) : ثلاث من كن فيه كن له من صدق لسانه زكا عمله ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن بره لأهل بيته زيد في عمره ، ثم قال : وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق وكان (ص) مدة حياته ما ضرب امرأة قط ولا خادماً له ولا ضرب بيده شيئاً إلا ان يجاهد فى سبيل الله . وقال بعض الحكماء : الخلق الحسن ذوقرابة عند الأجانب والسيء الخلق اجنبي عند اهله ، وقال الحسين عليه السلام : سمعت جدي رسول الله (ص) يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام فطلب احدهما رضاه الآخر كان سابقه إلى الجنة .

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري عن النبي(ص) انه قال : من اخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا افلايحب احدكم ان يشاركهم في ذلك .

وروي ان علي بن ابي طالب (ع) دعا غلاماً له يوماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه فجاءه فرآه مضطجعاً فقال له : أما تسمع يا غلام ؟ قال : نعم قال : فما حملك على ترك جوابي قال : أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال (ع) : اذهب فأنت حر لوجه الله وقيل لبعض الزهاد فى الدنيا : هل فرحت في الدنيا قط ؟ قال : نعم فرحت مرتين قيل له : وما هما ؟ قال إحداهما اني كنت قاعداً ذات يوم فجاء انسان فبال علي ، والثانية كنت جالساً يوماً فجاء انسان فصفعني وان معنى

فرحه بذلك حيث ثبت له انه قد استولى على نفسه الأمارة بالسوء واستلم زمامها حيث لم يغضبه ذلك .

وحكي عن احد العلماء انه دعاه انسان إلى ضيافة فأجابه فلما وافى منزله قال له الرجل : انصرف رحمك الله فقد عدلت عن دعوتك فانصرف ذلك العالم فلما دخل داره واستقر به الجلوس جاء اليه الرجل وقال : ايها العالم قد ندمت واخذ يعتذر اليه وطلب منه العود إلى منزله للدعوة فأجابه وقام معه فلما وافى منزله قال له مثل المرة الأولى فرجع ولم يقل شيئاً حتى فعل معه ذلك اربع مرات وهو ينصرف ويحضر ثم قال له الرجل : اردت اختبارك والوقوف على مقدار اخلاقك فقال العالم : لا تمدحني على خلق يوجد في الكلاب فان الكلب إذا دعي حضر وإذا زجر انزجر .

وقد كان بعض العباد يعتق كل من رآه من عبيده يحسن صلاته فعرفوا عبيده ذلك من اخلاقه فكانوا يحسنون صلاتهم مراءاة ليعتقهم وهو يعتق فقيل له في ذلك فقال : من خدعنا في الله انخدعنا له .

وقد روي عن بعض الولاة انه قد كان عنده جماعة على الغداء وهو معهم إذ اقبل خادم له وبيده صفحة فعثر في وسادة فوقعت من يده بما فيها من المرق فما ردها إلا ذقن الوالي وانكب جميع ما فيها في حجره وعلى ثيابه فبقي الخادم متمثلا واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم به رجليه فقام الوالي ودخل وغير ثيابه واقبل وهو يبرق سرور وجهه فأقبل على الخادم وقال : يابائس ما ارانا إلا روعناك اذهب فأنت واولادك احرار لوجه الله تعالى . وقال الصادق (ع) : لا مال اعود من العقل ولا مصيبة اعظم من الجهل ولا مظاهرة اوثق من المشاورة ولا ورع كالكف ولا عبادة كالتفكر ولا قائد خير من التوفيق ولا قرين خير من حسن الخلق ولا ميراث خير من الأدب .

ظريفة من محاسن الأخلاق

ذكر أن ملك الفرس انو شيروان قد وضع الموائد للناس في يوم النوروز ودخل هو ووجوه مملكته في الايوان المعروف بطاق كسرى فلما فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشمومات في اواني الذهب والفضة فلما رفعت الأواني اخذ بعض من حضر جاماً من ذهب وزنه الف مثقال وخبأه تحت ثيابه والملك يراه فلما فقده الموكل بالأواني صاح بصوت عال لايخرجن احد حتى يفتش فقال كسرى : ولِمَ ? فأخبروه بفقد الجام فقال : قد اخذه من لايرده ورآه من لا ينم عليه فلا تفتش احداً ، فأخذ الرجل الجام وكسره قطعاً وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة فلما كان مثل اليوم من السنة القابلة جلس الملك ايضاً على عادته ودخل ذلك الرجل بحليته فدعاه كسرى وقال له : هذا من ذاك فقبل الأرض بين يديه وقال : نعم اصلحك الله وتركه لحاله وقد ذكرنا ذلك لنعتبر بها حتى ولو كانت خياليات حيث انا عندما نسمع مثل هذه الأخلاق عن بعض الذوات أليس تهش انفسنا لها وتضمر لها تقديرها وتعترف لها بعظمتها وبعكسه لو حدثنا التاريخ عن سوء الأخلاق وانحطاطها كما مر من إخراج الرجل التمرة من فم الصبي الفقير باصبعه مما حدا ابا الدحداح على اشتراء نخلته وإعطائها لأبي الصبي كيف نجد الانقباض والتذمر من مثل هذا الرجل والتحمل عليه والتباعد عنه لو كان موجوداً معنا خوف سراية ميكروب طبعه إلى طباعنا ولذا ورد أن مثل جليس حسن الأخلاق كمثل الجلوس عند بائع الطيب ان لم يصبك من عطره شيء اصابك من رائحته ومثل جليس السوء مثل الكبريت ان لم يحرق ثوبك بناره آذاك برائحته ، وقد اكد الشارع الأقدس على اكتساب الأخلاق والتحلي بها

لأنها تؤول الى وحدة المجتمع وتوحيد كلمته فتراه تارة يأتي من طريق الترغيب وتارة من طريق الترهيب فقد ورد عن رسول الله (ص) انه قال : انتم بخير وبركة ورضوان من الله مادمتم اخوة متحابين واعلموا انكم إذا تباغضتم وافترقتم ذهبت عنكم البركة ونزلت بكم النازلة ولا ينبغي لأحدكم ان يبيت شبعاناً واخوه المؤمن جائعاً . وعنه (ص) ان الاخوان يكونون كالجسد الواحد اذا اصاب عضواً منه وجع اصاب الأعضاء الأخر ولهذا قد آخى بين الأصحاب جميعاً وجعل كل واحد منهم اخاً للآخر بحيث كانوا يعرفون بأن فلاناً اخو فلان لكي يتعاضدوا ويتساعدوا على مايصلحهم في الدنيا والآخرة حتى ان الفرد منهم لوغفل وارتكب ذنباً اوتساهل اوتثاقل عن طاعة نبهه اخوه وشد عزمه وقال له : ألسنا قد تعاهدنا واتفقنا على ان لا نتأخر عن طاعة ولا نقدم على معصية فعندها يحدث له من النشاط او الانسلاخ عما ارتكبه مالم يحصل له لولا تنبيه اخيه له بذلك الى ان تمكنت منهم الأخلاق الحسنة وصارت لهم الطاعات عادة وطبيعة .

وقد ورد ان النبي (ص) لما آخى بين اصحابه ولم يبق منهم احد إلا علي ابن ابي طالب (ع) بان الانكسار في وجهه ، وفي رواية انه بكى وقال : يا رسول الله لِمَ لم تؤاخ بيني وبين احد من الأصحاب ؟ فقال رسول الله (ص) : ألم ترض بأن تكون اخي وقد ادخرتك لنفسي وأخرتك لاخوتي فأنت اخي في الدنيا والآخرة وانت خليفتي على امتي ووزيري وقاضي ديني وانت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي ولو كانت نبوة بعدي لكنت انت يا ابا الحسن لها .

وذكر الصدوق في اماليه انه قال رسول الله (ص) : إن الحب في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطعان دابر الشيطان وقال (ص) : المسلمان يتلاقيان فيتصافحان فيكون افضلهما عند الله تعالى اشدهما حباً للآخر .

وعن السجاد (ع) قال : إذا كان يوم القيامة وجمع فيها الأولون والآخرون نادى مناد يسمعه كل احد أين المتحابون في الله ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فيقال لهم : اذهبوا الى الجنة بغير حساب قال : فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم : الى اين تريدون ؟ فيقولون : الى الجنة بغير حساب فيقولون لهم : اي ضرب انتم من الناس فيقولون : نحن المتحابون في الله قال : فيقولون : اي شيء كانت اعمالكم فيقولون : كنا نحب في الله ونبغض في الله فيقولون : نعم أجر العاملين ادخلوها بسلام آمنين .

وعن الصادق (ع) إذا اردت ان تعلم ان فيك خيراً أم لا فانظر الى قلبك فان وجدته يحب اهل طاعة الله ويبغض اهل معصية الله ففيك خير والله تعالى يحبك وان وجدته يبغض اهل طاعة لله ويحب اهل معصية الله فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من احب .

وعن رسول الله (ص) ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور قد أضاء نور وجوههم وأجسادهم ومنابرهم حتى يراهم كل احد ويعرفهم ويقال هؤلاء المتحابون في الله .

وعنه (ص) ان الرجل في الجنة يقول ما فعل صديقي فلان وصديقه في جهنم فيقول الله تعالى : اخرجوا له صديقه وادخلوه الجنة فيقولون الباقون في النار « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » ولهذا قال الصادق (ع): لا تصادقوا عدونا ولا تطلبوا منه حاجة ولا مساعدة فتمروا عليهم وهم في النار معذبون فيرونكم فيتعلقوا بكم ويقولون لكم : ألسنا قضينا لكم الحاجة الفلانية ألسنا أصدقاءكم ؟ فتستحون منهم فتشفعون لهم ويخرجهم الله من عـــذاب النار لأجلكم .

وعن الصادق (ع) إنما سمي المؤمن مؤمناً لأنه يؤمن على الله فيجيز الله

أمانه ، ومن الأحاديث القدسية ان الله تعالى قال : يا موسى هل عملت لي عملا ؟ قال موسى : نعم يا رب صليت لك وصمت وتصدقت وذكرتك كثيراً ، فقال الله تعالى : يا موسى إما صلاتك فهي لك برهان ، وإما الصوم فجنة لك من النار ، وإما الزكاة والصدقة فنور ، وإما الذكر فقصور فهي كلها لك فأي عمل عملت لي قال موسى : دلني يا رب على العمل الذي يكون لك قال الله تعالى : هل واليت لي ولياً وهل عاديت لي عدواً ؟ فعلم موسى ان الحب في الله والبغض في الله افضل عند الله من ذلك كله مما اوحى الله إلى عيسى (ع) يا عيسى كن راحماً مترحماً للعباد كما تشاء ان يكون لك العباد . يا عيسى اعطيتك ما انعمت به من غير تكدير وطلبت منك قرضاً لنفسك فبخلت به عليها لتكون من الهالكين . يا عيسى انك مسؤول فارحم الضعيف كرحمتي إياك ولا تقهر اليتيم . فالمؤمن له كرامته عند ربه ولذا قد ورد في حقه طوائف من الأخبار سواء كان من جهة عظيم الأجر لمن تصدى لقضاء حاجته او إدخال السرور عليه او مناصرته او قبول شفاعته او كان من جهة شديد الوزر على ظلمه وأذيته ومقاطعته كما تقدم اكثر ذلك .

وقد ذكر في الكافي عن الصادق (ع) في حرمة المؤمن على الله تعالى قال لو كشف الغطاء عن الناس لنظروا إلى وصل ما بين الله عز وجل وبين المؤمن خضعت للمؤمنين رقابهم وتسهلت لهم امورهم ولانت لهم طاعتهم .

وفى صفات الشيعة عنه (ع) المؤمن يخشع له كل شيء ، ثم قال (ع) : إذا كان مخلصاً قلبه لله أخاف الله منه كل شيء حتى هوام الأرض وسباعها وطير السماء . وفي كتاب المؤمن عنه (ع) أبى الله ان يظن بالمؤمن إلا خيراً .

ومعناه انه ان حدثتك نفسك عنه بشيء من غير يقين فهو من الشيطان ليغريك على أخيك فيجب ان تكذبه لأنه افسق الفاسقين والفاسق لاتقبل شهادته وقد قال في حقهم سبحانه وتعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم » (١) .

المعنى ان الله تعالى لما ذكر قبل هذا المنافقين ووصفهم بقبيح الصفات من امرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف وعدم إنفاقهم في طاعة الله وانهم هم الفاسقون وذكر وعده لهم مع الكافرين نار جهنم خالدين فيها اقتضت الحكمة ان يذكر المؤمنين بضد اوصافهم من انهم بعضهم اولياء بعض وانهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمقيمي الصلاة والمنفقون في طاعة الله من زكاتهم وغيرها والمطيعون لله ولرسوله وانهم المرحومون ثم ذكر وعده عزوجل لهم بالجنات الجارية من تحتها الأنهار ... الخ ، لأجل ان يتصل الكلام بما قبله اتصال النقيض بالنقيض لأن ذلك ابلغ في البيان فوعده لهم بالجنات يكون تجاه اعمالهم الحسنة وانهم الخالدون فيها لا نهاية لمكثهم فيها حيث هي لهم وهم لها « ومساكن طيبة » أي يطيب العيش فيها قد بناها الله تعالى بتشكيلات من إرادته من اللآلي والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر لا أذى فيها ولا نصب ولا وصب وقد سماها « جنات عدن » فقيل هي بطنان الجنة ووسطها وقيل هي مدينة في الجنة وفيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى والناس حولهم والجنان حولها وقيل : إن عدن اعلا درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من يوم خلقها الله عزوجل حتى ينزلها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر واليواقيت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأبيض .

(١) سورة التوبة الآية ٧١ و ٧٢

وروي عن النبي (ص) انه قال : عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله : طوبى لمن دخلك ثم قال تعالى : « ورضوان من الله اكبر » أي اكبر واعظم من الثواب لأنه لا يوجد شيء إلا بالرضوان وان ما يصل من السرور الى القلب برضوان الله تعالى ألذ وا كبر من جميع ذلك « ذلك هو الفوز العظيم » ثم يذكر جل جلاله لوناً آخر لجلالة اهل الايمان وعنايته بهم فيوصي عباده بالاصلاح فيما بينهم لو كان شقاق بين اثنين منهم ويوعد بعظيم الأجر منه تعالى لمن يفعل ذلك .

الاصلاح بين المؤمنين

قال تعالى : « إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » (١) وقال تعالى « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » (٢) . وقال تعالى : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة او معروف او إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » (٣) فتراه سبحانه كيف يحصر الخير في امور وينفيه عما عداها فيقول : لا خير في كثير من نجواهم واسرارهم ومناجاة بعضهم لبعض التي يقضون اوقاتهم فيها إما بالمحرمات كالكيد والمكر والخديعة والفتنة وإما بالسفه وما لا يعود عليهم بشيء من النفع كالمباحات بل الخير كل الخير في الأعمال التي استثناها وحصر الفائدة بها وهي « الصدقة » وقد تقدم الكلام في عظيم فوائدها سواء كان للمتصدق نفسه من توسعة الرزق عليه ودفع البلايا عنه او للمجتمع لأجل استقامة امور الضعفاء الذين هم أحد اركان النظام .

(١) سورة الحجرات الآية ١٢٧ . (٢) سورة الأنفال الآية ١٠

(٣) سورة النساء الآية ١١٤ .

« والمعروف » وقد تقدم ايضاً ذكره وقيل : إنما سميت ابواب البر بالمعروف لأن ذوي العقول يعرفونها .

« والاصلاح » بين الناس وهو المقصود بالذكر هنا ومعناه التأليف بينهم بالمودة . فقد ذكر في التهذيب عن علي (ع) عن النبي (ص) انه قال : إصلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصوم .

وفي كتاب عقاب الأعمال عنه (ص) من مشى في صلح بين اثنين صلى عليه ملائكة الله حتى يرجع وأعطي أجر ليلة القدر .

وعنه (ص) ما عمل رجل عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس يقول خيراً او ينمي خيراً .

وعنه (ص) صدقة يحبها الله إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا او تقارب بينهم إذا تباعدوا .

وفي تفسير علي بن ابراهيم في صفات لقمان ولم يمر برجلين يختصمان او يقتتلان إلا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتى يتحاجزا .

وفي الكافي عن ابي حنيفة سائق الحاج قال : مر بنا المفضل وأنا وختني نتشاجر في ميراث فوقف علينا ساعة ثم قال : تعالوا الى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها الينا من عنده حتى اذا استوثق كل واحد منا من صاحبه قال : أما انها ليست من مالي ولكن ابا عبدالله (ع) أمرني ان اذا تنازع رجلان من اصحابنا في شيء اصلح بينهما وافتدي بها من ماله فهذا من مال ابي عبدالله (ع) .

وفي غير واحد من الأخبار قد ورد ان المصلح ليس بكذاب أي وإن استعمل الكذب في إصلاحه فهو ليس بكذاب إذا توقف الاصلاح عليه وخصوصاً إذا كان له جاه وتقدير فحينئذ يكون في حقه أكد حيث قد ذكر

بعض المفسرين بسند ينتهي الى ابي عبدالله (عليه السلام) ان الله فرض التحمل على العباد في القرآن قال : قلت : وما التحمل في القرآن جعلت فداك ؟ قال (ع) ان يكون وجهك أعرض من وجه اخيك فتحمل له (أي جاهك) وهو قوله تعالى لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة او معروف - أي تبذل جاهك لأخيك . وقال ايضاً عن علي بن ابي طالب (ع) انه قال : إن الله قد فرض عليكم زكاة جاهكم كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم ، ثم يعود سبحانه وتعالى على بيان أجر هذه الصفات لفاعليها فيقول : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله أي لا يريد من الناس جزاء ولا سمعة « فسوف نؤتيه أجراً عظيما » وعظمته الأجر في الـكثرة والمنزلة والصفة بنسبة عظمة المعطي وهل ترى حداً لعظمة الله تعالى فكذلك لا حد لعطائه وقد وصفه هو بكونه عظيما . وفي الحقيقة ان الكلام والوقت من العمر الذي لا يتضمن هذه الفوائد حق ان يسلب عنه الخير كما إنا نطبق هذا في امورنا الدنيوية فترى الكاسب مثلا إذا تكلم معه مراجعه وعلم انه غير مشتري لا يصغي لكلامه بل يرغب بمقاطعته والتخلص منه وكذلك إذا كلمك صحيبك بما لا فائدة فيه وخصوصاً اذا أطال الكلام وربما تصارحه بقولك أي شيء تحصل لدينا من كلامك الذي قد استغرق ساعة من الزمان مثلا ولذا قيل : خير الكلام ما قل ودل وان أعظم الفوائد للكلام هو ما ذكر في الآية الـكريمة .

عظمة المؤمن من القرآن

قال الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض » (١) .

(١) سورة الأنعام الآية ٥٢ و ٥٣ .

نزول الآية

قال ابن مسعود مر الملأ من قريش على رسول الله (ص) وعنده صهيب وخباب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا أرضيت بهؤلاء من قومك افنحن نكون تبعاً لهؤلاء الذين من الله عليهم اطردهم عنك فلعلك ان طردتهم اتبعناك فانزل الله تعالى (ولا تطرد... الخ) وقال سلمان وخباب فينا نزلت هذه الآية جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري وذووهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي (ص) قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب في ناس من ضعفاء المؤمنين فحقروهم وقالوا يا رسول الله لو نحيت هؤلاء عنك حتى تخلوا بك فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن يرونا مع هؤلاء الأعبد ثم إذا انصرفنا فان شئت فاعدهم الى مجلسك فاجابهم النبي (ص) الى ذلك فقالا له اكتب لنا كتاباً بهذا على نفسك فدعا بصحيفة واحضر علياً ليكتب قال ونحن قاعدون في ناحية إذ نزل جبرئيل بقوله (ولا تطرد... الخ) فنحى رسول الله (ص) الصحيفة واقبل علينا ودنونا منه وهو يقول كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا أراد ان يقوم قام وتركنا فانزل الله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم... الخ) قال فكان رسول الله (ص) يقعد معنا ويدنو منا حتى كادت ركبتنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال (ص) الحمد لله الذي لم يمتني حتى امرني ان اصبر نفسي مع قوم من امتي معكم المحيا ومعكم الممات .

معنى الآية

ان الله نهى نبيه عن اجابة المشركين فيما اقترحوه من طرد المؤمنين فقال ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي مبيناً سبحانه علة النهي وسبب الاحترام لهم والتقدير لزكي ذواتهم وانه هو انقطاعهم الى ربهم وعبادتهم لخالقهم فقيل ان المراد من قوله يدعون ربهم أي يعبدونه بالصلاة المكتوبة وقيل ان المراد بالدعاء ههنا الذكر في طرفي النهار (يريدون وجهه) أي يطلبون ثواب الله ويعملون ابتغاء مرضاته لا يعدلون به شيئاً فقد شهد الله تعالى لهم بصدق النيات وانهم مخلصون ومن هو اتقى ممن شهد الله له بالتزكية ثم يكر سبحانه على نبيه بالعتاب بقوله (ما عليك من حسابهم من شيء) قيل أي من حساب المشركين الذين طلبوا منك تنحيتهم ولكن اكثر المفسرين يردون الضمير الى المؤمنين ومعناه ان حساب رزقهم ليس عليك وإنما هو على الله كما ان حساب رزقك ليس عليهم فالرزق منه تعالى يرزق من يشاء بغير حساب والتوسعة على بعض والتقتير على بعض يعود له جل شأنه لما يعلم من صالح الجميع وهو القائل ان من عبادي من يصلحه الفقر ولو اغنيته لأفسده ومنهم من يصلحه الغنى ولو افقرته لافسده فاذا لا ينبغي لك ان تملهم وتطردهم فليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم فدعهم يدنون منك ولا تطردهم (فتكون من الظالمين) لهم بطردك لهم وقيل ان معناه فتكون من الضارين لنفسك فانظر كيف قد عظم الامر سبحانه في هذا على النبي (ص) وخوفه من الدخول في جملة الظالمين حيث قد هم بتقديم الرؤساء واولي الاموال على الضعفاء مقدراً انه يستجر باسلامهم اسلام قومهم ومن لف لفهم من اتباعهم وكان (ص) لم يقصد في ذلك إلا الخير ولم ينو به الازدراء بالفقراء

ومع ذلك فقد اعلمه الله ان ذلك غير جائز فانظر الى مدى محافظة دين الاسلام وقوانينه على حقوق البشرية واعطائهم الحرية في الحصول على حقوقهم باعتبار انهم مسلمون ومقيدون بحدود الشرعية لا الحرية المزعومة بان يتخلى من الدين فان ذلك ضد الحرية لغدره بحقوق الآخرين ممن قد تدين وتعفف ثم اخبر سبحانه بانه يمتحن الفقراء بالاغنياء لاثبات صبرهم واظهار رضاهم بما قسم الله تعالى لهم حيث علموا انه لصالحهم وان عليه العوض في دار بقائهم ويمتحن الاغنياء بالفقراء أيضاً في مواساتهم واحترامهم وانهم اخوانهم في دينهم فقال (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) أي ابتليناهم وامتحناهم وهذا دليل واضح على ان فقراء المؤمنين وضعفاءهم أولى بالتقديم والتقريب والتعظيم من اغنيائهم فقد قال امير المؤمنين (ع) من اتى غنياً فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه ، وفي رواية أخرى من تواضع الى غني لأجل غناه بلسانه ذهب ثلث دينه ، ومن تواضع له بلسانه وبدنه ذهب ثلثا دينه ، ومن تواضع له بلسانه وبدنه وقلبه ذهب دينه كله . وعلة ذلك انه ينجر الى العقيدة بان رزقه بيد الاغنياء وهذا ان لم يكن كفر فهو الشرك .

بشارة للفقراء

عن ابي عبدالله (ع) قال اذا كان يوم القيامة امر الله منادياً فينادي اين الفقراء فيقوم عنق من الناس فيؤمر بهم الى الجنة فتقول خزنة الجنة قبل الحساب فيقولون ما اعطونا شيئاً فيحاسبوننا عليه فيقول الله صدقوا عبادي ما افقرتكم هواناً بكم ولكن ادخرت بهذا لكم هذا اليوم انظروا وتصفحوا وجوه الناس فمن اتى اليكم معروفاً فخذوا بيده وادخلوه الجنة . وعن النبي (ص) تدخل الفقراء الى الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم ومقداره خمسمائة عام .

ظريفة من فقير

في انوار النعمانية (١) دخل فقير على هارون الرشيد فسأله الرشيد لِمَ تكون اعمار الفقراء اطول من اعمار الملوك والاغنياء فقال له الفقير ذلك بسبب ان الاغنياء قد آتاهم الله أرزاقهم دفعة واحدة فاكلوها وفنيت اعمارهم لفناء ارزاقهم واما الفقراء فتأتيهم على التدريج ولم يكونوا يموتوا حتى تستكمل ارزاقهم فقال له هارون صدقت ثم امر له بعطية جزيلة فلما اخذها وصار الى منزله مات بعد مدة قليلة فاتصل خبره بهارون فقال انا دفعنا اليه رزقه دفعة واحده فاكله فمات .

المؤمن بين الناس

في الخصال عن زرارة بن اوفى قال دخلت علي علي بن الحسين (ع) فقال يا زرارة الناس في زماننا علي ست طبقات اسد وذئب وثعلب وكلب وخنزير وشاة اما الاسد فملوك الدنيا يحب كل واحد منهم ان يغلب ولا يغلب واما الذئب فتجاركم يذمون اذا اشتروا ويمدحون اذا باعوا واما الثعلب فهؤلاء الذين يأكلون باديانهم ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بالسنتهم واما الكلب يهر على الناس بلسانه ويكرمه الناس من شر لسانه واما الخنزير فهؤلاء المخنثون واشباههم لا يدعون الى فاحشة إلا اجابوا واما الشاة فالمؤمنون تجزشعورهم وتؤكل لحومهم وتكسر عظامهم فكيف يصنع الشاة بين اسد وذئب وثعلب وكلب وخنزير .

وفي اخبار كثيرة ان شيعتنا من لا يهر هرير الكلب ولا يطمع طمع الغراب .

(١) ج ٢ ص ٢٠٧ .

المؤمن عند الله

في عيون اخبار الرضا (ع) (١) قال رسول الله (ص) اذا كان يوم القيامة تجلى الله عز وجل لعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثم يغفر الله له لا يطلع الله على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلا ويستر عليه ما يكره ان يقف عليه احد ثم يقول لسيئاته كوني حسنات وفيه ايضاً (٢) قال رسول الله (ص) مثل المؤمن عند الله عز وجل كمثل ملك مقرب وان المؤمن عند الله اعظم من ذلك وليس شيء احب الى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة ، وفيها ايضاً قال رسول الله (ص) من استذل مؤمناً او حقره لفقره أو قلة ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم يفضحه وفيها عنها (ص) ان المؤمن يعرف في السماء كما يعرف الرجل اهله وولده وانه لاكرم على الله من ملك مقرب .

المؤمن اخو المؤمن

قد وردت عدة من الاخبار على اختلاف تعابيرها إلا ان مؤداها هو ان المؤمنين ابوهم النور وامهم الرحمة وانهم خلقوا من فاضل طينة الأئمة الطاهرين ففي المحاسن عن الباقر (ع) ان الله تبارك وتعالى خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية فالمؤمن أخو المؤمن لامه وأبيه أبوه النور وامه الرحمة ، وفي الكافي عن الصادق (ع) إنما المؤمنون اخوة بنو أب وام فاذا ضرب على رجل منهم عرق سهر الآخرون ، وفيه عن الباقر (ع) ان الله

(١) ج ٢ ص ٣٣ . (٢) ص ٢٩ .

عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وامه فاذا أصاب روحاً من تلك الارواح في بلد من البلدان وحزن حزنت عليه هذه لانها منها وان كرامة المؤمن على الله عظيمة في مشكاة الانوار عن النبي (ص) ان الله تبارك وتعالى إذا رأى أهل قرية قد اسرفوا في المعاصي وفيها ثلاثة نفر من المؤمنين ناداهم يا أهل معصيتي لولا من فيكم من المؤمنين المتحابين بجلالي العامرين بصلواتهم ارضي ومساجدي المستغفرين بالاسحار خوفاً لانزلت بكم عذابي ثم لا ابالي . وروي أن موسى (ع) قال يا رب اخبرني عن آية رضاك عن عبدك فاوحى اليه إذا رأيت نفسك تحب المساكين وتبغض الجبارين فذاك آية رضاي ، وفي امالي الصدوق ان الحب في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطعان دابر الشيطان ، وقد ورد في كتاب بشارة المصطفى ان المؤمن أعظم حرمة من الكعبة وان الرجل من شيعة علي (ع) ليشفع بعدد ربيعة ومضر وان لله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهورهم كما تسقط الريح الورق من الشجر أو ان سقوطه وانه ما من ملك إلا ويتقرب الى الله بولاية أهل البيت والاستغفار لمحبيهم ، وقد ورد فيه أيضاً ان الله أشد حباً لشيعتنا منا (وخصوصاً الضعفاء منهم) كان علي بن الحسين (ع) إذا اتاه السائل يقول مرحباً بمن يحمل زادي الى الآخرة . وبعد هذا كله فما يمنع من ان يخلص من صميم قلبه لأخوانه المؤمنين سواء كان بمساعدتهم أو بالذب عنهم أو بادخال السرور عليهم وما شابه ذلك .

تسلية لفقراء المؤمنين

قال تعالى يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور

وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (١) .

المراد من الموعظة هو القرآن الكريم لاشتماله على انفع المواعظ واعظم العبر لمن اعتبر واما قوله تعالى (وشفاء لما في الصدور) اي شفاء للقلوب التي تحويها الصدور والشفاء يكون من الرين والدرن المعنوي الذي يترسب على القلب من جراء اكل المحرمات فيتصلب ويقسو بدل الرقة ثم يظلم بدل الاستنارة فطبه وعلاجه يكون بالموعظة ثم قال : « وهدى » اي ان القرآن هاد إلى الحق وإلى الطريق الواضح المستقيم « ورحمة » لأن من استهدى به ووصل إلى مقاصده وعمل بأوامره ونواهيه فقد شملته رحمة الله الواسعة وقيل إن الهدى محمد (ص) والرحمة هو علي بن ابي طالب (ع) ثم قال للمؤمنين وخصهم لأنهم هم الذين استهدوا بما ذكر وانتفعوا بأنوار ما تقدم فكانوا اظهر مصاديقه ، واما قوله تعالى : « قل بفضل الله ... الخ » اي قل يا محمد لأصحابك الذين قد وصل الايمان إلى اعماق قلوبهم واتبعوا سبله المنصوبة لهم من قبل ربهم والتزموا بوصايا نبيهم وأحكام دينهم « بذلك فليفرحوا » اي بالهداية لدين الاسلام والاعتراف بالنبوة والامامة وان اصابهم في سبيل ذلك ضيق من امور الدنيا وجور من اهلها « هو خير مما يجمعون » من الأموال او المناصب لأن الهداية تستتبع الثواب والنعيم الدائم في الآخرة والاجتماع مع محمد (ص) وعترته الطاهرة وجمع المال يستتبع العقاب والخزي الطويل والحشر مع الشيطان واتباعه الفاجرة ومع الحرمان منه في الدنيا ايضاً لبخلهم به وعدم إنفاقه وجمعهم إياه وفي هذا تسلية للفقراء من الله تعالى وتقريع للأغنياء الذين لم ينتفعوا به لدار بقائهم ولو بذلوه وواسوا به ابناء نوعهم وكسبوا به رضاء رازقهم لربحوا خير الدارين معاً .

---

(١) سورة يونس الآية ٥٧ .

المؤمن مرآة المؤمن

اي انه لشدة شفقته عليه فهو يريه عيوبه ويلفته إلى نواقصه فاذا وجده قد عمل سيئة وارتكب منكراً نصحه ووعظه وينبغي للآخر ان يقدر له ذلك ويرتب الأثر على ذلك النصح كما يرتب الآثار وسرعة الامتثال على نصائح الدنيا أترى ان لو قال لك احد ان في ثوبك عقرباً كيف تصدقه أولا وتسرع إلى التخلص منها ثانياً دون تريث وبطء وتشكره على نصحه ثالثاً مع ان الأذى المتصور منها غايته يوم مثلا إضافة إلى انه اذى يتحمل فينبغي لذوي العقول والانصاف تصديق المذكر والمنبه لهم على سيئاتهم أولا والاسراع إلى التخلص منها قبل موافاة محتم الأجل ثانياً وشكره على نصحه ثالثاً حيث ان عقابها ابدي وأذاها سرمدي فما الانتظار عن الندم والاستغفار وقد فتح لنا ربنا الكريم باباً وسماه التوبة وفي كل ليلة ينادي مناديه بين السماء الدنيا والأرض هل من تائب فأقبل توبته وأغفر زلته هل من آيب فأقبل رجعته ؟ نعم نعقل هذا كله لكن القلوب مظلمة والرين من اكل المحرمات قد استولى عليها فلذا ترى النصح غير مؤثر فيها فهل لنا ان نسارع إلى جلائها بتنزيه معاشنا وغذائنا كما ننزه القرحة اولا من القيح لكي نضع الدواء عليها وما يدريك ايها المفتون في جمع الدنيا انه قد صنع لبن لحدك وانت مشغول بتعمير دار غيرك وربك يناديك بقوله : « سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » .

المؤمن ولي المؤمن

قال الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (١) .

الولي معناه هو الذي يسوغ له التصرف في اموال المولى عليه حسب ما تقتضيه المصلحة له ويعمل كما يعمل لنفسه والمؤمن الحقيقي هـــذا عمله لأخيه لا هدف له إلا اصالحه فيكون ولياً ولذا سبق القول بأن المؤمن مرآة المؤمن وقال رسول الله (ص) : إن في ظل العرش ثلاثة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله رجلان تحابا في الله وافترقا عليه ، ورجل تصدق بيمينه فأخفاها عن شماله ، ورجل دعته امرأة ذات جمال فقال : إني اخاف الله رب العالمين .

فالمؤمن يسد عن المؤمن ويدفع عنه بظهر الغيب ويسنده إذا زلق ويساعده إذا اعوز ويتعاونون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث إذا امر احدهم بمعروف او نهى عن منكر سانده الآخرون حتى يكون التأثير أشد ولا يتركونه منفرداً كي يستضعفونه الفساق ويشدون عليه ، ألا وان المؤمن يهمه أمر المجتمع حتى لو رأى من يرتكب المعاصي او قد جمع المال من الحلال والحرام وقد منع حقوقه الواجبة عليه فانه يتألم له ويحزن لما يعرف من أليم عقابه وشديد جزائه فهو يحمل همه بدل ان يحسده على ماله أترى ان لو رأيت سارقاً قد قبضت عليه السلطة ومعه اموال كثيرة يحملونها معه الى المحاكمة وقد سرقها أفهل تحسده على هذا المال المحمول معه او انك تتألم عليه لما سينال من عقابه ، فكذلك المؤمن إذا

(١) سورة البراءة الآية ٧١ .

رأى اهل المال ولم يأخذوه من حله اولم يتخلصوا من حقوقه المفروضة عليهم فانه يتألم لهم لما توعى من قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم فذوقوا ما كنتم تكنزون » وإذا كان المؤمنون بهذه الأوصاف فحق لهم ان يكونوا هم المرحومون على حد تعبير الآية الكريمة عنهم .

ففي كنز الكراجكي في النبوي في نصرة المؤمن قال (ص) : وينصره ظالماً ومظلوماً ، فاما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه ، وإما نصرته مظلوماً فيعينه على اخذ حقه ولا يسلمه ولا يخذله .

وعن الصادق (ع) اقعد رجل في قبره وكان من الأخيار فقيل له : إنا جالدوك مائة جلدة قال : لا اطيقها فلم يزالوا به حتى انتهوا إلى جلدة واحدة فقالوا ليس لك بد منها قال : فيم تجلدونيها ؟ قالوا : نجلدك لأنك صليت يوماً بغير وضوء ومررت على ضعيف فلم تنصره قال : فجلدوه جلدة فامتلأ قبره ناراً .

ميزة المؤمن عن غيره في القرآن

قال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً وله عذاب مهين » (١) .

وعلى نفس المجرى باضافة بيان المدرك يقول سبحانه في الحديث القدسي : يا بني آدم أطيعوني بقدر حاجتكم إلي واعصوني بقدر صبركم على النار واعملوا للدنيا بقدر لبثكم فيها وتزودوا للآخرة بقدر مكثكم فيها .

(١) سورة النساء الآية ١٣ .

فنقول : إن الانسان بدافع الطبيعة يطلب مظان الخير والراحة ويتهرب عن مظان الشر والأذى حتى على الوهم والخيال بحيث لو كان له احتمال ضعيف بأن فلاناً يروم مساعدته تراه يتقرب اليه ويتحبب له ويظهر له الاخلاص ويقوم بأوامره ويتباعد عن اعدائه ويكاد ان يلتحق به وبعكسه لو قيل له ان فلاناً الجبار يعاقب كل من يسلك هذا الطريق او ان فيه من يسرق او يقتل تراه يتباعد عن سلوكه اقصى درجات امكانه بل حتى لو حدثت في طرفه سرقات فاذا تكررت واستمرت ربما يدفعه الاحتياط عن الخطر والفرار من الضرر ان يترك داره وينتقل الى طرف آخر هارباً وكذلك حالة البشر انهم يستعدون للأسفار البعيدة بما لا يستعدون بمثله للأسفار القريبة وان هذا الخوف والرجاء الطبيعي يختلف شدة وضعفاً كلما تفاوتت الغاية المأمولة او الخسارة المنتظرة فنقول : ما لهذه الطبيعة تقف عن مقتضاها وتتأخر عن تأثيرها عندما يذكر لها خير الآخرة وشرها وهلا تعمل وتتقرب الى من بيده خير الآخرة والدنيا ايضاً او هلا تتخوف وتهرب عن مخالفة من بيده شر الآخرة وعقابها ومصائب الدنيا وبلائها ، نعم هناك حواجز وصواد عن تأثير تلك الطبيعة منها تسويل النفس بطول الأمل ومنها خدع الشيطان والتغرير بلهو الدنيا ، ومنها معاشرة اخوان السوء والعصاة من الناس لأن الصحبة من اقوى المؤثرات ولذا نسب الى علي امير المؤمنين (ع) في الارشاد الى اختيار الصاحب قوله :

صاحب اخا ثقة تحظى بصحبته   فالطبع مكتسب من كل مصحوب

وان الأسباب الأولية في الحقيقة لهذه المؤثرات هو اكل المحرمات بأنواعها وقد ذكرنا قريباً انها تقسي القلب وتصلبه بعد الرقة واللين وتظلمه بعد الاستنارة فلا تعود تجدي فيه المواعظ ولا تنفع لديه العبر وإلا فأي مسلم يمكنه الدعوى بعدم الاحتياج الى الله تعالى حتى لا يطيعه وإنا في حاجته حتى في الخطوات

واللحظات ونعترف بعجزنا عن أقل قليل من امورنا وتقصر عن اصلاحها كل تدابيرنا لولا ألطافه تعالى علينا ، وكذلك اي فرد لا يدرك ضجره وعجزه وأذاه عن اي عارض يعرضه من مضار الدنيا وأي انسان لا يعرف عدم صبره على وضع اصبعه في نار الدنيا بضعة لحظات فكيف يصبر على نار سجرها جبارها لغضبه كما قال ذلك امير المؤمنين (ع) لأخيه عقيل حين استماحه صاعاً من شعير ، والى هذا كله يشير الحديث « أطيعوني بقدر حاجتكم إلي واعصوني بقدر صبركم على النار » حيث هي للعاصين كما ان الجنة للمطيعين ، وكذلك قوله : « اعملوا للدنيا بقدر لبثكم فيها وتزودوا للآخرة بقدر مكثكم فيها » ولا يخفى عليك ما بين اللبث والمكث من الفرق الشاسع فانا نعد من السفه ان يستعد انسان لسفرة يوم مثلا بما يكفي لسنين بينما لا يستعد لسفر يطول سنة إلا بما يكفي ليوم مثلا اولا يستعد بشيء أصلا مع علمه بعدم وجود من يعينه في سفره وفي مقصده .

والخلاصة ان ذلك كله جلي لابن آدم وان مثل هذه الآيات والأحاديث الطاف منه عز وجل اضافة الى ما اودع فينا من العقل وهو الرسول الباطني وبه ندرك كل ما ينفعنا ويضرنا ، نعم ادرك به وعمل بارشاده المؤمنون وعمدوا الى تصفية نفوسهم وتنوير قلوبهم وصقل عقولهم وقمعوا بذلك الشيطان ولم يبقوا له أي مدخل وقد انتج ذلك لهم ان حصلوا على وسام المطيعين من رب العالمين واستحقوا الخلود في جنات تجري من تحتها الأنهار وامتازوا بذلك عن العاصين .

وقد سئل امير المؤمنين (ع) عن العلم فقال : اربع كلمات أن تعبد الله بقدر حاجتك اليه وان تعصيه بقدر صبرك على النار وان تعمل لدنياك بقدر عمرك فيها وان تعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها . وقد اوتي بمال مساءً فقال لأصحابه قسموه فقالوا : قد أمسينا قال : من يضمن لي البقاء الى غد ؟ قالوا : لا أحد فقاموا وقسموه ليلتهم .

طوبى للمؤمن من الله

قال تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » (١) .

المعنى الذين اعترفوا بتوحيد الله على جميع صفاته ونبوة نبيه (ص) وقبول ما جاء به من عند الله وتسكن قلوبهم بذكر الله وتأنس اليه ومعنى الذكر هو حصول المعنى للنفس بتذكره وتذكر نعمائه عز وجل ولا يشترط فيه اللفظ هذه صفة المؤمنين هنا وقد وصفه تعالى في موضع آخر بأنه اذا ذكر الله وجل قلبه ولا تنافي بين الوصفين لأن المراد من الأول انه يذكر ثوابه وإنعامه وآلائه التي لا تحصى وأياديه التي لا تجازى فيسكن ويطمئن اليه ومن الثاني انه يذكر عقابه وانتقامه وما اعده للعاصين من انواع العذاب فيخافه ويوجل قلبه . كما قد وصفهم ايضاً اميرهم علي بن ابي طالب (ع) وهو الخبير بهم بقوله . كأنهم والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون . وذلك لانكشاف حقائق الايمان لديهم فهم سائرون على ضوء انوار قلوبهم وعاملون بما اراده الله منهم فاهمون نعم الله السابقة عليهم ولا رب غيره لهم لذا يقول سبحانه على سبيل التوضيح : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وهذا حث منه تعالى للعباد على تسكين قلوبهم الى ما وعد الله به من النعيم والثواب والطمأنينة اليه وهو جملة معترضة ووعد منه ووعده صادق ولا شيء تطمئن اليه النفوس وتثق به القلوب أبلغ من الوعد الصادق فاذاً كما قال تعالى بذكر الله تطمئن القلوب لا بغيره من الأكاذيب والأوهام من الشيطان وتسويلات النفس ثم يقول سبحانه بعد توصيفهم

(١) سورة الرعد الآية ٢٨ .

بذلك في مقام إعطاء الجزاء للمؤمنين : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ومعناه الذين يؤمنون بالله ويعملون مايراد منهم من الطاعات طوبى لهم ومعنى طوبى فيه أقوال أحدها ان معناه فرح لهم وقرة عين عن ابن عباس وهذا جزاء لا تحديد فيه وهو أبلغ ثانيها غبطة لهم ثالثها خير لهم وكرامة رابعها الجنة خامسها العيش الطيب والحال المستطابة لهم سادسها هنيئاً لهم بطيب العيش سابعها حسنى لهم ثامنها نعم مالهم تاسعها دوام الخير لهم عاشرها ان طوبى شجرة في الجنة اصلها في دار النبي (ص) وفي دار كل مؤمن منها غصن عن عبيد بن عمير ووهب وابي هريرة وشهر بن حوشب .

ورواه عن ابي سعيد الخدري وهو المروي عن ابي جعفر (ع) قال : لو أن راكباً مجداً سار في ظلها مائة عام ما خرج منها ولو أن غراباً طار من اصلها ما بلغ اعلاها حتى يبيض هرماً ألا في مثل هـذا فارغبوا ان المؤمن نفسه منه في شغل والناس منه في راحة اذا جن عليه الليل فرش وجهه وسجد لله يناجي الذي خلقه في فكاك رقبته ألا فهكذا فكونوا .

وروي بسند عن ابي عبيدة الحذاء عن ابي عبدالله (ع) كان رسول الله ﷺ يكثر تقبيل فاطمة (ع) فأنكرت عليه بعض نسائه ذلك فقال (ص) : انه لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة وأدناني جبرئيل من شجرة طوبى وناولني منها تفاحة فأكلتها فحول الله ذلك في ظهري ماء فهبطت إلى الأرض وواقعت خديجة فحملت بفاطمة فكلما اشتقت الى الجنة قبلتها وما قبلتها إلا وجدت رائحة شجرة طوبى فهي حوراء أنسية .

ورواه الثعلبي ايضاً باسناده إلى الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس قال : طوبى شجرة أصلها في دار علي (ع) في الجنة وفي دار كل مؤمن منها غصن .

ورواه ابو بصير عن ابي عبدالله (ع) .

وروواه الحاكم ابو القاسم الحسكاني من اكابر علماء السنة باسناده عن موسى ابن جعفر (ع) عن ابيه عن آبائه (ع) قال: سئل رسول الله (ص) عن طوبى قال (ص): شجرة أصلها في داري وفرعها على اهل الجنة ثم سئل عنها مرة اخرى فقال: في دار علي (ع) فقيل في ذلك فقال (ص): إن داري ودار علي في الجنة بمكان واحد. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: « وحسن مآب » أي والمؤمنين حسن مرجع بعد الموت والبعث والنشور وانما كان أحسن مرجع لأنه دائم.

الدفاع من الله عن المؤمنين

قال تعالى: « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون لا تقم فيه ابداً لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق ان تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » (١).

فقد ذكرنا الآية بطولها لتضمنها تاريخاً صحيحاً عن مدى نفاق القوم وهم معدودون من اصحاب رسول الله (ص) وعن عميق كيدهم للمؤمنين المخلصين وإرادة تفريق كلمتهم وانتصار الله لهم جزاء لايمانهم الصحيح كما هو صريح الآيات لنعلم انه ليس كل من عمل عملاً ظاهره خير يكون مقبولاً ومعدوداً له في الحسنات التاريخية وإلا فما أعظم من بناء مسجد يعبد فيه الله تعالى وقد أمر سبحانه نبيه

(١) سورة التوبة الآية ١٠٧ وما بعدها.

باحراقه بعد تهديمه كما سيأتي تفصيل ذلك ، نعم ان العمل المقصود به وجهه تعالى لا غير هو الذي يسجل لفاعله المدح والثناء كما شهد سبحانه لأهل بيت النبي (ص) في سورة الدهر بقوله : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولاشكوراً »

نزول الآيات

قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا وبعثوا الى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم وصلى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا : نبني مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد (ص) وكانوا اثني عشر رجلا وقيل : خمسة عشر رجلا منهم ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير ونبتل بن الحرث فبنوا مسجداً الى جنب مسجد قبا فلما فرغوا منه أتوا رسول الله (ص) وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة فقال ﷺ : إني على جناح سفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه فلما انصرف رسول الله (ص) من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد .

والمعنى انه تعالى ذكر جماعة من المنافقين وهم من عرفت بنوا مسجداً وقد أظهر نيتهم فيه وان قصدهم التفريق وطلب الغوائل للمؤمنين فقال : « ضراراً » مفعول لأجله هو وما بعده مراداً به العلة أي أسس للضرار وللكفر وللتفريق بين المؤمنين واختلاف كلمتهم وإبطال إلفتهم ليتفرقوا عن رسول الله (ص) وتضعف بذلك شوكة المسلمين « وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل » أي ارصدوا ذلك المسجد واتخذوه وأعدوه لأبي عامر الراهب وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل . وكان من قصته انه قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبي

ﷺ المدينة حسده وحزب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكة إلى الطائف فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصر وسمى رسول الله أبا عامر الفاسق وكان قد أرسل إلى المنافقين ان استعدوا وابنوا مسجداً فاني اذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود واخرج محمداً من المدينة حيث انه لما قابل النبي (ص) وقال له بعد كلام أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً وكان هؤلاء المنافقون يتوقعون ان يجيئهم ابو عامر فمات في الشام قبل ان يبلغ ملك الروم طريداً وحيداً ، وهكذا ترى الانسان يكدح ويجد ويجتهد في اعماله الدنيوية ولا يدري في أي ساعة وفي أي بقعة يخيم عليه ملك الموت ويستل روحه من جسده فيبقى هو والحجر سواء بل ان الحجر ربما ينتفع به وهو يتأذى منه وينفر من رائحته حتى يدفن في حفيرته . نعم تكون الميزة والفارق بين من كان كدحه في الدنيا في الأعمال الصالحة فتكون عاقبته الراحة بعد العناء واللذة بعد التنغيص والسعادة بعد الشقاء وبين من كان كدحه وهمه في القبيح من الأعمال كالغدر والخديعة والكذب والنفاق فتكون عاقبته إلى كدح أعظم وإلى نار جهنم فيكون كادحاً في الدنيا والآخرة معاً ثم يخبر سبحانه رسوله الكريم بما انطوت عليه ضمائر هؤلاء المنافقين لئلا يصدق بأقوالهم المعسولة وايمانهم الفاجرة فيقول : « وليحلفن ان أردنا إلا الحسنى » ومعناه انهم يحلفون حالة كونهم كاذبين ما اردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنة من التوسعة على اهل الضعف والعلة من المسلمين فأطلع الله نبيه على فساد طويتهم وخبث سريرتهم فقال تعالى : « والله يشهد انهم لكاذبون » وكفى لمن يشهد الله تعالى بكذبه خزياً فوجه رسول الله ﷺ عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلاني ومالك بن الدخشم وكان من بني عمرو بن عوف فقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه واحرقاه . وروي انه (ص) بعث عماراً بن ياسر ووحشياً فحرقاه وأمر بأن يتخذ

كناسة يلقى فيها الجيف وكذلك ورد أن صاحب الأمر عجل الله فرجه إذا ظهر يهدم كثيراً من المساجد أمثال هذا المسجد ثم نهى سبحانه نبيه ان يقوم في هذا المسجد فقال : « لا تقم فيه أبداً » أي لا تصل فيه ثم أقسم تعالى فقال : « لمسجد » أي والله « أسس على التقوى » أي بني أصله على تقوى الله وطاعته « من اول يوم » أي وضع أساسه « أحق ان تقوم فيه » أي اولى ان تصلي فيه واختلف في هذا المسجد فقيل : هو مسجد قبا ، وقيل : هو مسجد رسول الله ﷺ وقيل : هو كل مسجد أريد به وجه الله في قبال ما لم يرد به ذلك ثم وصف تعالى المسجد وأهله كي يقتفى بهم فقال : « فيه رجال يحبون ان يتطهروا » أي يحبون ان يصلوا لله متطهرين بأبلغ الطهارة ، وقيل : يحبون ان يتطهروا من الذنوب . وروي عن النبي (ص) انه قال لأهل قبا : ماذا تفعلون في طهركم فان الله قد أحسن الثناء عليكم ؟ فقالوا : نغسل أثر الغائط فقال (ص) : انزل الله فيكم « والله يحب المطهرين » وهذا كناية عن شدة احتياطهم واحتفاظهم في دينهم وانهم ليسوا متسامحين ، ثم قرر سبحانه الفرق بين المسجدين فقال : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار » وشفا جرف الشيء معناه نهايته في المساحة وآخره ، والاجتراف معناه هو اقتلاع الشيء من اصله وهار ، ويقال فيه ايضاً انهار معناه لم يبق منه شيء حيث اكل الماء أصله وحفره ، والمراد انه تعالى شبه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذه صفته فكما ان من بنى على جانب هذا النهر المأكول أصله ينهار بناؤه في الماء ، ولا ثبات له فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط ولكن في نار جهنم والحاصل انه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق فان عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على اصل صحيح ثابت وعمل المنافق ليس بثابت وهو واه ساقط والاستفهام منه تعالى إنكاري لعلمه بنفاقهم وقد فضحهم كما قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقوله تعالى : « فانهار به في نار جهنم » معناه يوقعه ذلك البناء في نار جهنم « والله لايهدي القوم الظالمين » أي يتركهم وانفسهم بدون الطاف منه تعالى حيث لم يعمدوا إلى تصفية نفوسهم كي تكون محلا قابلا لألطاف الله عليهم لما بينهما من المضادة من الكثافة واللطافة .

وروي عن جابر بن عبدالله انه قال : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان « لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم » أي شكا في قلوبهم فيما أظهروه من الاسلام وثباتاً منهم على النفاق ، وقيل : معناه حزازة وقيل : حسرة في قلوبهم يترددون فيها « إلا ان تقطع قلوبهم » معناه إلا ان يموتوا والمراد من الآية انهم لا ينزعون عن الخطيئة ولا يتوبون حتى يموتوا على نفاقهم وكفرهم فاذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الايمان وما اخذوه والتزموه من الكفر والنفاق ، وقيل : معناه إلا ان يتوبوا توبة خالصة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم « والله عليم » أي عالم بنيتهم في بناء المسجد الضرار «حكيم» في امره لنبيه بنقضه والمنع من الصلاة فيه أي إنما منع لحكمة ومصلحة للناس في ذلك لئلا يقعوا في الأباطيل من حيث لايشعرون ومنها التفرقة فانها المضعفة للدين وأهل الدين . وعلى مجراها تأتي الآية الأخرى مشيرة إلى ابي عامر الصيفي ايضاً قال تعالى : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (١) .

قيل : إنه هو ابو عامر بن النعمان بن صيفي الراهب الذي سماه رسول الله

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٥ و ١٧٦ .

الفاسق وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح كما ذكرنا في الآية السابقة فقدم المدينة فقال للنبي (ص) : ما هذا الذي جئت به ؟ قال (ص) : جئت بالحنيفية دين ابراهيم (ع) قال : فأنا عليها فقال (ص) : لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها فقال ابو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين إلى آخر ما ذكرنا روى ذلك عن سعيد بن المسيب ، وقيل : المراد به منافقوا اهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي (ص) كما يعرفون ابناءهم من كتبهم ، وقيل : المراد به بلعام بن باعور وكان رجلا على دين موسى (ع) وكان في المدينة التي قصدها موسى (ع) وكانوا كفاراً وكان عنده اسم الله الأعظم وكان إذا دعا الله به اجابه ، وقيل : هو بلعم بن باعوراء من بني هاب بن لوط . وقيل : إنه امية بن ابي الصلت الثقفي الشاعر وكانت قصته انه قرأ الكتب وعلم ان الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ورجا ان يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد (ص) حسده ومر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل : قتلهم محمد (ص) فقال : لو كان نبياً ما قتل أقرباءه واستنشد رسول الله (ص) اخته شعره بعد موته فقال (ص) : آمن شعره وكفر قلبه ، وقيل : أصله بلعم ثم صار مثلا يضرب لكل من انعم الله عليه من معارف العلم والنور واستعملها في معصية الله تعالى وإضلال عباده فيسلخ منه ذلك العلم ويكون معنى قوله تعالى : « فانسلخ منها » اعرض عن آيات الله وتركها « فاتبعه الشيطان » أي خذله الله وخلى بينه وبين الشيطان ، وقيل : إنه مثل ضربه الله تعالى لمن عرض عليه الهدى فأبى ان يقبله وقال ابو جعفر (ع) : الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله من اهل القبلة ، وأما الآيات التي اوتيها ما هي ؟ فقيل : إن المراد بها المعجزات الدالة على صدق الأنبياء فلم يقبلها وعرى عنها كالدلالات الدالة على صدق موسى (ع) مثلا فلم يقبلها فرعون وانسلخ منها ، وقيل : إن

الآيات هي الايمان والهدى والدين ، وقيل غير ذلك ثم قال تعالى : « ولو شئنا لرفعناه بها » أي بتلك الآيات أي لرفعنا منزلته بايمانه ومعرفته قبل ان يكفر ولكن بقيناه ليزداد الايمان فكفر ، هذا قول الجبائي ، وقيل: إن معناه لوشئنا لحلنا بينه وبين ما اختاره من المعصية وهو إخبار عن كمال قدرته تعالى لكن العبد يكون مجبوراً على الطاعة « ولكنه اخلد إلى الأرض » أي ركن إلى الدنيا ومال اليها فكنى عن العلم بالارتفاع لعلو شأنه ، وعن الجهل والانسلاخ عن العلم بالأرض لخساسته وضعته « واتبع هواه » أي انقاد لشهوته في الركون إلى الدنيا واختيارها على الآخرة ثم ضرب له مثلا في الخسة فقال : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث » ومعناه ان صفته كصفة الكلب ان طردته وشددت عليه يخرج لسانه من فمه وإن تركته ولم تطرده ايضاً يخرج لسانه من فمه والمعنى ان وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال في كل حال كما ان الكلب يلهث في كل حال ومثلها قوله تعالى : « سواء عليهم أدعوتموهم ام انتم صامتون » وقيل : إنما شبهه بالكلب في الخسة وقصور الهمة وسقوط المنزلة ، وقيل : إنه مثل لمن يقرأ القرآن ولا يعمل به « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » . قال ابن عباس : يريد اهل مكة كانوا يتمنون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله تعالى فلماجاءهم من لايشكون بصدقه كذبوه « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » أي اقصص عليهم أخبار الماضين لعلهم يعتبرون ولايفعلون مثل فعلهم حتى لايحل بهم مثل ما حل بهم .

وقد ذكر في انوار النعمانية (١) في وصف بلعم انه كان في حضرته اثنا عشر الف محبرة يكتبون عنه العلم مع ما آتاه الله من الآيات المتعددة التي من جملتها انه كان بحيث إذا نظر يرى العرش . وإذاً مثله كمثل الكلب فالمطلوب من العالم إنما

(١) ج ٣ ص ٣٤٠ .

هو العمل بذلك العلم لا ان يستعمله لطلب الجاه والمنزلة فالله عزوجل يقدر للمؤمن إيمانه ويميزه عمن يبطن ضدالايمان فتجده سبحانه كيف يذم هذا و كيف يعتز ويمتدح من انتفع بايمانه وأرشد غيره فقال تعالى: « وقال الذي آمن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » (١) .

« المعنى » الذي آمن هو مؤمن آل فرعون وهو رجل كان يؤمن بالله سراً يكتم إيمانه خوفاً من فرعون ونصح فرعون عندما أراد البطش بموسى (ع) وخوفه من قتله ، وقيل : إنه كان ابن عم فرعون قال : « يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد » اي طريق الهدى وهو الايمان بالله وتوحيده والاقرار بموسى ﷺ ثم وعظهم بقوله : « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع » اي انتفاع قليل ثم يزول وينقطع ويا ليت انه ينقطع فقط بل يبقى وزره وآثامه كما قد تقدم من ان هشام بن عبد الملك لما حضرته الوفاة واجتمع عليه اهله يبكون فقال ترك لكم هشام كلما جمع وتركتم عليه كلما حمل وإلى ذلك يؤمي ما ورد من ان النبي (ص) كان نائماً على حصير فأثر في بدنه الشريف فقال له بعض اصحابه : لو اتخذت لك فراشاً ليناً فقال (ص) : إن دنياكم عندي كراكب في صيف فرأى شجرة فاستظل بظلها ساعة ثم تركها ومضى هذا بالنسبة إلى قصر عمرها ، واما بالنسبة إلى بقاء وزرها فكما قال الامام الكاظم (ع) لهشام : إن الدنيا كالحية لين مسها والسم في جوفها يتركها ذوو العقول ويهوى اليها الصبيان بأيديهم وبعدما اعطى حقيقة الدنيا وانها متاع انتقل إلى بيان حقيقة الآخرة فقال : « وإن الآخرة هي دار القرار » اي دار الاقامة التي يستقر فيها الخلائق وليس بعد الوصول اليها اي

(١) سورة المؤمن الآية ٣٨ و ٣٩ .

انتقال فلا تغتروا بالدنيا الفانية ولا تؤثروها على الدار الباقية .

وعن النبي (ص) من اصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه امره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له ومن اصبح وهمه الآخرة جمع الله امره وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ثم بين سبحانه نتائج الدنيا في الآخرة فقال : « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها » اي من عمل معصية فلا يجزى إلا مقدار ما يستحقه عليها من العقاب لا اكثر من ذلك ، لأن الله لا يوجد عنده شيء من الظلم « ومن عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن » اي مصدق بالله وانبيائه ، لأن الايمان شرط قبول الأعمال « فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » اي زيادة على ما يستحقونه تفضلا من الله تعالى ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحساب وقيل : إن معنى قوله : بغير حساب اي لا تبعة عليهم فيما يعطون من الخير في الجنة ثم بعد ذلك بآيات قال تعالى في بيان نصره لمؤمن آل فرعون حيث هو قد نصر الله تعالى : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » اي حفظ الله ذلك المؤمن مما اراد به فرعون من المكر والقتل قيل : إنه عبر البحر مع موسى (ع) ونجا من فرعون ، وقيل : إنهم ارادوا قتله فهرب إلى جبل وقام يصلي فأرسل الله تعالى الوحوش فكانت حوله صفوفاً فأرسل فرعون رجلين ليقتلاه فوجدا الوحوش حوله فهربا خوفاً .

الخلاصة

إن الايمان الصحيح يدفع بصاحبه إلى نصرة الحق وإن كان ضعيفاً ومنفرداً وان الله تعالى لابد ناصره فلا ينبغي التخاذل والتخوف من كثرة اعداء

الحق فان الحق يعلو ولا يعلى عليه ، لأن الله مع الحق ومن كان الله معه لا يخشى احداً كما وجدنا من مؤمن آل فرعون ، وايضاً ان الذب عن الدين والنصرة حسب الامكان ومقتضيات الأحوال تارة باليد والسلاح وتارة باللسان وأخرى بالجنان كما ذكر لنا عن مؤمن آل فرعون كيف نصر موسى (ع) بلسانه وخوّف فرعون من قتله بحسن بيانه .

في وصف المؤمن وتحديده

قال الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (١) .

(المعنى)

لما قال سبحانه قبلها إن كنتم مؤمنين بين صفة المؤمنين ومعنى وجلت قلوبهم اي خافت تعظيما له وذلك إذا ذكر عندهم عقوبته وعدله ووعيده على المعاصي بالعقاب واقتداره عليه وقد ورد في ثواب الخوف منه تعالى والبكاء من خشيته الكثير من الأخبار .

في عدة الداعي عن الصادق (ع) كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث عيون عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في طاعة الله وعين بكت في جوف الليل من خشية الله .

(١) سورة الأنفال الآية ٢ .

وعنه (ع) مامن شيء إلا وله كيل او وزن إلا الدموع فان القطرة تطفي بحاراً من النار فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق (١) قتر ولا ذلة فاذا فاضت حرمه الله على النار ولو أن باكياً بكى في أمة لرحموا .

وعن رسول الله (ص) إذا أحب الله عبداً نصب في قلبه نائحة من الحزن فان الله يحب كل قلب حزين وانه لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن إلى الضرع وانه لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري مؤمن ابداً وإذا ابغض الله عبداً جعل قلبه مزاراً (٢) من الضحك وان الضحك يميت القلب والله لا يحب الفرحين .

نعم هذه صفة المؤمنين عند الخوف وأما اذا ذكرت عندهم نعمة الله على عباده وإحسانه اليهم ورحمته وفضله عليهم وثوابه على الطاعات اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم الى عفو الله تعالى كما قال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ولذا قال لقمان لابنه : يا بني خف الله مخافة لا تيأس من رحمته وارجه رجاء لا تأمن من مكره فلا تنافي بين آية الخوف وبين آية الاطمئنان ، لأن ورودهما في حالتين لا في حالة واحدة .

فعن ابي جعفر (ع) هو (٣) ان الرجل يهجم على شهوة من شهوات الدنيا وهي معصية فيذكر مقام ربه (٤) فيدعها من مخافته فهذه الآية له . وان الوجل هو الخوف مع شدة الحزن ويستعمل غالباً في القلب لأنه رئيس الحواس ويدرك انه لا يخلو عن المعاصي ، فالخوف يكون غالباً ثم هو يكون رادعاً عن ارتكاب المعاصي وناهياً عن اتباع الهوى كما قال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس

(١) أي لم يغش .
(٢) وفي نسخة مزماراً .
(٣) أي الخوف من مقام الرب .
(٤) أي اطلاعه عليه .

عن الهوى فان الجنة هي المأوى » (١) ، أي يدعوه الخوف من مساءلة ربه له الى ترك المحرمات التي تشتهيها وتهواها نفسه ، وقيل في معناها إن الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها فهذا الجنة مأواه ومقره وكما قال تعالى ايضاً : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » (٢) ، قيل هنا في معنى الخوف ما قيل فيما قبلها وقيل ايضاً : من راقب الله في السر والعلانية على حال واحد فما عرض له من محرم تركه من خشية الله وما عرض له من خير عمله وأفضى به إلى الله لايطلع عليه احد

قال الصادق (ع) : من علم ان الله يراه ويسمع ما يقول من خير ومن شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فله جنتان جنة عدن (٣) وجنة النعيم وقيل بستانان من بساتين الجنة إحداها داخل القصر والأخرى خارج القصر فظير ما يشتهي الانسان في الدنيا وقيل إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه وخدمه وقيل جنة من ذهب وجنة من فضة ، وعلى كل للخوف منه تعالى عظيم منزلته فقد ورد من خاف الله ملأه الله أماناً يوم القيامة ، ثم قال تعالى : « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » أي آيات القرآن زادتهم تبصرة ويقيناً على يقين وقيل زادتهم تصديقاً على تصديقهم بما انزل اليهم قبل ذلك والمعنى انهم يصدقون بالأولى والثانية والثالثة وبكل مايأتي من عند الله تعالى « وعلى ربهم يتوكلون » أي يفوضون امورهم إلى الله فيما يخافونه من السوء في الدنيا وقيل فيما يرجونه من قبول اعمالهم فى الآخرة .

وعن النبي (ص) انه جاء جبرئيل اليه فقال له : يا جبرئيل وما التوكل ؟ قال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الناس فاذا كان العبد كذلك لم يعتمد على أحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله

(١) سورة النازعات الآية ٤٠ . (٢) سورة الرحمن الآية ٤٦ .
(٣) وفي نسخة المأوى .

ولم يطمع على أحد سوى الله وقد قال تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً « وقبلها » قوله : « ويرزقه من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب » (١) » قيل إنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي أسر العدو إبناً له فأتى النبي (ص) فذكر له ذلك وشكا اليه الفاقة فقال ﷺ له : إتق واصبر واكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل الرجل ذلك فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه وقد غفل عنه العدو فأصاب إبلا وجاء بها الى ابيه فذلك قوله تعالى : « ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وروي عن الصادق (ع) انه قال : ويرزقه من حيث لايحتسب أي يبارك له في ما آتاه .

وعن ابي ذر عن النبي (ص) انه قال : إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم وهي « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل » الآية ، فما زال يقولها ويعيدها .

وقد قال لقمان : يا بني من ذا الذي عبد الله فخذله ومن ذا الذي ابتغاه فلم يجده ، يابني ومن ذا الذي ذكره فلم يذكره ومن ذا الذي توكل على الله فوكله إلى غيره ومن ذا الذي تضرع اليه جل ذكره فلم يرحمه . ومعنى التوكل التفويض في الأمور اليه تعالى والوثوق بحسن تدبيره فهو كافيه يكفيه أمر دنياه ويعطيه ثواب الجنة في أخراه ويجعله بحيث لا يحتاج إلى غيره .

وفي الحديث من سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله .

وقد ورد ان الناس لو توكلوا على الله حق التوكل لكانوا كالطير تخرج من أوكارها خماصاً وتعود بطاناً ، أي بغير تدبير منها « إن الله بالغ أمره » أي يبلغ ما أراد من قضاياه وتدابيره على ما أراده ولا يقدر أحد على منعه عما

(١) سورة الطلاق الآية ٣٩ .

يريد ، وقيل معناه منفذ أمره فيمن يتوكل عليه وفيمن لا يتوكل عليه . فاذاً لم تفوتنا ثمرة التوكل ما دام أمره نافذاً على كل حال « قد جعل لكل شيء قدراً » أي مقداراً واجلا لا زيادة فيه ولا نقصان بحسب الحكمة والمصلحة فالمتوكل عليه تعالى قد حصل على راحته أولا وعلى المقدر له منه تعالى ثانياً « الذين يقيمون الصلاة » أي المداومون على إقامة الصلاة او المحافظون على حدودها والمشاطرين في ارزاقهم فقراء ملتهم والبذل في مواقع الخير لعلمهم بالخلف من ربهم وانه الكفيل لأرزاقهم ، وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر لعظم شأنها وتأكد امرها وليكون داعياً على المواظبة عليها وعلى فعلها ، ثم قال تعالى في حصر الايمان بمن استجمع هذه الأوصاف: « اولئك هم المؤمنون حقاً » أي الحائزون لهذه الخصال هم الذين استحقوا هذا الاسم على الحقيقة لأنهم اكمل أفراده كما ان لفظ الانسان إذا اطلق على الفرد الكامل ترى انه أحق به من إطلاقه على الناقص حتى يكاد يسلب عن الفرد الناقص اذ توفر فيه النقص لارتكابه الرذائل من الخيانة والغدر والنميمة وأمثالها فيقال في حقه إنه ليس بانسان بدون نكير من احد وبعكسه فيما اذا اتصف بصفات الكمال فقد يقال بحقه انه هو الانسان لا غيره وانه حقيقة فيه فكذلك اسم الايمان لهذا قال تعالى : هم المؤمنون حقاً ، أي لا مجازاً ومسامحة كما في غيرهم ولا يخفى ما في تركيب الجملة من إفادة الحصر .

في بيان جزاء المؤمنين

قال تعالى :« لهم درجات عند ربهم » أي درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم وهذا منه لطف وترغيب لعباده في طلب الصفات الجميلة فانها وان اقتضت قهر النفس حيث ان مطلوبها رذائل الصفات لكنها بلحاظ ما لها من رفيع الدرجات تكون

محبوبة ومرغوبة خصوصاً إذا كان الجزاء بوعد وعهد منه سبحانه لا ممن يحتمل فيه الخلف او العجز او النسيان « ومغفرة » لذنوبهم لعدم خلو غير المعصوم من الذنوب لأن الحسنات يذهبن السيئات « ورزق كريم » أي خطير كبير في الجنة وقيل معنى كريم أي دائم لا يشوبه ضرر ولا يعتريه كدر ولا يخاف عليه فناء ولا نقصان ولا حساب .

وإن هذه الآيات من الأدلة لمن يقول بأن الايمان يزيد وينقص وان عباد الله ليسوا على حد واحد في الايمان لأنه تعالى قال : إنما المؤمنون ... الخ بالحصر وظاهره ان الذين لم توجل قلوبهم عند ذكر الله تعالى ولم تزدهم تلاوته إيماناً ولا يتوكلون عليه في امورهم ولا يقيمون الصلاة ولا ينفقون مما رزقهم لا يكونون مؤمنين وإلا فلا معنى للحصر فكأنه قال : لا يكون أحد مؤمناً إلا ان يكون بهذه الصفات ، لكن هذا مشكل والجواب عنه ان هذه صفات خيار المؤمنين وأفاضلهم فالتفاضل بينهم في الطاعات والمستحبات لا بأصل الايمان والدليل على ذلك ان الاجماع قائم على ان وجل القلب ليس بواجب وانما هو مندوب وكذلك بعض أفراد الصلاة وبعض الانفاق .

وقال ابن عباس : إن الله تعالى أراد بذلك ان المنافق لا تدخل قلبه خشية الله عند ذكره وان هذه الأوصاف منتفية عنه .

الفصل الرابع
في السخاء

ويكفي في مدح السخاء والأسخياء من القرآن كل ما ورد في الانفاق والمنفقين فانه لا يكون إلا عن السخاء فهما متلازمان وانه من صفات المتقين واهل الجنة وان الله تعالى جعله اول صفة عند عـداد صفات المتقين في الآية السابقة الذكر في وصف الجنة قال : أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء الخ

وأما ما ورد من الأخبار في مدح السخاء فكثير منها ما روي عن النبي ﷺ في كتاب مصباح الشريعة الجنة دار الأسخياء .

وعنه (ص) انه قال : السماح شجرة في الجنة اغصانها في الدنيا من تعلق بغصن منها قادته الى الجنة والبخل شجرة في النار أغصانها في الدنيا من تعلق بغصن منها قادته الى النار ، لأن بخله يجره الى منع الحقوق التي فرضها الله عليه فيستحق النار . فقد ورد عن النبي (ص) انه قال : اشد ما يكون على الانسان يوم القيامة ان يقوم اهل الخمس فيتعلقوا بذلك الرجل ويقولون : ربنا ان هذا الرجل قد اكل خمسنا وتصرف فيه ولم يدفعه الينا فيدفع اليهم عوضه من حسنات ذلك الرجل وكذلك أهل الزكاة .

وقال امير المؤمنين (ع) : السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار .

وفي كتاب الغرر عنه (ع) السخاء يزرع المحبة ، وقال (ع) : سبب المحبة السخاء ، وقال (ع) : سبب السيادة السخاء .

وفي الحديث ان النبي (ص) سئل عن سيد بني عوف فقالوا : هو جد ابن قيس لكنه يزن بالبخل (أي يتهم بالبخل) فقال (ص) : وأي داء ادوى من البخل سيدكم البراء بن معرور لأنه غير بخيل فابدله (ص) به .

وروي ان البخيل يوقف على باب الجنة ويتأخر دخوله اربعين عاماً ويكفي من ذمه قوله تعالى : « والله لايحب كل مختال فخور » (١) ، أي متكبر بما اوتي من حطام الدنيا فخور على الناس بها ثم يوضحه سبحانه وتعالى بقوله : « الذين يبخلون » بمنع الواجبات « ويأمرون الناس بالبخل » كما هو مشهور على لسانهم الدارج « ما ينفعك غير مالك » وكأن الله تعالى الذي اعطاه ذلك المال صار مسلوب القدرة عن اعطائه ثانياً ، او ان خزائنه قد نفدت فلم يبق لديه شيء ونعوذ بالله .

قال الصادق (ع) : حسب البخيل من بخله سوء الظن بربه من امن بالخلف جاد بالعطية ، وان البخل من اعظم الأسباب لدخول النار كما ذكرنا واعظم منه الشح على ما في ايدي الناس ولا يرى في ايديهم شيئاً إلا تمنى ان يكون له بالحل والحرام ولا يقنع بما رزقه الله تعالى .

وفي الحديث لا يجتمع الشح والايمان في قلب عبد ، ومعناه ان الشح حالة غريزية كالوصف اللازم ومركزها النفس فاذا انتهى سلطانه الى القلب واستولى عليه عرى القلب عن الايمان وشح حتى بالطاعة ، وإنا وان كان غرضنا السخاء غير انه لما كان البخل والشح ضده فذكرناه لتنفر الروح الشفافة من الاتصاف به لقبحه وبمقاومته تتمكن من التحلي بصفة السخاء .

(١) سورة الحديد الآية ٢٢ .

ففي كتاب علل الشرائع باسناده الى ابي بصير قال : قلت لأبي جعفر (ع): كان رسول الله (ص) يتعوذ من البخل قال : نعم في كل صباح ومساء ونحن نتعوذ بالله من البخل انه يقول : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وسأخبرك عن عاقبة البخل ، ان قوم لوط كانوا اهل قرية اشحاء على الطعام فأعقبهم البخل داء لا دواء له في فروجهم فقلت : وما اعقبهم ؟ فقال : ان قرية قوم لوط كانت على طريق السيارة تنزل بهم فيضيفونهم فلما كثر ذلك عليهم ضاقوا بذلك ذرعاً وبخلا ولؤماً فدعاهم البخل الى ان كانوا اذا نزل بهم الضيف فضحوه من غير شهوة بهم الى ذلك وانما كانوا يفعلون ذلك بالضيف حتى ينكل النازل عنهم فشاع امرهم في القرى فأورثهم البخل بلاء لا يستطيعون دفعه عن انفسهم حتى صاروا يطلبونه من الرجال في البلاد ويعطونهم عليه الجعل فقلت له : جعلت فداك فهل كان اهل قرية لوط كلهم هكذا يفعلون ؟ فقال : نعم إلا اهل بيت منهم من المسلمين أما تسمع لقوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » وان لوطاً لبث في قومه ثلاثين سنة يدعوهم الى الله عز وجل وكانوا لا يتنظفون من الغائط ولا يتطهرون من الجنابة ، وكان لوط سخياً يقري الضيف اذا نزل به ويحذرهم قومه وكان ابراهيم قد ارسله لهم لما بلغه من شنيع فعلهم لينذرهم ، وقيل انهم كانت لهم بلاد عامرة كثيرة الزروع والتمور والشجر تقع على بعد سبعة فراسخ من مكان ابراهيم (ع) وكانت ضيوفه تمر بهم فتتناول من تمورهم وثمارهم فضجروا لبخلهم فتمثل لهم إبليس وقال : هل ادلكم على ما ان فعلتموه لم يمر بكم احد ؟ فقالوا : ما هو ؟ قال : من مر بكم فانكحوه في دبره واسلبوه ثيابه ، ثم تصور لهم في صورة امرد حسن الوجه فجاءهم فوثبوا عليه وفجروا به كما امرهم فاستطابوه فشكا الناس الى ابراهيم (ع) فبعث اليهم لوطاً يحذرهم وقال لهم لوط : أنا ابن خالة ابراهيم الذي جعل الله عليه

النار برداً وسلاماً وهو بالقرب منكم حيث نزل هناك لما خرج من ارض نمرود فاتقوا الله ولا تفعلوا فان الله يهلككم وكان لوط كلما مر به رجل يريدونه بسوء خلصه من ايديهم حتى قالوا له : لئن لم تنته لنرجمنك بالحجارة ، فدعا عليهم الى آخر القصة وقد مرت سابقاً ولنرجع الى السخاء وجميل آثاره .

ففي كتاب الغرر عن امير المؤمنين (ع) سادة اهل الجنة الأسخياء والمتقون وقال (ع): ما استجلبت المحبة بمثل السخاء والرفق وحسن الخلق ، وقال (ع): إن افضل ما استجلب به الثناء السخاء ، ان الأتقياء سخي متعفف محسن . افضل الشيم السخاء والعفة والسكينة .

وفي الأمالي عن الصادق (ع) إن الله تبارك وتعالى رضي لكم الاسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق .

وفي الخصال خياركم سمحاؤكم . وفي المحاسن عن امير المؤمنين (ع) ثلاث من ابواب البر سخاء النفس وطيب الكلام والصبر على الأذى .

وفي الاختصاص للمفيد (رض) وروي ان رسول الله (ص) قال لعدي ابن حاتم دفع عن ابيك العذاب الشديد سخاوة نفسه .

وروي ان الشاب السخي المقترف للذنوب أحب إلى الله من الشيخ العابد البخيل . وروي إياك والسخي فان الله عز وجل يأخذ بيده .

وروي ان الله تبارك وتعالى يأخذ بناصية السخي إذا عثر .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق (ع) : السخاء من أخلاق الأنبياء وهو عماد الايمان ولا يكون مؤمناً إلا سخياً ولا يكون سخياً إلا ذو يقين وهمة عالية لأن السخاء شعاع نور اليقين ومن عرف ما قصد هان عليه ما بذل . وقال رسول الله (ص) : ما جبل ولي الله إلا على السخاء .

وفي الاختصاص (١) في فضل السخاء ، روي ان قوماً أسارى جيء بهم إلى رسول الله (ص) فأمر امير المؤمنين (ع) بضرب اعناقهم ثم أمر بافراد واحد منهم وأن لا يقتله فقال الرجل : لِمَ أفردتني من اصحابي والجناية واحدة ؟ فقال (ص) : إن الله عز وجل اوحى إلي انك سخي قومك وأن لا أقتلك فقال الرجل : فاني أشهد أن لا إله إلا الله وانك رسول الله قال : فقاده سخاؤه إلى الجنة. وروي ان السخي حبيب الله .

السخاء في ضمن ستة خصال

تلحق الفرد بالأنبياء

قال رسول الله (ص) : عالم ورع أجره كأجر عيسى بن مريم (ع) غني سخي أجره كأجر الخليل ابراهيم (ع) فقير صبور أجره كأجر النبي ايوب أمير عادل اجره كأجر النبي سليمان ، شاب تائب أجره كأجر يحيى بن زكريا امرأة حيية أجرها كأجر مريم ابنة عمران (ع) .

ومن الآثار في السخاء

إن النعمان بن المنذر قد جعل له يوم بؤس ويوم نعيم وقد دخل عليه رجل من طي في يوم بؤسه فلما علم الرجل انه مقتول قال : حيى الله الملك أن لي صبية صغاراً ولم يتفاوت الحال بين قتلي اول النهار او آخره ، فان رأى الملك ان اوصل

(١) ص ٢٥٣ .

اليهم هذا القوت وأوصي بهم اهل المروة من الحي ثم اعود فقال له النعمان : لا آذن لك حتى يضمنك رجل ممنا فان لم ترجع قتلناه وكان شريك بن عدي نديم النعمان معه قال : ايها الملك أنا اضمنه فمضى الطائي مسرعاً وصار النعمان يقول لشريك : جاء وقتك فتأهب للقتل فقال : ليس للملك علي سبيل حتى يأتي المساء فلما قرب المساء والناس في هرج ومرج قال النعمان : تأهب للقتل فقال شريك : هذا شخص قد لاح مقبلا أرجو ان يكون الطائي وإذا هو قد اشتد في عدوه مسرعاً حتى وصل فقال : خشيت ان ينقضي النهار قبل وصولي ثم قال : ايها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه فقال : ما رأيت اعجب منكما أما انت ياطائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يفتخر به ، واما انت ياشريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء فلا اكون أنا ألأم الثلاثة ، ألا واني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس كرماً لوفاء الطائي وسخاء شريك ، ثم قال النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك ؟ فقال : من لا وفاء له لا دين له فأحسن اليه ووصله بما أغناه .

نادرة أخرى في الوفاء

قصة السموأل في الدروع التي أمنها عنده امرىء القيس ، ولما توفى امرىء القيس وغزاه ملك الشام فتحرز منه السموأل فأخذ إبناً له كان مع الضئر خارج الحصن ثم صاح بالسموأل فأشرف عليه فقال : هذا ابنك في يدي إن لم تدفع لي الدروع ذبحته فقال : اذبحه ولا أخون الأمانة فاصنع ما انت صانع ان الغدر طوق لا يبلى ولابني هذا اخوة فذبح الملك ابنه وهو ينظر ورجع الملك خائباً فلما صار الموسم وافى السموأل بالدروع ورثة امرىء القيس بن حجر

الـكندي وقد مدح الله تعالى الوفاء والموفين في كتابه المجيد فقال في ضمن تعداد صفات البر: « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » (١) ، وقال تعالى: « واذكر في الـكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً » (٢) .

قال في مجمع البيان: كان إذا وعد بشيء وفى به ولم يخلف . قال ابن عباس انه واعد رجلا ان ينتظره في مكان ونسي الرجل فانتظره سنة حتى أتاه الرجل .

وفي الكافي عن الصادق (ع) وفي العيون عن الرضا (ع) انه اسماعيل بن خرقيل ، وقيل: هو اسماعيل بن ابراهيم (ع) والأول قد رواه كثير من الامامية عن ابي عبدالله (ع) .

وفي البحار عن الصدوق عن الصادق (ع) عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله (ص): إن افضل الصدقة صدقة اللسان تحقن بها الدماء وتدفع بها الـكريهة وتجر المنفعة إلى اخيك المسلم ثم قال (ص): إن عابد بني اسرائيل الذي كان اعبدهم كان يسعى في حوائج الناس عند الملك وانه لقي اسماعيل بن خرقيل فقال له: لا تبرح حتى ارجع اليك يا اسماعيل ، فبقي عند الملك وبقي اسماعيل ينتظره إلى حول في المكان فأنبت الله لاسماعيل عشباً فكان يأكل منه وأجرى له عيناً وأظله بغمام فخرج الملك بعد ذلك للتنزه ومعه العابد فرأى اسماعيل فقال له: انك لههنا يا اسماعيل فقال له: قلت لي: لا تبرح فلم ابرح فسمي صادق الوعد وكان جبار مع الملك فقال: ايها الملك كذب هذا العبد قد مررت بهذه البرية فلم أره ههنا فقال اسماعيل: إن كنت كاذباً نزع الله صالح ما اعطاك قال: فتناثرت اسنان الجبار فقال الجبار: إني كذبت على هذا العبد الصالح فاطلب ايها الملك منه ان يدعو الله ليرد علي اسناني فأني شيخ كبير فطلب منه الملك فقال إني افعل قال: الساعة قال: لا وأخره إلى السحر ثم دعا فردت ثم قال: إن افضل

(١) سورة البقرة وسط آية ١٧٢ . (٢) سورة مريم الآية ٥٦ .

ما دعوتم به الله بالأسحار قال تعالى : « وبالأسحار هم يستغفرون » .

وقد ورد في مدح الوفاء من الأخبار الكثيرة فعن الصادق المؤمن مؤمنان فمؤمن صدق بعهد الله ووفى بشرط الله وذلك قوله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» وذلك الذي لا تصيبه اهوال الدنيا ولا اهوال الآخرة وذلك ممن يشفع ولا يُشفع له ، ومؤمن كخامة الزرع يعوج أحياناً ويقوم أحياناً فذلك ممن تصيبه اهوال الدنيا واهوال الآخرة وذلك ممن يشفع له ولا يشفع .

وفي العلل ان رسول الله (ص) وعد رجلا إلى صخرة فقال : أنا لك ههنا فاشتد الحر بالشمس عليه فقال له اصحابه : يا رسول الله لو تحولت إلى الظل قال ﷺ : قد وعدته ههنا . وقال رسول الله (ص) : اصنع المعروف إلى من هو اهله وإلى من ليس بأهله فان اصبت اهله فقد اصبت اهله وإن لم تصب اهله فانت من اهله . وقال (ص) : إن بدلاء امتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين . وقال (ص) : إن الله عز وجل جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب اليهم المعروف وحبب اليهم فعاله ووجه طلاب اليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي بها اهلها . وقال (ص) : السخي محبب في السموات ومحبب في الأرضين خلق من طينة عذبة وخلق ماء عينيه من ماء الكوثر والبخيل مبغض في السموات مبغض في الأرضين خلق من طينة سبخة وخلق ماء عينيه من ماء العوسج . وقال ﷺ : الجنة دار الأسخياء . وقال (ص) : إن افضل الناس إيماناً ابسطهم كفاً وقال الصادق (ع) لبعض جلسائه : ألا اخبرك بشيء تقرب به من الله وتقرب من الجنة وتتباعد من النار فقال : بلى فقال : عليك بالسخاء . وقال (ع) : خيار كم سمحاؤكم وشرار كم بخلاؤكم ومن خالص الايمان البر بالاخوان والسعي في حوائجهم وان البار بالاخوان ليحبه الرحمن وفي ذلك مرغمة للشيطان وتزحزح

عن النيران ودخول الجنان . وقال عيسى (ع) : استكثروا من شيء لا تأكله النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقال أمير المؤمنين (ع) : ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده يخلف الله له ما انفق في دنياه ويضاعف له في آخرته . وقال النبي(ص) : إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها وقال (ص) : إن لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع عن العباد نقلها الله عنه وحولها إلى غيره . وقال (ص) : البخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل . وقال (ص) : إن البخل من الكفر والكفر في النار . وقتل رجل في الجهاد من اصحاب رسول الله (ص) فبكته امرأة وقالت : واشهيداه فقال (ص) لها : وما يدريك انه شهيد فلعله كان يتكلم بما لا يعنيه او يبخل بما لا ينقصه .

وروي انه (ص) كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي ، قال رسول الله (ص) : وما ذنبك صفه لي ؟ قال : هو أعظم من ان اصفه لك ، قال : ويحك ذنبك اعظم أم الأرضون قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال (ص) : ويحك ذنبك اعظم أم الجبال ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال (ص) : فذنبك اعظم أم البحار ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال (ص) : فذنبك اعظم أم السموات ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله قال (ص) : ذنبك اعظم أم العرش ؟ قال : بل ذنبي يا رسول الله ، قال (ص) : ذنبك اعظم أم الله ؟ قال : بل الله أعظم وأعلى وأجل ، قال (ص) : ويحك فصف لي ذنبك ، قال : يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وان السائل ليأتيني ليسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من النار ، فقال رسول الله (ص) : اليك عني لا تحرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت الفي الف عام وبكيت حتى تجري من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار

ثم مت وانت لئيم لأكبك الله في النار ، ويحك أما علمت ان الله يقول : « ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه » (١) ، وقال : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢) ، وقال امير المؤمنين (ع) : سيأتي على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما في يديه ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » (٣) .

وبعد هذا فليعلم ان السخاء الممدوح هو الطريق الوسط بين الاقتار والاسراف ، وإذا تجاوز ذلك وصار معدوداً من التبذير فهو مذموم وان السخاء والبذل إنما يبلغ درجة السخاء والجود فيما إذا كان من طيب القلب بحيث ان ذاته قد انطبعت على السماحة بحدودها الشرعية والعرفية ، فلو كان البذل منه بمشقة كان ذلك بخلا بحسب الطبع ويعد متسخياً متكلفاً ، ومع ذلك ينبغي الاستمرار عليه حتى يصل به إلى السخاء الطبيعي حيث قد قيل : إن العادة طبيعة ثانية وهي من مبادئ الغريزة .

السبب العلمي للسخاء والبخل

اما السخاء فهو من نتائج الزهد في الدنيا اولا واليقين بالخلف من الله تعالى ثانياً فاذا كان من عشاق دار البقاء فينقل كل ما لديه في دار الفناء إلى دار مقره وموضع حبه وعشقه ، واما البخل فهو نتيجة حب الدنيا وتعظيمها والحرص عليها والاهتمام بجمعها ولم يشعر بمفارقتها بالرغم من اعتقاده بالموت لأن العشق والحب يعمي ويصم ، ولذا ورد ان المنادي يناديه عند حضور اجله بعدة نداءات ومنها « يابن آدم جمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ » .

(١) سورة محمد (ص) الآية ٤٠ . (٢) سورة الحشر الآية ٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .

العلاج العملي لدفع البخل وجذب السخاء

هو ان يستعرض دائماً وباستمرار مساوىء البخل وآثاره سواء كانت النفسية او الاجتماعية الدنيوية او الأخروية فتنفر النفس منها بدافع من نور العقل وكذلك يستعرض محاسن السخاء سواء كانت الانطباعات والارتياحات النفسية او المحامد الاجتماعية والائتلافات النوعية فترغب النفس إذاً باضاءة من العقل في ان تتحلى بجميل صفات الكرم والسخاء والانسحاب عما تلاقيه روحه من الشقاء والتعب والعناء بالاضافة إلى خسارته لدار البقاء .

الفصل الخامس
في الصبر

فان القرآن الكريم والحديث الشريف قد اكثرا من مدحه وأشادا من شأنه حتى ان الله تعالى قد وصف الصابرين بأوصاف رفيعة واعطاهم وسامات سامية وذكر الصبر في القرآن المجيد في نيف وسبعين موضعاً ، واضاف اكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها من ثمراته فقال عز من قائل : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » فاستحقوا ان يكونوا أئمة ومحل اقتداء للخلق بصبرهم وقال تعالى : « إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » فجعل تعالى اجرهم بدون عد وحساب بل حده يكون برضاهم وان يقولوا : كفى وذلك لأنهم صابرون وقال تعالى : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » ، وقال

الصادق (ع) في بيان درجة الصبر ومركزيته من الايمان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فكما إذا ذهب الرأس ذهب الجسد فكذا إذا ذهب الصبر ذهب الايمان، وفي خبر آخر الصبر من الايمان كالرأس من الجسد فكما لا خير في جسد لا رأس معه فكذا لا خير في إيمان لا صبر معه .

دفاع الصبر في وحشة القبر

قال الصادق (ع) : إذا ادخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبر مطل عليه ويتنحى الصبر ناحية فاذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال : الصبر للصلاة والزكاة والبر دونكم صاحبكم، فان عجزتم عنه فأنا دونه

وقد روي عن النبي (ص) انه قال : الصبر ثلاثة صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش، وقال الصادق (ع) : إنا صبر وشيعتنا اصبر منا، فقيل له : كيف صار شيعتكم اصبر منكم ؟ قال : لانا نصبر على ما نعلم وشيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون . وقال رسول الله (ص) : الصبر نصف الايمان ولعل معناه ان الايمان يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للايمان ركنان احدهما اليقين وهو المعارف القطعية وبها يكون التصديق ثانيهما الصبر على الأعمال بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر فيكون الصبر نصف الايمان بهذا

الاعتبار ثم إن محامد الأخلاق ومعظم مزايا الكمال وجميل الصفات كلها ترجع الى الصبر ولكن له بكل واحد من موارده اسم يخصه ويناسبه فان كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة وإن كان صبراً على احتمال مصيبة سمي صبراً ويقابله الجزع وإن كان صبراً على احتمال الغنى وعدم البطر سمي ضبط النفس ويضاده البطر وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي كتمان السر وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص وإن كان صبراً على الفقر سمي قناعة ويضاده الشره . ومن جهة دخول هذه المحاسن كلها في الصبر اجاب النبي (ص) لماسئل عن الايمان بقوله : هو الصبر وقد جمع الله تعالى ذلك كله فسماه صبراً فقال : « والصابرين في البأساء » اي المصيبة « والضراء » اي الفقر « وحين البأس » اي المحاربة « اولئك الذين صدقوا » اي في إيمانهم « واولئك هم المتقون » اي خافوا ربهم فأدوا الواجبات وتركوا المحرمات وهو الصبر على الطاعة .

التسلح بالصبر

واما الموارد التي تحتاج الى الصبر فيها فأنواع اولها واهمها ما وافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وجميع ملاذ الدنيا وما احوج العبد الى الصبر عند هذه الأمور فانه إن لم يضبط نفسه عن الركون اليها والانهماك في مباحاتها اخرجه ذلك الى البطر ثم الى الطغيان « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » والرجل كل الرجل من يصبر على العافية ثانيها الطاعة وان الصبر عليها والاستمرار على فعلها لشديد لأن النفس بطبيعتها تنفر عن العبودية بل تشتهي الربوبية ولذلك قيل : ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره

فرعون من قوله : أنا ربكم الأعلى ولكن فرعون وجد له مجالا إذ استخف قومه فأطاعوه ، وما من احد إلا وهو يدعي ذلك بفعله مع خادمه وعياله فتراه يشتد غيظه عند تقصيرهم بخدمته من جراء مايضمره من الكبر في نفسه فالعبودية شاقة على النفس وان من العبادة ما تكره وتستثقل بسبب الكسل كالصلاة ومنها بسبب البخل كالزكاة ومنها بسببهما معاً كالحج والجهاد وهذه تحتاج إلى الصبر قبل العمل وحال العمل وبعده ، اما قبله فبان يصبر نفسه في النية على الخلوص عن شوائب الرياء وحب السمعة ودواعي الآفات ويحتاج فيها إلى صبر اكيد لمقاومة رغبة النفس اليها وهذا هو الذي قصر سبحانه امره عليه وحصره فيه في قوله : « وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » واما الاحتياج إلى الصبر في حالة العمل فلئلا تجره نفسه ووسوسة الشيطان إلى التفكير في امور الدنيا والغفلة عن ذكر الله والتفكير في قدرته واستعراض عظمته فيصبرها على التأني في مقام الطاعة وعدم الاستعجال في تأدية الفريضة وان يطيل المثول بين يدي ربه وان شئت وسمحت ان تقول بين يدي محبوبه كما ندعيه ، واما الاحتياج إلى الصبر بعد الفراغ فلعدم إفشاء العمل والتظاهر به وان يصبر نفسه عن العجب بعمله . ثالثها المعاصي وما أحوج العبد إلى الصبر عنها حيث ان اكثرها قد صار معتاداً ومألوفاً كالكذب والغيبة والملهيات والمطربات وأمثالها وان العادة تعد طبيعة خامسة وإذا اضيفت اليها الشهوة تظاهر عليه جندان من جنود الشيطان وكلما كان الذنب ألذ على النفس كان الصبر عنه أثقل وأشد . رابعها ما لا يرتبط عروضه عليه باختياره كما إذا اوذي بفعل او قول او جني عليه في نفسه او ماله او ولده او اتباعه وعرضه فالصبر عليه بترك مكافاته ومقابلته . خامسها ما هو خارج عن الاختيار في اوله وفي آخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض والعمى مثلا وان الصبر على مثل هذا لمن الصعب ، ولذا قد ورد في فضله و كثرة الأجر

عليه من الأخبار حسب مواردها المختلفة مالا يحصى وعلى الأخص في فقد الأولاد فقد قال الصادق (ع) ولد واحد يقدمه الرجل افضل من سبعين ولداً يبقون بعده يدركون القائم عجل الله تعالى فرجه .

وان الأساس الرصين والركيزة الثابتة للصبر هوالعلم بأن الله عادل اولا وانه الحكيم بكل افعاله ثانياً وبها اخرجنا من العدم إلى الوجود وفعل بنا ما هو الأصلح لنا ولا شك ان الموت وفقد الولد من جملة افعاله حتى روي ان العبد ليدعو الله ان يرحمه وان يجيب دعاءه فيقول الله لملائكته : كيف أرحمه من شيء به أرحمه . كان يريد العبد من ربه ان يبقيه وان الله تعالى يريد ان يرحمه بموته وبعد هذا فان هاجت به نفسه من جراء عظم مصيبته فليطمنها بما يتعقب صبره من جزيل الأجر والثواب كما قال سبحانه : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

أجر الصابر عند فقد الولد

فقد روي عن النبي (ص) انه قال لعثمان بن مظعون وقد مات ولده واشتد عليه حزنه : يابن مظعون ان للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة أبواب أفما يسرك ان لا تأتي باباً منها إلا وجدت ابنك إلى جنبه آخذاً بحجزتك يستشفع لك إلى ربك حتى يشفعه الله تعالى .

ولنضرب مثلا لذلك لو أن رجلا فقيراً معه ولد عزيز عليه وعليه خلقان الثياب وقد أسكنه من فقره في خربة مقفرة ذات سباع وهوام وحيات وقدأجهد نفسه في حفظه اولا وفي تحصيل قوته ثانياً فأشرف عليه رجل حكيم ذو ثروة وقصور عالية فأرسل عليه بعض غلمانه رحمة له وقال له : إن سيدي يقول لك قد رحمتك وولدك من هذه الخربة وتلطفت عليك بهذا القصر مع أثاثه وخدمه لينزل

به ولدك ونوكل به جارية كريمة تقوم بتربيته إلى ان تقضي انت أغراضك وتجيء اليه وتسكن معه فاذا قال الرجل في جوابه أنا لا ارضى بذلك بل أتركه في الخربة بجوعه وخلقانه أليس نعده سفيهاً لا عقل له . والحال قد ورد ان اولاد المؤمنين يكونون بعد موتهم في حجر سارة وابراهيم (ع) .

وقد ورد عن النبي (ص) انه إذا كان يوم القيامة نودي في أطفال المسلمين ان اخرجوا من قبوركم فيخرجون ثم ينادى فيهم ان امضوا إلى الجنة زمراً فيقولون ربنا ووالدينا معنا ، ثم ينادى فيهم الثانية ان امضوا إلى الجنة زمراً فيقولون ربنا ووالدينا معنا إلى المرة الرابعة فيقول فيها ووالداكم معكم فيثوب (أي يسرع) كل طفل إلى والديه فيأخذون بأيديهم فيدخلون الجنة فهم اعرف بآبائهم وأمهاتهم يومئذ منكم بأولادكم الذين في بيوتكم . وقيل : إنه مات لداود (ع) ولد فحزن عليه حزناً شديداً فأوحى الله اليه ما كان يعدل هذا الولد عندك ؟ قال ملأ الأرض ذهباً قال تعالى : فلك عندي يوم القيامة ملء الأرض ثواباً .

وعن أبي الدرداء قال : كان لسليمان (ع) ابن يحبه حباً شديداً فمات فحزن عليه حزناً شديداً فبعث الله له ملكين على صورة بشرين قال : ما أنتما ؟ قالا : خصمان قال : اجلسا بمنزلة الخصوم فقال أحدهما : إني زرعت زرعاً فأتى هذا فأفسده فقال سليمان : ما تقول يا هذا ؟ قال : أصلحك الله انه زرع في الطريق واني مررت به فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر لي طريقاً غير الزرع فركبت قارعة الطريق فكان في ذلك فساد زرعه فقال سليمان : ما حملك على ان تزرع في الطريق أما علمت ان الطريق سبيل الناس ولابد للناس من ان يسلكوا سبيلهم فقال له احد الملكين : أوما علمت يا سليمان ان الموت سبيل الناس ولابد للناس ان يسلكوا سبيلهم قال : فكأنما كشف عن سليمان الغطاء ولم يجزع على ولد بعد ذلك

وروي ان قوماً كانوا عند علي بن الحسين (ع) فاستعجل خادم له بشوي

قد شوي في التنور فأقبل مسرعاً فسقط من يده على ابن لعلي بن الحسين (ع) فأصاب رأسه فقتله فوثب (ع) فلما رأى ابنه ميتاً قال للغلام : أنت حر أما انك لم تتعمده وأخذ في جهاز ابنه . وقال ابو علي الرازي : صحبت الفضل بن عباس ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا متبسما إلا يوم مات ابنه علي فقلت له في ذلك فقال : إن الله سبحانه احب امراً فأحببت ما احب الله عز وجل .

أجر فقد الولد عند الصبر والرضا

في كتاب دار السلام (١) بسنده عن داود بن هند قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأن الناس يدعون إلى الحساب فقربت إلى الميزان فوضعت حسناتي في كفة وسيئاتي في كفة فرجحت السيئات فبينما أنا كذلك مغموم إذ أتيت بمنديل كالخرقة البيضاء فوضعت في كفة حسناتي فرجحت فقيل لي تدري ما هذا ؟ قلت : لا فقيل لي : هذا سقط كان لك قلت : فانه قد كانت لي ابنة ماتت فقيل لي : تيك ليست لك لأنك كنت تتمنى موتها ، ورواه ايضاً الشهيد في مسكن الفؤاد .

وروي عن النبي (ص) انه قال : إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : أقبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون : نعم فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد .

في كتاب الأحياء ان بعض الصالحين كان يعرض عليه الزواج برهة من دهره فيأبى فانتبه يوماً من نومه وقال : زوجوني فزوجوه فسئل عن ذلك فقال :

(١) ج ٢ ص ٩٦ .

لعل الله ان يرزقني ولداً فيقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة ، ثم قال : رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف وبي من العطش ما كان ان يقطع قلبي وكذلك الخلائق من شدة العطش والكرب فبينما نحن كذلك وإذا الولدان يتخللون الجمع وعليهم قناديل من نور وبأيديهم أباريق من فضة واكواب من ذهب وهم يسقون الواحد بعد الواحد ويجاوزون اكثر الناس فمددت يدي إلى أحدهم فقلت : اسقني فقد أجهدني العطش فقال : ألك فينا ولد إنما نحن نسقي آباءنا فقلت: ومن أنتم ؟ قالوا : نحن من مات من اطفال المسلمين

وعن أبي شوذب ان رجلا كان له ابن لم يبلغ الحلم فأرسل إلى قومه فقال إن لي اليكم حاجة قالوا : وما هي ؟ قال : إني اريد ان ادعو على ابني هذا ان يقبضه الله عز وجل وتؤمنون على دعائي قال : فسألوه عن سبب ذلك فأخبرهم انه رأى في منامه كأن الناس قد جمعوا ليوم القيامة وأصابهم عطش وإذا الولدان قد خرجوا من الجنة ومعهم الأباريق وفيهم ابن أخ لي قال : فالتمست منه ان يسقيني فأبى وقال : يا عم إنا لا نسقي إلا الآباء فأحببت ان يجعل الله عز وجل ولدي هذا فرطاً لي فدعا وأمنوا فلم يلبث الصبي حتى مات ، رواه الشهيد في كتاب مسكن الفؤاد وفيه ايضاً قال : كان لابراهيم الحربي ابن له من العمر أحد عشر سنة وقد حفظ القرآن ولقنه ابوه من الفقه والحديث شيئاً كثيراً فمات فأتيته لأعزيه فقال لي : كنت أشتهي موته فقلت له : يا ابا اسحاق انت عالم الدنيا وتقول بمثل هذا في الصبي وقد انجب وقد حفظ القرآن ولقنته الحديث والفقه قال : نعم رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأن صبياناً بأيديهم قلال وفيها ماء يستقبلون الناس يسقونهم وكان اليوم حاراً شديد الحرفقلت لأحدهم : اسقني الماء قال : فنظر إلي وقال : لست انت بأبي قلت : فأي شيء انتم ؟ قالوا : نحن الصبيان الذين متنا في دار الدنيا وخلفنا أباءنا فنحن نستقبلهم فنسقيهم الماء قال : فلهذا

تمنيت موته .

وفي كتاب دار السلام ومسكن الفؤاد ايضاً حكى الشيخ ابو عبدالله بن النعمان في كتاب مصباح الظلام عن بعض الثقات ان رجلا اوصى بعض اصحابه ممن اراد ان يحج ان يقرأ سلامه على رسول الله (ص) ويدفن رقعة مختومة اعطاها إياه عند رأسه الشريف ففعل الرجل ذلك فلما رجع من حجه اكرمه الرجل وقال له : جزاك الله خيراً لقد بلغت الرسالة فتعجب المبلغ للرسالة من ذلك وقال : من اين علمت بتبليغها من قبل ان احدثك فأنشأ يحدثه الرجل وقال : كان لي أخ فمات وترك إبناً صغيراً فربيته وأحسنت تربيته ثم مات قبل ان يبلغ الحلم فلما كانت ذات ليلة رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت والحشر قد وقع واشتد بالناس العطش والجهد وبيد ابن اخي ماء فالتمست منه ان يسقيني فأبى وقال : إن ابي أحق به منك فعظم علي ذلك فانتبهت فزعاً فلما اصبحت تصدقت بجملة من الدنانير وسألت الله عز وجل ان يرزقني ولداً ذكراً فرزقني واتفق سفرك فكتبت معك تلك الرقعة ومضمونها التوسل بالنبي (ص) إلى الله تعالى في قبوله مني رجاء ان اجده يوم الفزع الأكبر فلم يلبث ان حم ومات وكان ذلك يوم وصولك فعلمت انك بلغت الرسالة .

وفي كتاب دار السلام ومسكن الفؤاد للشهيد ايضاً قال : حدثنا من يوثق بدينه وعقله وفهمه وأدبه قال : اتيت المدينة فنمت في بقيع الفرقد بين اربعة قبور وكان بينها قبر محفور فرأيت في منامي اربعة من الأطفال خرجوا من تلك القبور وهم يقولون شعراً :

انعم الله بالحبيبة عيناً　　وبمسراك يا اميم الينا

عجباً ما عجبت من ضغطة القبر ومغداك يا اميم الينا

فقلت : إن لهذه الأبيات شأناً فأقمت حتى طلعت الشمس فاذا بجنازة قد

اقبلت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : امرأة من اهل المدينة فقلت اسمها اميم قالوا : نعم قلت : قدمت افراطاً قالوا : اربعة اولاد فأخبرتهم بالخبر فأخذوا يتعجبون .

صبر النساء

روي ان ابا طلحة كان يحب ابنه حباً كثيراً فمرض فخافت أم سليم على أبي طلحة الجزع حين قرب موت الابن فبعثته إلى النبي (ص) فلما خرج من داره توفى الولد فسجته وغطته بثوب وعزلته في ناحية البيت ثم تقدمت إلى اهل البيت وقالت لهم : لا تخبروا أبا طلحة بشيء، وصنعت طعاماً ثم مست شيئاً من الطيب فجاء ابو طلحة من عند رسول الله (ص) فقال : ما فعل ابني ؟ فقالت له : هدأت نفسه ثم قال : هل لنا ما نأكل فقامت وقربت اليه الطعام ثم تعرضت له فوقع عليها فلما اطمأن قالت له : يا أبا طلحة أتغضب من وديعة كانت عندنا فرددناها إلى اهلها ؟ فقال : سبحان الله لا ، فقالت : إن ابنك كان عندنا وديعة فقبضه الله تعالى ، فقال أبو طلحة : أنا أحق بالصبر منك ثم قام من مكانه فاغتسل وصلى ركعتين وانطلق إلى رسول الله (ص) وأخبره بصنيعتها فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لكما في وقعتكما ثم قال (ص) : الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل صابرة بني إسرائيل ، فقيل : يا رسول الله ما كان من صبرها ؟ فقال . كان في بني إسرائيل امرأة ولها زوج ولها منه ولدان فأمرها بطعام ليدعو عليه الناس ففعلت واجتمع الناس في داره فانطلق الغلامان يلعبان فوقعا في بئر كانت في الدار فكرهت ان تنغص على زوجها الضيافة فأدخلتهما البيت وسجتهما بثوب فلما فرغوا دخل عليها زوجها فقال : أين ابناي ؟ قالت : هما في البيت ومسحت شيئاً من الطيب وتعرضت للرجل فوقع عليها ثم قال : أين ابناي ؟ فقالت : هما في البيت

فناداها ابوها فخرجا يسعيان فقالت المرأة : سبحان الله والله لقد كانا ميتين ولكن الله أحياهما بصبري .

وفي كتاب أنوار النعمانية (١) عن ابي قدامة الشامي قال : كنت أميراً على الجيش في بعض الغزوات فدخلت بعض البلدان فدعوت الناس ورغبتهم في الجهاد وذكرت فضل الشهادة وما لأهلها ثم تفرق الناس وركبت فرسي إلى منزلي وإذا أنا بامرأة من أحسن الناس تنادي يا أبا قدامة فمضيت ولم أجب فقالت : ماهكذا كان الصالحون فوقفت فجاءت فدفعت إلي رقعة مشدودة وانصرفت باكية فنظرت في الرقعة فاذا فيها مكتوب انت دعوتنا إلى الجهاد ورغبتنا في الثواب ولا قدرة لي على ذلك فقطعت أحسن ما فيَّ وهما ضفيرتاي وأنفذتها اليك لتجعلها قيد فرسك لعل الله يرى شعري قيد فرسك في سبيله فيغفر لي فلما كانت صبيحة القتال فاذا بغلام بين يدي الصفوف يقاتل حاسراً فتقدمت اليه فقلت : يا فتى غلام غر راجل ولا آمن ان تجول الخيل فتطؤك بأرجلها فارجع عن موضعك هذا فقال : أتأمرني بالرجوع وقد قال الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » وقرأ الآية إلى آخرها فحملته على هجين كان معي فقال : يا أبا قدامة اقرضني ثلاثة أسهم فقلت : هذا وقت قرض فما زال يلح علي حتى قلت بشرط إن منّ الله عليك بالشهادة اكون في شفاعتك قال : نعم فأعطيته ثلاثة أسهم فوضع سهما في قوسه ورمى به فقتل رومياً ثم رمى بالآخر فقتل رومياً وقال : السلام عليك يا أبا قدامة سلام مودع فجاءه سهم فوقع بين عينيه فوضع رأسه على قربوس سرجه فتقدمت اليه فقلت : لا تنسها فقال : نعم ولكن لي اليك حاجة إذا دخلت المدينة فأت والدتي وسلم خرجي اليها واخبرها فهي التي أعطتك شعرها لتقيد بها فرسك وسلم عليها فهي العام الأول

(١) ج ٣ ص ٢٠٩

أصيبت بوالدي وفي هذا العام بي ثم مات فحفرت له ودفنته فلما هممت بالانصراف عن قبره قذفته الأرض فألقته على ظهرها فقال اصحابه : غلام غر ولعله خرج بغير إذن أمه فقلت : إن الأرض لتقبل من هو شر من هذا فقمت وصليت ركعتين ودعوت الله تعالى فسمعت صوتاً يقول : يا أبا قدامة اترك ولي الله تعالى فما برحت حتى نزلت عليه الطيور فأكلته فلما أتيت المدينة ذهبت إلى دار والدته فلما قرعت الباب خرجت أخته إلي فلما رأتني عادت إلى امها وقالت : يا أماه هذا ابو قدامة وليس معه اخي وقد اصبنا في العام الأول بأبي وفي هذا العام بأخي فخرجت امه فقالت : أمعزياً أم مهنياً ؟ فقلت : ما معنى هذا ؟ قالت : إن كان مات فعزني وإن كان قتل فهنني فقلت : لا بل مات شهيداً فقالت له : علامة فهل رأيتها ؟ قلت : نعم لم تقبله الأرض ونزلت الطيور فأكلت لحمه وتركت عظامه فدفنتها فقالت : الحمد لله فسلمت اليها الخرج ففتحته وأخرجت منه مسحاً وغلا من حديد وقالت : انه كان إذا جنه الليل لبس هذا المسح وغل نفسه بهذا الغل وناجى مولاه ونادى في مناجاته إلهي احشرني من حواصل الطيور فاستجاب الله دعاءه رحمه الله تعالى .

ومن صبر بعض النساء أيضاً

قال ابان بن تغلب : دخلت على امرأة وقد نزل بابنها الموت فقامت اليه وغمضته وسجته ثم قالت : يا بني ما الجزع فيما لا يزول وما البكاء فيما ينزل غداً يابني تذوق ما ذاق ابوك وستذوقه من بعدك امك وان اعظم الراحة لهذا الجسد النوم والنوم أخو الموت فما عليك ان كنت نائماً على فراشك او على غيره وان غداً السؤال والجنة والنار فان كنت من اهل الجنة فما ضرك الموت وان كنت من

اهل النار فما تنفعك الحياة ولو كنت اطول الناس عمراً والله يا بني لولا ان الموت أشرف الأشياء لابن آدم لما أمات الله نبيه (ص) وأبقى عدوه إبليس .

فبالله عليك قل لي أليس ان السامع لهذه الكلمات قد يستحقر نفسه ويستضعف إيمانه بربه ويستقل وثوقه بوعده عندما يصاب بأقل مما اصيبت به هذه المؤمنة حقاً فيتذمر ويتضجر ، وعلى فرض انه قد صبر او تصبر فيرى لنفسه انها قد منت على ربها بصبرها وتسليمه أمرها ، بينما نجد هذه المرأة التقية الرضية قد انطبعت نفسها على واقع الأمور ونطقت روحها الشفافة بحقيقة ما عليه التكوينات والدهور وآمنت بربها من قعر قلبها مدركة فلسفة إيجادها وخلقتها عالمة بما يراد منها وبها فهل لنا ان نقتفي بذلك أثرها ونجتني ثمراً كثمرها .

وفي كتاب دار السلام للنوري وفي مسكن الفؤاد للشهيد الثاني ونور الأنوار للجزائري عن الأوزاعي قال : خرجت وأنا اريد الرباط حتى إذا كنت بعريش مصر إذا أنا بمظلة وفيها رجل ذهبت عيناه واسترسلت يداه ورجلاه وهو يقول : لك الحمد سيدي ومولاي اللهم إني احمدك حمداً يوافي محامد خلقك كفضلك على سائر خلقك إذ فضلتني على كثير من خلقك تفضيلا فقلت : والله لأسألنه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت : رحمك الله اني أسألك عن شيء أتخبرني به أم لا ؟ فقال : إن كان عندي منه علم أخبرتك به فقلت : رحمك الله على أي فضيلة من فضائله تشكره ؟ فقال : أوليس ترى ما قد صنع بي ؟ قلت : بلى فقال : والله إن الله تبارك وتعالى لو صب علي ناراً تحرقني وأمر الجبال فدمرتني وأمر البحار فأغرقتني وأمر الأرض فخسفت بي ما ازددت له إلا شكراً وان لي اليك حاجة فتقضيها لي ؟ قلت : نعم قل ما تشاء فقال : بنيٌّ لي كان يتعاهدني اوقات صلاتي ويطعمني عند إفطاري فقد فقدته منذ امس فانظر هل تجده لي ؟ فقلت في نفسي إن في قضاء حاجته لقربة إلى الله تعالى وخرجت

في طلبه حتى إذا صرت إلى كثبان الرمال إذا أنا بسبع قد افترس الغلام يأكله فقلت : إنا لله وإنا اليه راجعون كيف آتي هذا العبد الصالح بخبر ابنه ؟ قال : فأتيته فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت : رحمك الله ان سألتك عن شيء تخبرني به ، قال : إن كان عندي منه علم اخبرتك قال : فقلت : انت اكرم على الله تعالى واقرب منزلة او نبي الله ايوب (ع) فقال : بل ايوب اكرم على الله تعالى مني واعظم عند الله منزلة مني فقلت له : إنه ابتلاه الله تعالى فصبر حتى استوحش منه من كان يأنس به وكان غرضاً لمرار الطريق ، اعلم ان ابنك الذي امرتني به واخبرتني عنه وسألتني طلبه لك افترسه الأسد فأعظم الله اجرك فقال : الحمد لله الذي لم يجعل في قلبي حسرة من الدنيا ثم شهق شهقة وسقط على وجهه وجلست ساعة فحركته فاذا هو ميت فقلت : إنا لله وإنا اليه راجعون كيف اعمل في امره ومن يعينني على غسله وكفنه وحفر قبره ودفنه ، فبينما انا كذلك إذ انا بركب يريدون الرباط فأشرت اليهم فأقبلوا نحوي حتى وقفوا علي فقالوا : ما انت وهذا فأخبرتهم بقصتي معه فعقلوا رواحلهم واعانوني حتى غسلناه بماء البحر وكفناه بأثواب كانت معهم وتقدمت فصليت عليه مع الجماعة ودفناه في مظلته وجلست عند قبره آنسه بتلاوة القرآن إلى ان مضى من الليل ساعات فغفوت غفوة فرأيت صاحبي في احسن صورة واجمل زي في روضة خضراء عليه ثياب خضر قائماً يتلو القرآن فقلت له : ألست صاحبي ؟ قال : بلى قلت : فما الذي صيرك إلى ما ارى ؟ فقال : اعلم اني وردت مع الصابرين ولم ينالوها إلا بالصبر والشكر عند الرخاء وانتبهت . وفي مناجاة نبي اي رب اي خلقك احب اليك ؟ قال تعالى : من إذا اخذت حبيبه سالمني ، قال : فأي خلق انت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرني في الأمر فاذا قضيت له سخط قضائي .

وروي ان موسى (ع) قال : يا رب دلني على امر فيه رضاك حتى اعمله

فأوحى اليه ان رضائي في كرهك وانت لا تصبر على ما تكره ، قال : يا رب دلني عليه ، قال : فان رضائي في رضاك بقضائي .

وفي بعض الأخبار ان نبياً قالت له امته سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا فأوحى الله اليه قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم .

وعن المبرد انه خرج إلى اليمن فنزل على امرأة لها مال كثير ورقيق وولد وحال حسنة فأقام عندها فلما اراد الرحيل قال لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم كلما نزلت هذه البلاد فانزل علي ثم انه غاب اعواماً ثم نزل عليها فوجدها قد ذهب مالها ورقيقها ومات ولدها وباعت منزلها وهي مسرورة ضاحكة فقال لها : أتضحكين مع ما نزل بك ؟ فقالت : يا عبدالله كنت في حال النعمة في احزان كثيرة فعلمت انها من قلة الشكر فأنا اليوم في هذه الحالة اضحك شكراً لله تعالى على ما اعطاني من الصبر .

امرأة صابرة أخرى على حذو سابقتها

عن مسلم بن بشار قال : قدمت البحرين فأضافتني امرأة لها بنون ورقيق ومال ويسار وكنت اراها محزونة فغبت عنها مدة طويلة ثم اتيتها فلم ار ببابها انساناً فاستأذنت عليها فاذا هي ضاحكة مسرورة فقلت لها : ما شأنك ؟ قالت : انك لما غبت عنا لم نرسل شيئاً في البحر إلا غرق ولا شيئاً في البر إلا عطب وذهب الرقيق ومات البنون فقلت لها : يرحمك الله رأيتك محزونة في ذلك اليوم فقالت : نعم لما كنت فيما كنت من سعة الدنيا خشيت ان يكون الله تعالى قد عجل لي حسناتي في الدنيا فلما ذهب مالي وولدي ورقيقي رجوت ان يكون الله تعالى قد ادخر لي عنده شيئاً .

ولنعلم ان ركيزة الصبر والتحمل للمصائب وسائر انواع البلاء هو الرضا بقضاء الله تعالى والكل مما ذكرنا وما لم نذكره من الوقائع منبعث عنه وعن العلم واليقين بأن كل ما ينزله الله الحكيم في جميع افعاله به انما هو لصالحه والانسان يرضى بصالحه هذا بالنسبة الى الدنيا ، اما إذا اضفنا إلى صالحه الدنيوي عظيم اجره الأخروي فالصبر يكون الزم والحجة تكون احكم .

فعن النبي (ص) انه قال : إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة فلا يرفع لهم ديوان ولا ينصب لهم ميزان يصب عليهم الأجر صباً ، وقرأ (ص) قوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » وقال رسول الله (ص) : إذا كان يوم القيامة انبت الله لطائفة من امتي اجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف يشاءون فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً فتقول : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطاً فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً فتقول لهم الملائكة : اي امة انتم فيقولون امة محمد(ص) فيقولون : ناشدناكم الله حدثونا ما كانت اعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته كنا إذا خلونا نستحي ان نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : حق لكم هذا .

وروي ان جابر بن عبدالله الأنصاري ابتلي في آخر عمره بضعف الهرم والعجز فرآه محمد الباقر (ع) فسأله عن حاله فقال : أنا في حالة احب فيها الشيخوخة على الشباب والمرض على الصحة والموت على الحياة ، فقال الباقر (ع): اما أنا فان جعلني الله شيخاً احب الشيخوخة وان جعلني شاباً احب الشيبوبة وان امرضني احب المرض وان شفاني احب الشفاء والصحة وان اماتني احب الموت وان ابقاني احب البقاء ، فلما سمع جابر هذا الكلام منه قبل وجهه وقال : صدق

رسول الله (ص) فانه قال : ستدرك لي ولداً اسمه اسمي يبقر العلم بقراً كما يبقر الثور الأرض ، ولذا لقب ﷺ بالباقر وباقر علم الأولين والآخرين ، اي هو شاقه فتراه ﷺ حيث قد فاق بكماله الأنام كيف يوعظ جابراً ويرشده الى الترقي من درجة الصبر الى درجة الرضا لأنها الحد الأقصى لمراحل الطاعة بطيب من كلامه ولين من خطابه مخبراً له عما هو عليه دون ان ينكر ما قاله هو عليه ، ولأن جابراً رضوان الله عليه المؤدب بآداب الاسلام والمصاحب لمحمد (ص) سيد الأنام يلتفت لغرض الامام فيسارع الى تقبيل وجهه أولا ويبشره بالوسام ثانياً عن لسان رسول الله (ص) بأنه الباقر والشاق للعلم . وهكذا كانت سيرتهم (ع) مع الخلق لا يستعظمون انفسهم وهم العظماء ولايرومون الرئاسة وهم الرؤساء ولايستكبرون على احد وهم الكبراء ، وقد افهمهم من الله تعالى انهم الأولياء له والأدلاء عليه والممثلين لارادته والراضون بمشيئته والمسلمون لأمره .

خلادة تصل الى درجة الرضا

قد ذكرنا ان الله تعالى قال : يا داود اعلم خلادة بنت اوس انها قرينتك في الجنة وبعدما بشرها داود بذلك قال لها : اخبريني عن ضميرك وسريرتك مع الله ما هي ؟ قالت : إنه لم يصبني وجع قط نزل بي كائناً ما كان ولا نزل بي ضر ولا حاجة ولا جوع كائناً ما كان إلاصبرت عليه ولم أسأل كشفه عني حتى يحوله الله تعالى عني إلى العافية والسعة ولم اطلب بها بدلا وشكرت الله عليها فقال داود فبهذا بلغت ، ثم قال الصادق (ع) : هذا دين الله الذي ارتضاه للصالحين .

مؤمن آخر قد اجتاز مرحلة الرضا

قال بعضهم : قصدت عبادان في بدايتي فاذا أنا برجل مجذوم قد صرع والنمل تأكل لحمه فوضعته في حجري وأنا اردد الكلام فلما افاق قال : من هذا الفضولي الذي دخل بيني وبين ربي فوحقه لوقطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلاحباً

وروي ان يونس قال لجبرئيل : دلني على اعبد اهل الأرض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب بصره وسمعه وهو يقول : إلهي متعتني بها ما شئت وسلبتني ما شئت وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول .

وروي ان عيسى(ع) مر برجل اعمى ابرص مقعد مضروب الجنبين بالفالج قد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به كثير من خلقه فقال له عيسى : يا هذا واي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك قال : يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال له : صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد اذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى وتعبد معه . قيل: انه اشتد المرض بفتح الموصلي وأصابه مع مرضه الفقر والجهد فقال : إلهي وسيدي ابتليتني بالمرض والفقر فهذه فعالكم بالأنبياء والرسل فكيف لي ان أؤدي شكر ما انعمت به علي . ويقصد انك ساويتني مع الأنبياء بالابتلاء فهذه نعمة منك علي يجب شكرها . وقيل لرابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة ، وقيل لها يوماً : كيف شوقك إلى الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار . وقال النبي (ص) : اربع من كن فيه كان في نور الله الأعظم : من كان عصمة امره شهادة أن لا إله إلا الله واني رسول الله ومن إذا أصابته

مصيبة قال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، ومن إذا اصاب خيراً قال : الحمد لله ، ومن إذا أصاب خطيئة قال : استغفر الله وأتوب اليه .

الرضا على اقسام

فان درجات الرضا ثلاثة : الأولى ان ينظر إلى موقع البلاء ويحس بألمه ولكن يكون راضياً به وراغباً فيه ومريداً له بعقله وإن كان كارهاً له بطبعه طلباً لثواب الله عليه والفوز بالجنة وهذا رضاء المتقين ومثاله مثل من يتجرع الدواء بقصد الشفاء . الثانية ان يدرك الألم ولكنه قد أحبه لكونه مراد محبوبه فاذا غلب عليه الحب كان جميع مراده وكل هواه ما فيه رضاء محبوبه ومثاله ما يستلذه العشاق من تحمل المشاق في تنفيذ مراد محبوبهم وامتثال مقاصد معشوقهم . الثالثة ان يبطل الاحساس بالألم من أصله بحيث يصيبه ولا يدرك ألمه لانشغال القلب واستغراقه بالله تعالى بما اعطي من نور البصيرة المدركة لمعنى الربوبية وجلالها بحيث لا يقاس بها جلال ومثاله المحارب الشجاع في حال غضبه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل به على وجود الجرح كما قد روى ان امرأة عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه . وكان بعض من بلغ هذه الدرجات يعالج غيره من علة فنزلت به فلم يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال : ضرب الحبيب لا يوجع .

ومن هذا الباب ما روي كثيراً من احوال علي امير المؤمنين (ع) سواء كان في الحرب أم في غيرها حتى انه لتسل من جسده الشريف أطراف النصال وهو لا يحس بذلك حيث انه في اتصال مع محبوبه وخطاب مع معشوقه وواقف

بين يديه في صلاته فإذا فرغ منها ووجد آثار ما استخرجوه قال : ما هي إلا فعلة الحسن (ع) وكذلك ماكان يعتريه (ع) من الغشوة المعروفة التي كان يظن منها انه قد فارق الحياة وليس كذلك وإنما هي تمام الانفصال عن المخلوق وحقيقة الاتصال بالخالق .

الوعد بالأجر لمن بلغ درجة الصبر
وتحمل البلاء

واما الأخبار الواردة في الأجر للصابر أو المسلي للمصاب ليتصبر أو المعطية للصابرين الوسامات الجليلة والمراتب الرفيعة فكثيرة جداً ولنذكر شيئاً منها إضافة لما سبق تنبيهاً للمريدين وتشويقاً للراغبين فقد قال النبي (ص) : من عزى مصاباً بمصيبة فله مثل اجره من غير ان ينقص الله من اجره شيئاً .

وروي ان داود (ع) قال : إلهي ما جزاء من يعزي الحزين والمصاب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه ان اكسوه رداء من أردية الايمان أستره به من النار وأدخله به الجنة ، قال : إلهي فما جزاء من شيع الجنائز ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه ان تشيعه الملائكة يوم يموت إلى قبره وان أصلي على روحه في الأرواح . وقال موسى (ع) : إلهي ما لمن يعزي الثكلى من الأجر ؟ قال : أظله تحت ظلي يوم لا ظل إلا ظلي وكان رسول الله (ص) إذا عزى قال : آجركم الله ورحمكم ، وإذا هنأ قال : بارك الله لكم وبارك عليكم .

وفي دعوات الراوندي عن النبي (ص) انه قال : ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا أذى ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله من خطاياه وما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً او فقراً منسياً او مرضاً او

هرماً مفنداً او موتاً مجهزاً .

وعن ابي جعفر (ع) قال : إن الله ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل اهله بالهدية من الغيبة ويحميه من الدنيا كما يحمي الطبيب المريض .

ويروى ان الله تعالى قال في بعض الكتب المنزلة : يابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن اليك .

اقسام الابتلاء

(فمنها) ما هو للامتحان والاختبار لا بمعنى انه تعالى غير عالم بحال عبده وإنما هو لاظهار فضله ولبلوغ رفيع درجته بايمانه الخالص .

ففي أمالي ابن الشيخ عن النبي (ص) انه قال : قال الله تعالى : لو لا اني أستحي من عبدي المؤمن ما تركت عليه خرقة يتوارى بها ، وإذا اكملت له الايمان ابتليته بضعف في قوته وقلة في رزقه فان هو حرج (اي ضاق صدره) أعدت عليه فان صبر باهيت به ملائكتي .

وفي العلل عن الباقر (ع) ان ملكين هبطا من السماء فالتقيا في الهواء فقال احدهما لصاحبه : فيما هبطت ؟ قال : بعثني الله عز وجل إلى بحر إيل احشر سمكة إلى جبار من الجبابرة اشتهى عليه سمكة في ذلك البحر فأمرني ان احشر إلى الصياد سمك البحر حتى يأخذها له ليبلغ الله الكافر غاية مناه في كفره (ويظهر انها سمكة خاصة) فقال للآخر : فأنت فيم بعثت ؟ قال : بعثني الله عز وجل في اعجب من الذي بعثك فيه فقد بعثني إلى عبده المؤمن الصائم القائم المعروف دعاؤه وصوته في السماء لأكفي قدره التي طبخها لافطاره ليبلغ الله عز وجل في المؤمن

الغاية في اختبار إيمانه .

وفي كتاب دار السلام سئل رسول الله (ص) من أشد بلاء في الدنيا ؟ فقال (ص) : النبيون ثم الأمثل فالأمثل ويبتلي المؤمن بعده على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه ، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه .

في أمالي المفيد عن الصادق (ع) انه كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالجوع حتى يموت جوعاً وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالعطش حتى يموت عطشاً وان كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالعراء حتى يموت عرياناً وان كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالسقم والأمراض حتى تتلفه وان كان النبي من الأنبياء ليأتي قومه فيقوم فيهم يأمرهم بطاعة الله ويدعوهم إلى توحيده ومامعه مبيت ليلة فما يتركونه يفرغ من كلامه ولايستمعون اليه حتى يقتلوه وإنما يبتلي الله عباده على قدر منازلهم عنده

وفي بشارة المصطفى عن الصادق (ع) ان رجلا قال له : والله اني لأحبكم اهل البيت قال : فاتخذ للبلاء جلباباً فوالله انه لأسرع الينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادى وبنا يبدأ البلاء ثم بكم وبنا يبدأ الرخاء ثم بكم .

وعن ابي الصباح قال : قلت لأبي عبدالله (ع) : ما أصاب المؤمن من بلاء فبذنب قال : لا ولـكن ليسمع أنينه وشكواه ودعاؤه الذي يكتب له الحسنات وتحط عنه السيئات وتدخر له يوم القيامة . وفيما ناجى به موسى (ع) ربه ان قال تعالى ما خلقت خلقاً هو أحب إلي من عبدي المؤمن واني إنما ابتليته لما هو خير له وإنما انا اعلم بما يصلح عبدي فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي .

وفي كتاب دار السلام سألت فاطمة (ع) رسول الله (ص) خاتماً قال : ألا اعلمك ما هو خير من الخاتم إذا صليت صلاة الليل فاطلبي من الله خاتماً فانك

تنالين حاجتك قال : فدعت ربها فاذا بهاتف يهتف يا فاطمة الذي طلبت مني تحت المصلى فرفعت المصلى فاذا الخاتم وهو ياقوتة لا قيمة لها فجعلته في اصبعها فلما نامت من ليلتها رأت في منامها كأنها في الجنة فرأت ثلاثة قصور لم تر في الجنة مثلها فقالت : لمن هذه القصور ؟ قالوا : لفاطمة بنت محمد (ص) قال : فكأنها دخلت قصراً منها ودارت فيه فرأت سريراً قد مال على ثلاث قوائم فقالت : ما لهذا السرير قد مال على ثلاث قوائم ؟ قالوا : لأن صاحبته قد طلبت من الله خاتماً فنزعت إحدى القوائم وصيغت لها خاتماً وبقي السرير على ثلاث قوائم فلما اصبحت دخلت على رسول الله (ص) وقصت عليه القصة فقال (ص) : معاشر آل عبد المطلب ليست لكم الدنيا إنما لكم الآخرة وميعادكم الجنة ما تصنعون بالدنيا فانها زائلة غرارة فأمرها النبي (ص) ان ترد الخاتم تحت المصلى فردته ثم نامت فرأت في المنام انها دخلت الجنة ودخلت ذلك القصر ورأت السرير معتدلا على اربع قوائم فسألت عن حاله فقالوا : إن صاحبته قد ردت الخاتم ورجع السرير على هيئته .

وفي الكافي عن الصادق (ع) ان الله عز وجل عباداً في الأرض من خالص عباده ما ينزل من السماء تحفة الى الأرض إلا صرفها عنهم الى غيرهم ولا بلية إلا صرفها اليهم .

وفيه عنه (ع) وكان عنده سدير قال : إن الله إذا احب عبداً غته بالبلاء غتاً (١) وأنا وإياكم يا سدير لنصبح به ونمسي .

وعن النبي (ص) ان عظيم البلاء يكافى به عظيم الجزاء .

وعنه (ص) ان المؤمن بمنزلة كفة الميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه

وعنه (ص) ان في الجنة منزلة لا يبلغها عبد إلا بالابتلاء .

---

(١) أي غمسه فيه

(ومن الابتلاء) ما هو لتمحيص الذنوب وزيادة الأجر فعن النبي (ص) انه قال : حمى يوم كفارة سنة .

وعنه (ص) المريض اربع خصال : يرفع عنه القلم ويأمر الله الملك فيكتب له كل فعل كان يعمله في صحته وينفع كل عضو في جسده فيستخرج ذنوبه منه فان مات مات مغفوراً له وان عاش عاش مغفوراً له .

وعنه (ص) يقول الله عز وجل : أيما عبد من عبادي مؤمن ابتليته ببلاء على فراشه فلم يشك الى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه فان قبضته فالى رحمتي وان عافيته عافيته وليس له ذنب فقيل : يا رسول الله ما لحم خير من لحمه وما دم خير من دمه ، قال (ص) : لحم لم يذنب ودم لم يذنب .

وعنه (ص) انه عاد أبا ذر في وعكة فقال له : اصبحت في روضة من رياض الجنة قد انغمست في ماء الحيوان وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك .

وعن عبدالله بن ابي يعفور قال : شكوت الى الصادق (ع) ما ألقى من الأوجاع وكان سقاماً فقال لي : ياعبدالله لويعلم المؤمن ماله من الجزاء في المصائب لتمنى انه قرض بالمقاريض .

وعنه (ع) ان اهل الحق لم يزالوا منذ كانوا في شدة أما ان ذلك الى مدة قليلة وعافية طويلة .

وعنه (ع) في كتاب علي (ع) البلاء اسرع الى المؤمن التقي من المطر الى قرار الأرض . ايضاً ما من عبد مسلم ابتلاه الله بمكروه وصبر إلا كتب الله له أجر الف شهيد .

وعن النبي (ص) عجبت للمؤمن وجزعه من السقم ولو علم ما له في السقم لأحب ان لا يزال سقيما حتى يلقى ربه عز وجل .

وعنه (ص) لو ان مؤمناً كان في قلة جبل لبعث الله اليه من يؤذيه ليأجره

على ذلك . وعنه (ص) ليودن اهل العافية يوم القيامة ان جلودهم قرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب اهل البلاء .

وعن امير المؤمنين (ع) انه قال لعبدالله بن يحيي : الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنتهم الى ان قال ان الله يطهر شيعتنا من ذنوبهم في الدنيا بما يبتليهم به من المحن .

وعن ابي عبدالله (ع) ان العبد إذا كثرت ذنوبه ولم يكن عنده مايكفر به ابتلاه الله بالحزن ليكفر عنه ذنوبه فان فعل به وإلا فعذبه في قبره ليلقاه عز وجل وليس شيء يشهد عليه بشيء من ذنوبه .

وعنه (ع) ان العبد المؤمن ليهم في الدنيا حتى يخرج منها وليس عليه ذنب وقال النبي (ص) : ساعات الوجع يذهبن ساعات الخطايا ، وقال (ص) : ساعات الهموم ساعات الكفارات ولا يزال الهم بالمؤمن حتى يدعه وما له من ذنب .

وعن ابي جعفر (ع) قال : قال الله تعالى : وعزتي لا أخرج عبداً من الدنيا أريد رحمته إلا استوفيت كل سيئة هي له إما بالضيق في رزقه او ببلاء في جسده ، وإما خوف أدخله عليه فان بقي شيء شددت عليه الموت .

وفي كتاب المؤمن كان لموسى بن عمران (ع) أخ في الله وكان موسى يكرمه ويعظمه فأتاه رجل فقال : أحب ان تكلم لي هذا الجبار ملكا من ملوك بني إسرائيل فقال : والله ما أعرفه ولا سألته حاجة قط قال : وما عليك من هذا لعل الله يقضي حاجتي على يدك فرق له وذهب معه من غير علم موسى (ع) فأتاه ودخل عليه فلما رآه الجبار أدناه وعظمه وسأله حاجة الرجل فقضاها له فلم يلبث الجبار ان طعن فمات فحشد في جنازته أهل مملكته وغلقت لموته ابواب الأسواق لحضور جنازته وقضي من القضاء ان الشاب المؤمن أخا موسى (ع) مات ايضاً يوم مات ذلك الجبار وكان أخو موسى إذا دخل منزله اغلق عليه بابه فلا يصل

اليه احد وكان موسى إذا أراده فتح الباب ودخل عليه وان موسى نسيه ثلاثاً فلما كان اليوم الرابع ذكره فقال : تركت اخي منذ ثلاثة فلم آته ففتح عليه الباب ودخل وإذا الرجل ميت والدواب قد دبت عليه فتناولت من محاسن وجهه فلما رآه موسى كذلك قال : يا رب عدوك حشدت له الناس ووليك امته فسلطت عليه دواب الأرض فتناولت من محاسن وجهه فقال عزوجل : إن وليي سأل هذا الجبار حاجته فقضاها له لحشدت اهل مملكته للصلاة عليه لأكافئه عن المؤمن بقضاء حاجته ليخرج من الدنيا وليس له عندي حسنة أكافئه عليها وان هذا المؤمن سلطت عليه دواب الأرض لتتناول من محاسن وجهه لسؤاله ذلك الجبار وكان لي غير رضاً ليخرج من الدنيا وليس له ذنب عندي .

ونظيره عن ابي جعفر (ع) مر نبي من انبياء بني إسرائيل برجل بعضه تحت حائط وبعضه خارج عنه فما كان خارجاً عنه قد نقبته الطير ومزقته الكلاب ثم مضى ورفعت له مدينة فدخلها فاذا هو بعظيم من عظمائها ميت وهو على سرير مسجى بالديباج وحوله المجامر (أي البخور) فقال : يارب انك حكم عدل عبدك لم يشرك بك طرفة عين أمته بتلك الميتة وهذا عبدك لم يؤمن بك طرفة عين أمته بهذه الميتة فقال عز وجل : عبدي كما قلت أنا حكم عدل لا اجور ذاك عبدي كانت له عندي سيئة وذنب فأمته بتلك الميتة لكي يلقاني ولم يبق عليه شيء ، وهذا عبدي كانت له عندي حسنة فأمته بهذه الميتة لكي يلقاني وليس له عندي شيء

وعن الباقر (ع) خرج موسى (ع) فمر برجل من بني إسرائيل فذهب به حتى خرج إلى الظهر فقال (ع) له : اجلس حتى أجيئك وخط عليه خطة ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : إني استودعتك صاحبي وانت خير مستودع ثم مضى فناجاه الله تعالى بما احب ان يناجيه ثم انصرف نحو صاحبه فاذا أسد قد وثب عليه فشق بطنه وفرث لحمه وشرب دمه ، فرفع موسى رأسه فقال : يا رب

استودعتك وانت خير مستودع فسلطت عليه شر كلابك فشق بطنه وفرث لحمه وشرب دمه فقيل : يا موسى إن صاحبك كانت له منزلة في الجنة لم يكن يبلغها إلا بما صنعت به انظر وكشف له الغطاء فنظر موسى (ع) وإذا منزل شريف فقال رب رضيت .

وعنه (ع) ان الله تعالى يقول : يا دنيا مري على عبدي المؤمن بأنواع البلايا وما هو فيه من امر دنياه وضيق عليه في معيشته ولا تحلي له فيسكن اليك ومعناه انه يميل اليك ويحبك ويشتغل عن آخرته وعني وإذا كانت كذلك يبغضها وينصرف عنها .

وعنه ان الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الغائب بالطرق وانه ليحميه الدنيـا كما يحمي الطبيب المريض يخص اولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب .

من عبر الدنيا

روي ان عيسى (ع) مر ذات يوم مع جماعة من اصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك قالوا : يا نبي الله إنا جياع فأوحى الله تعالى اليه ان اذن لهم في قوتهم فأذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع وهو يقول : زرعي وأرضي ورثتها من آبائي فباذن من تأكلون ؟ قال : فدعا عيسى (ع) ربه فبعث الله جميع من ملك تلك الأرض من لدن آدم إلى ساعته فاذا عند كل سنبلة ما شاء الله رجل او امرأة ينادون زرعي وأرضي ورثته عن آبائي ففزع الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى وهو لا يعرفه فلما عرفه قال : معذرة اليك يا رسول الله اني لم اعرفك زرعي ومالي

وحلالي لك فبكى عيسى وقال : ويحك هؤلاء كلهم قد ورثوا هـــذه الأرض وعمروها ثم ارتحلوا عنها وانت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك ارض ولا مال فهو لايقصد انه لا يملكها شرعاً وإنما قصده (ع) إيضاح حقيقة الدنيا لصاحب الزرع وانه مفارقها مهما بالغ في تعميرها والحرص عليها فليس له منها إلا قوته وما يقدمه لدار بقائه .

وفي رواية اخرى ان رجلين تنازعا في ارض فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الدار فقالت : إني كنت ملكا من ملوك الأرض ملكت الدنيا الف سنة فلما صرت تراباً اخذني خزاف فصيرني خزفاً فبقيت الف سنة ثم اخذني لبان فصيرني لبنة وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا سنة فلمَ تتنازعا في هذه الدار

اعجوبة اخرى عن الدنيا

فقد روي انه سئل الخضر عن اعجب شيء رآه فقال : اعجب شيء رأيته اني مررت على مدينة ولم أر على وجه الأرض احسن منها فسألت بعضهم متى بنيت هذه المدينة ؟ فقالوا : سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا متى بنيت وما زالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها نحواً من خمسمائة عام وعبرت عليها بعد ذلك فاذا هي خاوية على عروشها ولم أر احداً اسأله وإذا رعاة غنم فسألتهم عنها فقالوا : لا نعلم فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منها اللؤلؤ فقلت لبعض الغواصين : منذ كم هذا البحر ههنا ؟ فقالوا : سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا إلا ان هذا البحر ههنا وهو من عهد الطوفان ثم غبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا ذلك البحر قدغاض ماؤه وإذا مكانه اجمة ملتفة بالقصب والبردي

والسباع وإذا صيادون يصيدون السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم : اين البحر الذي كان ههنا ؟ فقالوا : سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا انه كان ههنا بحر قط فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم اتيت إلى ذلك الموضع فاذا هو مدينة على حالتها الأولى والحصون والقصور والأسواق قائمة فقلت لبعضهم : اين الأجمة التي كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة ؟ فقالوا : سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا إلا ان هذه المدينة على حالها منذ عهد الطوفان فغبت عنها نحواً من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا عاليها سافلها وحتى انها تدخن بدخان شديد فلم أر احداً اسأله عنها ثم رأيت راعياً فسألته اين المدينة التي كانت ههنا ومتى حدث هذا الدخان ؟ فقال : سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا إلا ان هذا الموضع هكذا منذ كان قال : فهذا اعجب شيء في سياحتي في الدنيا . فسبحان مبيد العباد ومرجعهم في المعاد .

الموعظة تؤثر عند أهلها

قيل : إن السبب في نزول معاوية بن يزيد عن الخلافة انه سمع جاريتين يتلاحيان وكانت إحداهما بارعة في الجمال فقالت لها الأخرى : لقد اكسبك جمالك كبر الملوك فقالت الحسناء : واي ملك يضاهي ملك الحسن وهو قاض على الملوك بل هو الملك حقاً فقالت لها : اي خير في الملك وصاحبه إما قائم بحقوقه وعامل بالشكر فيه فذاك مسلوب اللذة والقرار منغص العيش وإما منقاد لشهواته ومؤثر للذاته ومضيع للحقوق ومنصرف عن الشكر فمصيره إلى النار فوقعت الكلمة من نفس معاوية موقعاً مؤثراً وحملته على الانخلاع عن الخلافة فقال له أهله : أعهدت الى احد يقوم بها مكانك ؟ فقال : كيف أتجرع مرارة فقدها وأتحمل تبعة

عهدها ولو كنت مؤثراً بها احداً لآثرت بها نفسي ثم انصرف وأغلق بابه ولم يأذن لأحد فلبث بعد ذلك خمساً وعشرين ليلة ثم قبض وقد قالت له امه عندما سمعت منه ذلك ليتك كنت حيضة فقال : ليتني كنت حيضة كما تقولين ولا اعلم ان للناس جنة ولا ناراً ولا للنار اناساً . ولو اخذ الناس بالعبر لانتظم الدين والدنيا معاً ولو تناهوا عن المنكرات وتباعدوا عن المغررات لأحرزوا خلودهم في لذائذ الجنات .

وقال ابن المبارك : قلت لمجوسي : ألا تؤمن ؟ قال : لا قلت : لِمَ ؟ قال : لأن في المؤمنين اربع خصال لا احبها يقولون فيها بالقول ولا يأتون بالعمل قلت وما هي ؟ قال : يقولون جميعاً : إن فقراء امة محمد (ص) يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام وما ارى احداً منهم يطلب الفقر بل يفرون منه ويقولون : إن المريض يكفر عنه الخطايا وما ارى احداً منهم يطلب المرض ولكن يشكو منه ويفر ويزعمون ان الله رازق العباد ولا يستريحون بالليل ولا بالنهار من طلب الرزق ويزعمون ان الموت حق وعدل وإذا مات واحد منهم يبلغ صياحهم إلى السماء . والخاتمة لهذا القسم من الابتلاء اعني ما هو لتمحيص الذنوب ما روي عن ابن عباس انه قال : لما علم الله سبحانه وتعالى ان صالح اعمال عباده لا يفني ذنوبهم خلق لهم الأمراض ليكفر عنهم السيئات .

(ومن الابتلاء) ما هو للانتقام ومنه الاستدراج ايضاً فمن ابي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » قال : القارعة هي النقمة تصيبهم او تحل قريباً من دارهم فتحل بقوم غيرهم فيرونه ويسمعون به وان الذين حلت بهم كفار مثلهم ولا يتعظ بعضهم ببعض ولا يزالون كذلك حتى يأتي وعد الله .

وعن الصادق (ع) الصاعقة لا تصيب المؤمن فقال له رجل : فانا قد رأينا

فلاناً يصلي في المسجد الحرام فأصابته فقال (ع): إنه كان يرمي حمام الحرم .

وعنه (ع) إذا اراد الله بعبد خيراً فأذنب ذنباً تبعه بنقمه ويذكره الاستغفار . قال الله تعالى : «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (١) وقال تعالى : « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعف عن كثير » (٢) ومعناه ان الله لا يغير ما بقوم من النعمة والحالة الجميلة حتى يغيروا ما بأنفسهم من الطاعة فيعصون ربهم ويظلم بعضهم بعضاً . قال ابن عباس : إذا انعم الله على قوم فشكروها زادهم وإذا كفروها سلبهم إياها وإلى هـــذا المعنى أشار امير المؤمنين (ع) بقوله : إذا اقبلت عليكم اطراف النعم فلا تنفروا اقصاها بقلة الشكر . وقد قال تعالى صريحاً : « ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وكذلك معنى قوله تعالى : « وما اصابكم ... الخ » أي يا معاشر الخلق اعلموا ان ما اصابكم من مصيبة من بلوى في نفس او في مال فبما كسبت ايديكم من المعاصي ويعف عن كثير منها فلا يعاقب بها « وقيل انها خاصة في الحدود وقيل انها عامة » .

وروي عن علي (ع) انه قال : قال رسول (ص) : خير آية في كتاب الله هذه الآية يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب وما عفا الله عنه في الدنيا فهو اكرم من ان يعود فيه وما عاقب عليه في الدنيا فهو اعدل من ان يثني على عبده . ويقصد (ص) ان عقوبات الدنيا مهما بلغت فهي لا شيء بالنسبة إلى اقل عقاب من عقوبات الآخرة ، فاذا كانت الآية تتضمن ان مصائب الدنيا للعصاة هي انتقام منهم لمعاصيهم فيتخلصوا به من الأشد بمقتضى تعليل الرسول (ص) فتكون الآية خير آية .

وذكر عن ابي عبدالله (ع) انه قال : كان ابي يقول : إن الله قضى قضاء

(١) سورة الرعد الآية ١١ . (٢) سورة الشورى الآية ٢٩ .

حتماً لا ينعم على عبد بنعمة فيسلبها إياه قبل ان يحدث العبد ما يستوجب بذلك الذنب سلب تلك النعمة وذلك قول الله تعالى : « لا يغير ... الخ » .

وفي دعوات الراوندي سئل زين العابدين (ع) عن الطاعون أنبرأ ممن يلحقه فانه معذب ؟ قال (ع) : إن كان عاصياً فابرأ منه طعن او لم يطعن وان كان لله مطيعاً فان الطاعون مما يمحص ذنوبه ان الله عز وجل عذب به قوماً ويرحم به آخرين واسعة قدرته لما يشاء ألا يرون انه جعل الشمس ضياء لعباده ومنضجاً لثمارهم ومبلغاً لأقواتهم وقد يعذب بها قوماً يبتليهم بحرها يوم القيامة بذنوبهم وفي الدنيا بسوء اعمالهم . وان الابتلاء قد يخص الفرد لانفراده بسيئته وقد تعمه وغيره لاشتراكهم معه ولو بالرضاء القلبي له وعدم نهيهم له مع قدرتهم وعدم هجرهم له

في كتاب العلل عن ابي الصلت الهروي عن الرضا (ع) قال : قلت له : لأي علة اغرق الله عز وجل الدنيا كلها في زمن نوح وفيهم الأطفال وفيهم من لا ذنب له ؟ فقال (ع) : ما كان فيهم الأطفال لأن الله اعقم اصلاب قوم نوح وارحام نسائهم اربعين عاماً فانقطع نسلهم فغرقوا ولاطفل فيهم وما كان الله ليهلك بعذابه من لا ذنب له ، واما الباقون من قوم نوح فأغرقوا لتكذيبهم نبي الله نوح وسايرهم اغرقوا برضاهم بتكذيب المكذبين ، ومن غاب عن امر فرضي به كان كمن شهده وأتاه .

وعن الصادق (ع) وإذا رأى المنكر فلم ينكره وهو يقوى عليه فقد احب ان يعصى الله ومن احب أن يعصى الله فقد بارز الله بالعداوة ومن احب بقاء الظالم فقد احب ان يعصى الله .

وفي الكافي عن رسول الله (ص) ان الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له فقيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له ؟ قال (ص) : الذي لا ينهى عن المنكر .

وعن الرضا (ع) سموا الحواريون لأنهم كانوا مخلصين في انفسهم ومخلصين لغيرهم من اوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر .

وفي كتاب البراعة (١) من بعض خطبة لأمير المؤمنين (ع) وانهوا غيركم عن المنكر وتناهوا عنه فانما امرتم بالنهي بعد التناهي .

وفي الوسائل عن الكليني باسناده عن طلحة بن زيد عن ابي عبدالله (ع) في قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء » قال ﷺ : كانوا على ثلاثة اصناف : صنف إئتمروا وامروا فنجوا وصنف إئتمروا ولم يأمروا فمسخوا وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا . وقال (ع) في وصيته لولده محمد بن الحنفية : يا بني اقبل من الحكماء مواعظم وتدبر احكامهم وكن آخذ الناس بما تؤمر به واكف الناس عما تنهى عنه وامر بالمعروف تكن من اهله فان استتمام الأمور عند الله تبارك وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي الخصال بسنده إلى ابي عبدالله (ع) قال : إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال : عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه عادل فيما يأمر به عادل فيما ينهى عنه رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه .

وفي المجالس باسناده إلى المفضل بن عمر قال : قلت لأبي عبدالله (ع) : بم يعرف الناجي ؟ فقال : من كان فعله لقوله موافقاً فهو ناج ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً فانما ذلك مستودع .

وعن الارشاد قال : قال رسول الله (ص) : رأيت ليلة أسري بي إلى السماء قوماً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ثم يرمى فقلت : يا جبرئيل من هؤلاء ؟ فقال : خطباء امتك يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون . قال ابو الأسود الدؤلي شعراً في ذلك :

(١) ج ٢ ص ٢٤٠ .

وإذا جريت مع السفيه كما جرى — فكلاكما في جريه مذموم
وإذا عتبت على السفيه ولمته — في مثل ما تأتي فأنت ظلوم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله — عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها — فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما وعظت ويقتدى — بالعلم منك وينفع التعليم

ويأتينا على رأس ذلك كله القرآن بآيه المبين قال الله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... الخ » (١) .

المعنى (أمة) أي جماعة لكي يعضد الواحد الآخر ولا يستضعف ولنشر الدعوة واسعاً لو كانت من المتعددين (إلى الخير) أي الدين (بالمعروف) أي بالطاعة (المنكر) المعصية (المفلحون) أي الفائزون في الدنيا بنظم امورهم وفي الآخرة بطاعة ربهم ، وقيل : إن المعروف كل ما امر الله به ورسوله وما نهى عنه ورسوله فهومنكر ، وقيل : المعروف مايعرف حسنه عقلا وشرعاً والمنكر ماينكره العقل والشرع .

ويروى عن ابي عبدالله (ع) « ولتكن منكم أئمة » وكنتم خير أئمة اخرجت للناس وعلى كل فان في هذه الآية دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعظم موقعها وركيزتها من الدين ، لأنه تعالى قد علق الفلاح عليها وبها وقد ذهب اكثر علماء الكلام على انها فرض كفائي ومنهم من قال بوجوبها العيني بمعنى انه حتى لو قام بها من الناس من به الكفاية لذلك لايسقط الوجوب عن الباقين كوجوب الصلاة واختاره الشيخ ابوجعفر (رض) وقال الجبائي

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

يجب عقلا والسمع يؤكده ومما ورد فيه ما رواه الحسن عن النبي (ص) انه قال : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه .

وعن درة ابنة ابي لهب قالت : جاء رجل إلى النبي (ص) وهو على المنبر فقال : يا رسول الله من خير الناس ؟ قال : أمرهم بالمعروف وانهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم . وقال ابو الدرداء لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر او ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغيثون فلا تغاثون وتستغفرون فلا تغفرون . وقال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن يكون فيهم جيفة حمار احب اليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وقال النبي (ص) : كيف بكم إذا فسد نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر فقيل له : أو يكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم فقال : كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ فقيل : يا رسول الله أو يكون ذلك ؟ فقال : نعم وشر من ذلك كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً .

فمن مجموع ماذكرنا فهمنا مقدار سببية التسامح عن النهي عن المنكر لنزول البلاء من السماء وتعميمه لمرتكب المعاصي وغيره وهذا مما يوقفنا على مدى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صالح المجتمع والنفع العام وتأثيره على النظام حسناً باستعماله وقبحاً بتركه فترى الشارع المقدس حيث هو الخبير بالداء والدواء يؤكد عليه هذا التأكيد ويوعد على تركه بهذا الوعيد ثم يعود مرة ثانية في الترغيب عليه والوعد بالخير لفاعله وإيضاح عميم فوائده فيقول :

نتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فقد ورد ان بالمعروف تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحل المكاسب وتمنع المظالم وتعمر الأرض وينتصر للمظلوم من الظالم ولا يزال الناس بخير ما امروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر فاذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء ، نعم كما ذكرنا سابقاً يجب على الآمر والناهي معرفة مواقعها بعد ان يأتمر هو بنفسه وينتهي ويستكمل نفسه بالأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة وينزهها عن الأخلاق الذميمة فان ذلك منه يكون سبباً تاماً لفعل الناس للمعروف وانتهائهم عن المنكر خصوصاً إذا اكمل ذلك بالمواعظ المرغبة والمرهبة فلكل داء دواء وطب النفوس والعقول وعلاجها اشد من طب الأبدان وعلاجها ، اما الخشية من الناس فهي تسويل من الشيطان والنفس لأن الاعتصام بالله تعالى يكون حاجزاً عن شرهم ودافعاً عن مكرهم قال تعالى : « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » وقال ابو عبدالله (ع) : أوحى الله إلى داود (ع) ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السموات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن ، وكذلك التوكل عليه سبحانه لأنه الرؤف بعباده الرحيم بخلقه فكيف إذا انقطعوا اليه وتوكلوا عليه وهو القائل : ومن يتوكل على الله فهو حسبه . وقال ابو عبدالله (ع) : إن الغنى والعز يجولان فاذا ظفرا بموضع من التوكل اوطنا .

تكملة لاستقامة النظام

فعلى أثر امره تعالى بالتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نهى عن التفرق فقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا » في الدين وهم اليهود والنصارى فكأنه قال : يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كاليهود والنصارى « واختلفوا » بالعداوة والديانة « من بعدما جاءتهم البينات » وهي الحجج والكتب وبينت لهم رسلهم الطرق « واولئك لهم عذاب عظيم » عقوبة لهم على تفرقهم واختلافهم بعد مجيء الآيات والبينات وان الآية من الأدلة القاطعة على تحريم الاختلاف في الدين وان ذلك مذموم وقبيح منهي عنه في الشرع المقدس فكيف بنا وقد سبقنا اليهود والنصارى بكثرة الاختلاف ، لأن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنين وسبعين فرقة ونحن قد تجاوزناهم بفرقة واختلفنا على ثلاث وسبعين فرقة كما هو مفاد الأخبار وسبقناهم ايضاً بشدة العداوة فانهم وان اختلفوا تراهم يتفقون في قبال غيرهم ، اما نحن فلربما نقدم الخارج عن دين الاسلام من اصله على المخالف لنا في بعض معتقداته من ابناء ديننا ومن جامعنا في قرآننا ونبينا وقبلتنا أفهل ترى عداء ً بأشد من هـذا وقد اوصانا الرسول الأكرم بالجماعة والالفة والتمسك بالثقلين بما تصافقت عليه أقلام علماء المسلمين وانه (ص) قال : إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

ـ ـ

عاقبة الاختلاف عند الله تعالى

يختم سبحانه الآية ببيان العاقبة وان من حاد عن الطريق المستقيم وفرق المسلمين وخالف وصايا سيد المرسلين لا تذهب اعماله سدى بل إنا له بالمرصاد في يوم المعاد فقال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » فبياض الوجوه واستنارتها ثواباً لهم على الطاعة والثبات على ما اوصاهم به نبيهم (ص) وسوادها وظلامها عقاباً لهم على التبديل والارتداد ثم فصل سبحانه مبيناً لهم السبب في بياض وجوه بعضهم وسواد وجوه الآخرين فقال: « فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم » أي فيقال لهم اكفرتم « بعد إيمانكم » وهم الذين كفروا بعد إظهار الايمان بالنفاق على قول او انهم جميع الكفار لا خصوص المنافقين على قول آخر لاعراضهم عن الاقرار الذي أخذ عليهم وآمنوا به في عالم الذر وقبل الايجاد او انهم اهل الكتاب قد كفروا بالنبي (ص) بعد إيمانهم بأوصافه في كتبهم قبل مبعثه في قول آخر او انهم هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة وقد كفروا بارتدادهم وميولهم عن عهودهم لنبيهم (ص) إلى شهواتهم وحقدهم وحسدهم ويؤيده ما روي عن النبي (ص) انه قال : والذي نفسي بيده ليردن علي الحوض ممن صحبني أقوام حتى إذا رأيتهم اختلجوا دوني فلأقولن أصحابي أصحابي فيقال انك لا تدري ما أحدثوا بعدك انهم ارتدوا على أعقابهم القهقرى ذكره الثعلبي في تفسيره ثم بعد بيان السبب يعطيهم استحقاقهم فيقول جل اسمه : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ومعناه انظروا ما صارت اليه عاقبتكم من عذاب الله ثم أتى على القسم الثاني فقال : « واما الذين ابيضت وجوههم » وهم المؤمنون الثابتون على ما أخذ عليهم نبيهم من العهد وألزمهم بالصمود عليه كقوله

ﷺ لعمار بن ياسر : يا عمار لو سلك الناس كلهم وادياً وسلك علي (ع) وادياً وحده فخذ وادي علي (ع) فانه لا يخرجك من هدى ولا يدخلك في ضلالة مبيناً ﷺ السبب في هذا الالزام دافعاً لشبهة الاثرة وحاشاه من ذلك وان الغرض من ملازمة علي (ع) هو الوصول إلى الحق وإحراز رضا الرب جل شأنه « ففي رحمة الله » أي ثوابه والجنة « هم خالدون » ولايخفى ما في إعادة «في» من إفادتها تمكين المعنى في النفس ، وقيل إنما أعادها لأن الأولى أفادت دخولهم في الرحمة والثانية أفادت خلودهم فيها ، وقال بعض المفسرين : المراد بابيضاض الوجوه إشراقها واسفارها بالسرور ونيل البغية والظفر بالمنية والاستبشار بما يراه من الثواب حيث انه قد كان في الدنيا مظلوماً ومهاناً ومحقراً ، كما ان المراد من اسودادها ظهور أثر الحزن والكآبة عليها لما رأوا مصيرهم من أليم العقاب وقد انقضت عنهم أيام الجور والغرور وكأنها لم تكن وهذا نظير قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » وقوله تعالى : « وجوه يومئذ باسرة ووجوه يومئذ عليها غبرة »

الاستدراج أشد أقسام الابتلاء عقوبة

قال الله تعالى : « ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (١) ، وقال تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم ان كيدي متين » (٢) ، الاستدراج هو إنزال المحبوب على العبد عقوبة له على معصيته وهو تماديه في الجهل والغرور يحسب ان الله يريد به خيراً فيستمر على ذنبه فيجدد عليه النعمة ويستوسق له الأمور فيجدد هو ايضاً الذنب إلى أن يرد على الله تعالى وقد

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ . (٢) سورة الأعراف الآية ١٨٢ و ١٨٣

أحاطت به خطاياه وما له في الآخرة من خلاق .

وفي الكافي عن الصادق (ع) إذا أراد الله بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها وهو قوله : سنستدرجهم من حيث لايعلمون بالنعم عند المعاصي .

وفيه عنه (ع) انه سئل عن الاستدراج فقال (ع) : هو العبد يذنب الذنب فيملي له ويجدد له عنده النعم فيلهيه عن الاستغفار من الذنوب فهومستدرج من حيث لا يعلم .

وفي النهج قال (ع) : كم من مستدرج بالاحسان اليه ومغرور بالستر عليه ومفتون بحسن القول فيه وما ابتلى الله سبحانه أحداً بمثل الاملاء . وقال ﷺ : إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وانت تعصيه فاحذره .

وفي الكافي عن الصادق (ع) كان في مناجاة الله لموسى (ع) يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته فما فتح الله على أحد هذه الدنيا إلا بذنب ينسيه ذلك الذنب فلا يتوب فيكون إقبال الدنيا عليه عقوبة لفعله الردي .

وفي الخصال عنه (ع) ان الله أهبط ملكا إلى الأرض فلبث فيها دهراً طويلا ثم عرج إلى السماء فقيل له : ما رأيت ؟ قال : رأيت عجائب كثيرة وأعجب ما رأيت اني رأيت عبداً متقلباً في نعمتك يأكل رزقك ويدعي الربوبية فعجبت من جرأته عليك ومن حلمك عنه ، فقال عز وجل : فمن حلمي عجبت ؟ قال : نعم قال : قد أمهلته اربعمائة سنة لايضرب عليه عرق ولا يريد من الدنيا شيئاً إلا ناله ولا يتغير عليه فيها مطعم ولا مشرب .

وفي كتاب التمحيص عن ابي جعفر ﷺ ما من عبد أريد ان أدخله النار إلا صححت له جسمه فان كان ذلك تمام طلبه عندي وإلا وسعت عليه رزقه فان

كان ذلك تمام طلبه عندي وإلا يسرت عليه الموت حتى يأتيني ولاحسنة له عندي ثم أدخله النار .

نادرة في الاستدراج بالنعم

في الكافي دعي النبي (ص) إلى طعام فلما دخل منزل الرجل نظر (ص) إلى دجاجة فوق حائط قد باضت فوقعت البيضة على وتد في الحائط فثبتت عليه ولم تسقط ولم تنكسر فتعجب النبي (ص) منها فقال له الرجل : عجبت من هذه البيضة فوالذي بعثك بالحق ما رزئت شيئاً قط ، فنهض النبي (ص) ولم يأكل من طعامه شيئاً ، وقال (ص) : من لم يرزأ فما لله فيه من حاجة ، أي من يكون هكذا فليس من رجال الله الخلص الذين أعدهم لهداية خلقه وعبادته ومعرفته وجعلهم نموذجاً في الصبر على أنواع البلاء لعباده فظهر من مجموع ما تقدم ان كثرة ما يرد على الانسان من خيرات الدنيا هو من قسم الاستدراج ليشغل بها عن تدارك أمره قبل الموت فاما ان تنسيه النعم بتاتاً وحتى يستخف بمن ينبهه على ذلك ، واما ان تشغله ولاتدع له فراغاً للتخلص فتراه يسوف تصفية نفسه يوماً فيوماً حتى ينقض عليه ملك الموت فيختطف روحه دون مدافع ولا ممانع ويكون مثال ماقاله هشام ترك لكم هشام كلما جمع وتركتم عليه كلما حمل .

الامتحان والاختبار من الابتلاء

قال الله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (١) ، وقال تعالى : « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٦ .

ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » (١) ، وقال تعالى : « وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » (٢) وقال تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لنبلوهم ايهم احسن عملا » (٣) .

هذا كله في الامتحان والاختبار وكما ذكرنا مراراً لا لأن الله عز وجل غير عالم بنفسية الممتحن وما يؤل اليه أمره بل ليأخذه بعمله الصادر منه المنبعث عن خبث سريرته فما يرد على العبد من الخير والشر والنعمة والنقمة اختبار ليظهر عليه ما تكنه نفسه هذا بالنسبة إلى الشقي ، واما الامتحان بالنسبة إلى التقي ليظهر للناس من العزيمة في صبره وقوة إيمانه وبليغ وثوقه بربه وعدم جزعه عند نزول البلايا عليه اوليظهر للناس عدم غروره وطموحه عند نزول الخيرات عليه فلاتشغله عن طاعة ربه وخالقه ورازقه بل يزداد عبادة له وإنفاقاً على ضعفاء خلقه .

وفي الكافي عن الصادق (ع) لابد للناس من ان يمحصوا ويميزوا ويغربلوا ويستخرج في الغربال خلق كثير :

وفيه عن ابي الحسن (ع) في قوله تعالى : « أم حسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » قال (ع) : يفتنون كما يفتن الذهب ، ثم قال ﷺ في إيضاحه : يخلصون كما يخلص الذهب (أي يختبرون) .

وفي النهج ايها الناس ان الله تعالى قد اعاذكم من ان يجور عليكم ولم يعذركم من ان يبتليكم .

وفي خطبة له (ع) قال : ولكن الله عزوجل يختبر عبيده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبر من قلوبهم وإسكاناً للتذلل في انفسهم وليجعل ذلك ابواباً إلى فضله وأسباباً ودليلا لعفوه

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٨ . (٢) سورة الأنعام الآية ١٦٥ .
(٣) سورة الكهف الآية ٦ .

وفتنته كما قال سبحانه : أم حسب ... الخ .

وفي تفسير علي بن ابراهيم القمي نزلت يا ايها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم .. الخ(١) في غزوة الحديبية جمع الله عليهم الصيد فدخل بين رحالهم ليبلوهم ، أي ليختبرهم من يثبت منهم على مواصلة الجهاد ومن يشتغل بأخذ الصيد . وان من الاختبار نزول السائل عليك .

ففي الكافي عن ابي جعفر (ع) فيما ناجى موسى به ربه يا موسى اكرم السائل ببذل يسير او برد جميل انه يأتيك من هو ليس بانس ولا جن ملائكة من ملائكة الرحمن يبلونك فيما خولتك ويسألونك مما نولتك فانظر كيف انت صانع يابن عمران .

وفي كتاب التمحيص عن البرقي عن الصادق (ع) قد عجز من لم يعد لكل بلاء صبراً ولكل نعمة شكراً ولكل عسر يسراً اصبر نفسك عند كل بلية ورزية في ولد او في مال فان الله إنما يقبض جائزته او هبته ليبلو شكرك وصبرك .

نموذج من التسليم والصبر

روي ان المنصور سجن جماعة من اولاد الحسن المجتبى (ع) وشدد عليهم لحد لا يعرفون الليل من النهار وكانت حاجتهم معهم وفي مكان عبادتهم ومن جملتهم عبدالله المحض فقالوا له : ألا تدعو الله لنا بالفرج حيث كان المبرز في النق فقال : لا أدعو فقيل له : لِمَ ؟ قال : لعل الله قد قدر لنا في الجنة درجة رفيعة لا ننالها إلا بالصبر او لعل الله قدر للمنصور درجة سحيقة في النار لا يستحقها إلا بهذا الظلم لنا فاذا دعوت الله تعالى واستجاب لي فلا ننال تلك الدرجة وسلم المنصور من هاتيك الدرجة فالتسليم إلى المولى والصبر على قضائه خير من كل شيء

(١) سورة المائدة الآية ٩٦ .

نموذج من أجر الصابرين

عن ابي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (ع) قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم اهل الفضل فيقوم ناس من الناس فيقال انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة قالوا : قبل الحساب قالوا : نعم فيقولون : من انتم ؟ قالوا : اهل الفضل قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا : كنا إذا جهل علينا حلمنا وإذا ظلمنا صبرنا وإذا أسيء الينا غفرنا فيقولون : ادخلوا الجنة فنعم اجر العاملين ، ثم ينادي مناد ليقم اهل الصبر فيقوم ناس من الناس فيقال لهم ادخلوا الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقال لهم مثل ذلك فيقولون : نحن اهل الصبر قالوا : وما كان صبركم ؟ فيقولون : صبرنا انفسنا على طاعة الله وصبرناها عن معصية الله فيقولون : ادخلوا الجنة فنعم اجر العاملين ، ثم ينادي مناد ليقم جيران الله في داره فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقال لهم مثل ذلك فقالوا لهم : بمَ جاورتم الله في داره ؟ قالوا : كنا نتزاور في الله ونتجالس في الله ونتباذل في الله فيقولون : ادخلوا الجنة فنعم اجر العاملين .

الصبر دعامة للايمان

في الكافي عن جابر عن ابي جعفر (ع) قال : سئل امير المؤمنين (ع) عن الايمان فقال (ع) : إن الله تعالى جعل الايمان على اربع دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، فالصبر من ذلك على اربع شعب على الشوق والاشفاق والزهد والترقب فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن اشفق من النار رجع

عن المحرمات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ومن راقب الموت سارع إلى الخيرات ، واليقين على اربع شعب تبصرة الفطنة وتأول الحكمة ومعرفة العبرة وسنة الأولين فمن ابصر الفطنة عرف الحكمة ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف السنة ومن عرف السنة كأنما كان من الأولين واهتدى للتي هي أقوم ونظر إلى من نجا بما نجا وإلى من هلك بما هلك وإنما اهلك الله من هلك بمعصيته وأنجى من نجا بطاعته ، والعدل على اربع شعب غامض الفهم وغمر العلم وزهرة الحكم وروضة الحلم فمن فهم فسر جميع العلم ومن علم عرف شرايع الحكم ومن حلم لم يفرط في امره وعاش في الناس حميداً ، والجهاد على اربع شعب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في المواطن وشنآن المنافقين فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر ارغم انف المنافق وأمن كيده ومن صدق في المواطن قضى الذي عليه ومن شنأ المنافقين غضب لله ومن غضب لله غضب الله له فذلك الايمان ودعائمه وشعبه ، فانظر وانصف وتدبر في موجز كلماته ﷺ هل أبقى شيئاً مما يرجع إلى حسن النظام او خصلة تجر إلى رضا الملك العلام إلا وقد زجها في مضامينها وأدخلها في مقاصير ألفاظها فالاثم كل الاثم على من اغلق عليه باب تطبيقها وقطع عليه إرادة تنفيذها .

مدحة الله وعطيته للصابرين

قال تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (١) .

(١) سورة الرعد في ذيل آية ٢١ .

المعنى أي الذين صبروا على القيام بالواجبات وعلى ترك المحرمات وعلى بلاء الله من الأمراض وسائر العقوبات (ابتغاء وجه ربهم) أي طالبين بصبرهم رضاه والحصول على ثوابه الذي اعده للصابرين ، ومن هنا قسم بعضهم الصبر على ثلاثة أقسام : الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية والصبر عند البلاء والشدة ثم فرع على صبرهم على الطاعة قوله : « وأقاموا الصلاة » وهي من اهم فروع الطاعة والمراد من إقامتها المداومة على فعلها وبحدودها ، قال رسول الله (ص) : لاتضيعوا صلاتكم فان من ضيع صلاته حشر مع قارون وهامان وكان حقاً على الله ان يدخله النار مع المنافقين فالويل لمن لم يحافظ على صلاته وأداء سنة نبيه ، وقد اشبعنا الكلام على الصلاة في صدر الكتاب ثم ذكر طاعة اخرى تتطلب الصبر على المداومة عليها فقال : « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » أي ظاهراً وباطناً ولكل منها فضل حسب المقامات والنيات وقد فصلنا القول في فضلها في باب الزكاة ثم قال مبيناً ربحهم في ذلك حيث علم سبحانه بعدم خلو العبد عن السيئة إلا من عصم فقال : « ويدرأون بالحسنة السيئة » ويدفعون بفعل الطاعة وزر المعصية كما روي عن النبي (ص) انه قال لمعاذ بن جبل : إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها وقيل اراد الله انهم يدفعون إساءة من اساء اليهم بالعفو والاحسان ولا يكافئون بل يصبرون كقوله : ادفع بالتي هي احسن ، وقيل معناه يدفعون بالتوبة معرة الذنب ثم يأتي عز وجل على بيان جزائهم تجاه صبرهم على مجموع ما تقدم ومكافحة انفسهم في صدهم عن الطاعة فيقول : « اولئك لهم عقبى الدار » فالدار الجنة وعقباها ثوابها ونعيمها ، ثم وصفها فقال : « جنات عدن » وقد مضت الأقوال في معناها ثم بين تعالى ما يتكامل به سرورهم من اجتماع قومهم واحبابهم معهم بقوله : « يدخلونها ومن صلح ... الخ » ، ومعنى من صلح أي المؤمنين منهم والمصدقين لأن الجنة محرمة على الكافرين ، نعم تغفر لهم سيئاتهم حيث جعلها تعالى

من جملة ثواب المطيع الصابر وسروره بما يراه في اهله من إلحاقهم به كرامة له كما قال تعالى في مقام آخر : ألحقنا بهم ذريتهم ، ثم لم يكتف بهذا فى مقام تعظيمهم بل قال : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » من ابواب الجنة الثمانية ، وقيل إن معناه من كل باب من ابواب البر كالصلاة والزكاة والصوم ، وقيل من ابواب قبورهم ، وقيل من ابواب بساتينهم كما سيأتي تفصيل ذلك في وصف الجنة وكرامة المؤمن هناك ودخولهم عليهم بالتحف والهدايا ويقولون : « سلام عليكم » أي سلمكم الله من المكاره والأهوال « بما صبرتم » مبيناً سبحانه سبب استحقاقهم لهذه الكرامات والعطيات وانه الصبر ليعلم عظيم ثمرات الصبر وجليل فوائده وما يعود به على صاحبه « فنعم عقبى الدار » أي ممدوح ما انتم فيه من الكرامة والخلود .

اسعاف للصابرين على صبرهم

قال تعالى : « ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم إلا فى كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » (١) .

المعنى ان كل مصيبة وبلية تصيبكم سواء كانت في الأرض مثل قحط المطر وجدب الأرض وقلة النبات ونقص الثمرات او في الأنفس كالأمراض وفقد الأولاد فهي ليست عفواً وصدفة بل هي مسجلة ومثبتة فى كتاب مبين وفي اللوح المحفوظ « من قبل أن نبرأها » أي من قبل خلق الأنفس « ان ذلك » أي إثبات كل الحوادث على كثرتها « على الله يسير » وهين سهل غير عسير والغرض من ذلك

(١) سورة الحديد الآية ٢٢ .

بالاضافة الى علمه الذاتي بكل الأشياء. فقد اثبتها في اللوح ليستدل ملائكته بظهورها وحدوثها وفق المسجل عندهم في الكتاب على انه تعالى عالم لذاته يعلم الأشياء بجملتها قبل وجودها هذا اولا ، وثانياً إسعافاً ومساعدة للعباد على ان يصبروا عند وقوع المصائب وحدوثها كما ذكر سبحانه ذلك صريحاً بقوله : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » اي فعلنا ذلك تقوية لصبركم على مايفوتكم من نعم الدنيا ولئلا تفرحوا بما اعطيتم منها والسبب هو ان الانسان إذا علم ان الأمور كلها مسجلة ومثبتة من قبل ان يخلق فلا فائدة إذاً في حزنه ولا في فرحه ، وايضاً اذا علم ان ما فات منها مضمون على الله عوضه في الآخرة اذا كان مقروناً بالصبر فلا يحزن عليه حينئذ وكذلك اذا علم ان كل ما اعطي يجب عليه فيه الشكر وإعطاء الحقوق فلا يفرح به لعدم قيامه بذلك فيعود عليه وبالا ثم اذا علم وراء هذا كله ان شيئاً منها لا يبقى بل هو معرض للفناء فيهتم حينئذ لدار البقاء التي تدوم ولا تبيد . .

الخلاصة من الآية

أربعة امور : الأول تكسبه حسن الخلق لأن من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها لا يحسد ولا يعادي ولا يشاح وهي اسباب سوء الخلق الناشىء من حب الدنيا . الثاني استحقار الدنيا وعابديها إذ كان لا يفرح بها ولا يحزن لعدمها . الثالث تعظيم الآخرة والعمل لها لما فيها من النعيم الدائم . . الرابع الافتخار بالله تعالى دون اسباب الدنيا الحقيرة .

ويروى عن علي بن الحسين (ع) انه قال : إن الزهد على عشرة أجزاء وان اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع واعلى درجة الورع ادنى درجة اليقين

واعلى درجة اليقين ادنى درجة الرضا وان الزهد كله في آية من كتاب الله وهي قوله : لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . وقيل لبرز جمهر : مالك ايها الحكيم لا تأسف على ما فات ولا تفرح بما هو آت ؟ فقال : إن الفائت لا يتلافى بالعبرة والآتي لا يستدام بالحبرة (اي الفرح) .

وعن عبدالله بن مسعود قال : لئن ألحسن جمرة احرقت ما احرقت وابقت ما ابقت احب إلي من ان اقول لشيء كان ليته لم يكن او لشيء لم يكن ليته كان

الصبر من الأعوان على غصص الزمان

قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » .

النزول

قال الجبائي : إنه خطاب للمسلمين دون اهل الكتاب ، وقال الرماني وغيره هو خطاب لأهل الكتاب ويتناول المؤمنين على وجه التأديب والأولى ان يكون خطاباً لجميع المكلفين .

المعنى من قال انه خطاب لليهود قال ان حب الرئاسة كان يمنع علماء اليهود عن اتباع النبي (ص) لأنهم خافوا زوال الرئاسة إذا اتبعوه فأمرهم الله تعالى فقال

« استعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتكم في كتابكم عليه من طاعتي واتباع امري وترك ما نهيتكم عنه واتباع رسولي محمد (ص) بالصبر على ما اتم فيه من ضيق المعاش الذي تأخذون الأموال من عوامكم بسببه » .

وروي عن اهل البيت (ع) ان المراد بالصبر الصوم وان الاستعانة به انه يذهب بالشره وهوى النفس والاستعانة بالصلاة لما يتلى فيها بما يرغب فيما عند الله ويزهد في الدنيا وحب الرئاسة كما قال سبحانه : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولأنها تتضمن التواضع لله تعالى فتدفع حب الرئاسة والكبرياء وكان النبي (ص) اذا حزنه امر استعان بالصلاة والصوم ، واما من قال انه خطاب للمسلمين قال : المراد به استعينوا على تنجز ما وعدته لمن اتبع النبي (ص) بالصبر او ان المعنى استعينوا على مشقة التكليف بالصبر أي بحبس النفس على الطاعات وعن المعاصي والشهوات وبالصلاة لما فيها من تلاوة القرآن والتدبر لعظيم معانيه والاتعاظ بمواعظه والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، وهناك وجه آخر وهو انه ليس في افعال القلوب اعظم من الصبر ولا في افعال الجوارح اعظم من الصلاة فأمر تعالى بالاستعانة بها .

وروي عن الصادق (ع) انه قال : ما يمنع احدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا ان يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو الله فيهما اما سمعت قول الله تعالى : واستعينوا بالصبر والصلاة ، وقوله تعالى : وانها لكبيرة إلا على الخاشعين ، اي ثقيلة إلا الخاشعين فانها لا تثقل عليهم فإنهم لايمانهم وتواضعهم وعلمهم بما يحصل لهم من الثواب بفعلها لم يثقل عليهم فعلها ، كما ان المريض يتجرع مرارة الدواء لما يرجو به من نيل الشفاء ، والمراد بالخاشعين المؤمنين او المتواضعين او الخائفين على اختلاف اقوال المفسرين فيه ، فالاستعانة بالصبر معناها حبس النفس عما تشتهيه من المقبحات وحملها على ما تنفر عنه من الطاعات ، وإلى هذا

المعنى اشار امير المؤمنين (ع) في قوله : الصبر صبران صبر على ما تكره وصبر عما تحب ، ثم قال سبحانه مقوياً لعزيمة الصابرين : « ان الله مع الصابرين » وفي معناه وجهان أحدهما انه تعالى معهم بالمعونة والنصرة كما يقال : السلطان معك فلا تبال بمن لقيت مثلا . وثانيهما انه معهم بالتوفيق والتسديد اي يسهل لهم اداء العبادات واجتناب المحرمات ، ونظيره قوله تعالى : ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ولا يجوز ان تكون كلمة مع هنا بمعنى الاجتماع في المكان ، لأن ذلك من صفات الأجسام تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وان هذا وأمثاله في القرآن الكريم أشبه المجسمة في دعواهم ان الله جسم كقوله تعالى : على العرش استوى ، وقوله : السماوات مطويات بيمينه ولم يتفهموا انها كنايات عن استيلائه جل شأنه وزيادة قدرته وقوته وتمكنه عز اسمه بعدما دل الدليل على استحالة كونه جسما وعلى الأقل لزوم خلو سائر الأمكنة عنه عندما يشغل بجسمه حيزاً معيناً باقتضاء الجسمانيات .

واما قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » فسبكها بما قبلها هو انه تعالى لما أمر بالصبر والصلاة لأجل زيادة القوة وشدة العزم على الجهاد نهى ان يسمى من قتل في الجهاد وفي سبيل الله أمواتاً بل هم أحياء ، وفي معنى حياتهم اقوال احدها انهم أحياء على الحقيقة إلى ان تقوم الساعة وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وجميع المفسرين ، ثانيها ان المشركين كانوا يقولون : إن اصحاب محمد (ص) يقتلون انفسهم في الحروب بغير سبب ثم يموتون فيذهبون فأعلمهم الله انه ليس الأمر على ما قالوا بل انهم سيحيون يوم القيامة ويثابون ، ثالثها ان معناه لا تقولوا هم اموات في الدين بل هم أحياء بالطاعة والهدى ونظيره قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه » فجعل الضلالة موتاً والهداية حياة ، رابعها انهم أحياء لما نالوا من جميل الذكر والثناء ، كما روي عن امير المؤمنين (ع) قوله : هلك خزان الأموال والعلماء

باقون مابقي الدهر اعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة والمعتمد هوالقول الأول وعليه إجماع المفسرين وان اعترض وقيل إنا نرى جثث الشهداء مطروحة على الأرض ولا شيء فيها من علامات الحياة ، فالجواب اما على مذهب من يقول ببقاء الانسان والنفس الناطقة وبلاء الأجسام فان الله يجعل لهم أجساماً كأجسامهم في الدنيا يتمتعون بها دون اجسامهم التي في القبور وهي المثالية لأن النعيم والعذاب عند هذا القائل على النفس دون الجثة وانها المدركة ومشقات التكليف على الروح دون البدن وإنما هو آلة ويؤيد ذلك ما رواه ابوجعفر في كتاب التهذيب مسنداً إلى علي بن مهزيار عن القاسم بن محمد عن الحسين بن احمد عن يونس بن ظبيان قال : كنت عند ابي عبدالله (ع) جالساً فقال (ع) : مايقول الناس في ارواح المؤمنين ؟ قلت : يقولون : في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش فقال ﷺ : سبحان الله ان المؤمن اكرم على الله ان يجعل روحه في حوصلة طائر اخضر يايونس ان المؤمن إذا قبضه الله تعالى صير روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون فاذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا.

وعنه عن ابن عمير عن حماد عن ابي بصير قال : سألت ابا عبدالله (ع) عن ارواح المؤمنين فقال : في الجنة على صور ابدانهم لو رأيته لقلت فلان واما على مذهب من قال : إن الانسان هو هذه الجملة المشاهدة وان الروح هو النفس المتردد في مخارق الحيوان وهو أجزاء الجوف فيقول : إنه يلطف اجزاء من الانسان لا يمكن ان يكون حياً بدونها وبأقل منها فيوصل اليها النعيم وإن لم تكن تلك الجملة بكمالها لعدم العبرة بالأطراف وأجزاء السمن في كون الحي حياً فان الحي لا يخرج عن كونه حياً بمفارقتها كما نشاهده من مقطوع اليد مثلا والرجل والأذن او الأنف او الهزيل . وربما قيل ويكون كقول ثالث بأن الجثة يجوز ان تكون مطروحة في الصورة ولا تكون ميتة فتصل اليها اللذات كما ان

النائم حي وتصل اليه اللذات مع انه لا يحس ولا يشعر بشيء من ذلك فيرى في النوم ما يجد به السرور والالتذاذ حتى يود ان يطول نومه فلا ينتبه ولربما يلوم على من يوقظه من نومه بأنك قد قطعت علي لذتي التي كنت فيها وقد جاء في الحديث انه يفسح له في قبره مد بصره ويقال له نم نومة العروس ثم قال تعالى : « ولكن لاتشعرون » أي لاتعلمون انهم أحياء وانهم في لذة وارتياح وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل في ذلك في العقد السادس من كتابنا هذا في موضوع « الانسان فيما بين الدارين » ثم قال تعالى متابعاً للترغيب على الصبر عند الابتلاء « ولنبلونكم بشيء من الخوف ... الخ » ربطها بما قبلها وحسن نظمها هو انه تعالى لما بين ما كلف به عباده من العبادات عقبه ببيان ما امتحنهم به من فنون المشقات فقال : « ولنبلونكم » أي لنختبرنكم ومعناه نعاملكم معاملة المختبر ليظهر ما كان يعلمه الله منكم قبل الاختبار وإلا كما قلنا مراراً ان الاختبار بمعناه الحقيقي ممتنع عليه سبحانه لأنه نتيجة الجهل وهو محال عليه تعالى وإنما اخبر عباده بالابتلاء قبل وقوعه ليكون تسلية لهم كي يوطنوا أنفسهم على المكاره التي تلحقهم في نصرة النبي (ص) لما لهم بذلك من عظيم الأجر ، فأما سبب الخوف فهو قصد المشركين لهم في بلادهم لأجل محاربتهم كواقعة بدر وأحد والأحزاب ، واما سبب الجوع الذي لحقهم فهو انشغالهم بالجهاد عن المعاش واحتياجهم إلى النفقة فيه وسبب نقص الأموال الانقطاع بالجهاد عن العمارة وسبب نقص الأنفس بالقتل في الحروب مع رسول الله (ص) وقيل : إن نقص الأموال بهلاك المواشي والأنفس بالموت واما قوله : « والثمرات » فقيل : إن معناه ذهاب حمل الأشجار وقلة النبات وقيل : أراد به الأولاد لأن الولد ثمرة القلب وقد انشغلوا بالقتال عن مقاربة النساء وعن الزواج وان الابتلاء بهذه الأمور وفق ما تقتضيه الحكمة من الألطاف ودقائق المصالح والأغراض وما يدخره سبحانه لهم بما يرضيهم به من جلائل الأعواض

وان للطف فيه وجهين أحدهما ان من يجيء من بعدهم إذا اصابهم مثل هذه الأمور علموا انه ليس لنقصان درجة وحط مرتبة ، لأنه قد أصاب ذلك من قبلهم من هو اعلى درجة منهم وهم اصحاب النبي (ص) ، ثانيهما ان الكفار إذا شاهدوا المؤمنين يتحملون المشاق في نصرة النبي (ص) وعظيم مواقفهم له وتنالهم هذه المكاره ولا يتغيرون في قوة البصيرة ونقاء السريرة علموا ان المسلمين إنما فعلوا ذلك لعلمهم بصحة هذا الدين وكونهم من معرفة صدقه على اليقين ولو كان لطمع في الدنيا لكان بخلاف ذلك ولتركوه عندما يروا ذلك النقص في الأموال والأنفس إلى غير ذلك فيكون ذلك داعياً للكافرين إلى قبول الاسلام والدخول في جملة المسلمين ثم يتعهد سبحانه بالبشارة لهم من عنده ويأمر نبيه(ص) باخبارهم فيقول « وبشر الصابرين » أي اخبرهم عني بما لهم على الصبر في تلك المشاق وتحمل المكاره من المثوبة الجزيلة والعاقبة الجميلة ويفسر الصابرين بقوله تعالى : « الذين إذا أصابتهم مصيبة » أي نالتهم نكبة في النفس أو المال فوطنوا أنفسهم على ذلك ولم يغيروا شيئاً من مواقفهم وحالاتهم من الطاعات احتساباً للأجر وطلباً للمثوبة « قالوا إنا لله » هذا إقرار بالعبودية أي نحن عبيده وملكه فاذاً لم نتأذى ونحزن ونحن ملكه ومن شأن المالك ان يتصرف بملكه بما يشاء فليس لنا حق الاعتراض « وإنا اليه راجعون » هذا إقرار بالبعث والنشور إلى دار الجزاء وإذا اعترفنا بذلك هان علينا ما نزل بنا حيث هو إلى عوض افضل منه كما نرى ان من خسر ديناراً مثلا لا يتأمل عليه جزاء وعوضاً يؤذيه بما لا يؤذيه فيما لو كان يحرز عليه عوضاً بمقدار عشرة دنانير بل يكون فرحاً بخسارته ولهذا قال امير المؤمنين (ع) : إن قولنا : إنا لله إقرار على انفسنا بالملك وقولنا : إنا اليه راجعون إقرار على انفسنا بالهلك . وفي قصص الأنبياء للجزائري (١) جاء في

(١) ص ١٩٦ .

الحديث لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا اليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال : يا أسفاه وذلك لما جاء في الحديث من ان المسترجع عند المصيبة يبنى له بيت في الجنة وكلما ذكر المصيبة واسترجع كان له مثل ثوابه عند الصدمة الأولى .

وجاء في الحديث ان من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه ، وقال (ص) : من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وان تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب .

وروى الصادق (ع) عن آبائه (ع) عن النبي (ص) انه قال : أربع من كن فيه كتبه الله من اهل الجنة من كانت عصمته شهادة أن لا إله إلا الله ومن إذا انعم الله عليه النعمة قال : الحمد لله ومن إذا أصاب ذنباً قال : أستغفر الله ومن إذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا اليه راجعون .

وأخيراً انه تعالى قد أعطاهم هذه الجملة تسلية منه وتعزية للمصابين لما فيها من الدلالة على انه سبحانه يجبر المصيبة ان كانت عدلا وهي منه تعالى وينتصف لنا من فاعلها إن كانت ظلماً ومن غيره عز وجل ثم يعطيهم المدحة الجليلة بقوله : « اولئك » وهم من وصفهم من الصابرين « عليهم صلوات من ربهم » أي ثناء جميل من ربهم وتزكية ، وقيل : بركات من ربهم ، وقيل : مغفرة من ربهم « ورحمة » أي نعمة عاجلا وآجلا « واولئك هم المهتدون » أي المصيبون طريق الحق في الاسترجاع ، وقيل : إن معناه المصيبون طريق الحق إلى الثواب والجنة وكان عمر بن الخطاب إذا قرأ هذه الآية قال : نعم العدلان أي الصلاة والرحمة والعلاوة وهي الهداية .

وفي كتاب عيون أخبار الرضا (ع) عن علي بن ابي طالب (ع) انه قال خمسة لو رحلتم فيهن المطايا لم تقدروا على مثلهن لا يخاف عبد إلا ذنبه ولا يرجو

إلا ربه ولا يستحي الجاهل إذا سئل عما لا يعلم ان يقول لا أعلم ولا يستحي أحدكم إذا لم يعلم ان يتعلم والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر ، وقال (ع) : من كنوز البر إخفاء العمل والصبر على الرزايا وكتمان المصائب . وقال رسول الله (ص) : إن صبرت جرت عليك المقادير وانت مأجور وان جزعت جرت عليك المقادير وانت مأزور . فاذاً لا معنى للجزع إذا كانت المقادير جارية على كلا الأمرين بل يكون فيه الضرر بفوات مزيد الأجر ، وان الصبر على الطاعة وترك المحرمات من أقوى الأسلحة على الشيطان ومن أهم الصواد والروادع للنفس من ان تمت بصاحبها إلى ارتكاب المعاصي فاذا وجدت منه الصبر عن استعمال القبيح يداخلها القنوط من استخدامه ويصاحبها اليأس من إغوائه وقد مر الكثير من ذلك في مدخل الكتاب .

وقد روي ان امرأة قرشية حلقت شعر رأسها وكانت أحسن الناس شعراً فقيل لها في ذلك فقالت : اردت ان اغلق الباب فلمحني رجل ورأسي مكشوف فما كنت لأدع علي شعراً رآه من ليس بمحرم فاذا صبرت نفسها على مثل هذه الغفلة السهوية ولم تسمح لها بها بل عاقبتها عليها أقسى عقاب فكيف يتصور في ان تتمكن منها وان تقودها سافرة بارزة بنهاية زينتها في الشوارع والأسواق معرضة بعرضها للسفلة من أمثالها وقد فعلت هذه العفيفة ذلك لأنها علمت ان التجمل بالعفاف افضل من التجمل بشعر الرأس عند الرجال ذوي العفاف ولأنها خافت ربها وتوغت مفاهيم كتابها الذي قد نادى بأجلى عبارة « ولا تبرجن تبرج الجاهلية » وقوله تعالى : « وليدنين عليهن من جلابيبهن ولايبدين زينتهن الخ » وكذلك قد روي من عفة الرجال وتصبيرهم لأنفسهم على ترك منهيات خالقهم انه نزل رجل على أخ له في الله فشخص المنزول عنده في بعض حاجاته وقال لامرأته يا رزقا اوصيك بضيفي هذا فلما عاد بعد شهر قال لها : كيف ضيفنا ؟ قالت :

ما أشغله بالعمى عن كل شيء وكان الضيف قد اطبق عينيه فلم ينظر اليها وإلى المنزل حتى عاد زوجها .

أترى مثل هـذا وتلك يمدحها السامعون أم يذموهما فلم لا يقتدي بهما المادح على الأقل ويتحلى بصفتها صفة النجابة والعفة .

القسم الثاني من العقد الثالث

في الصفات الذميمة وفيه فصول :

الفصل الأول

في البخل والحسد والنميمة

اما البخل فنكتفي عنه بما ذكرناه من ذمه في القرآن والحديث والطبيعة في فصل السخاء ، واما الحسد فقد قال الله تعالى فيه : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد » .

قال بعض المفسرين : إن الله تعالى جمع الشرور في هذه السورة وختمها بالحسد ليعلم انه أخس الطبائع نعوذ بالله منه .

المعنى انه أمر من الله تعالى لنبيه (ص) ، والمراد جميع أمته أن يعتصموا ويمتنعوا برب الصبح وخالقه ومدبره ومطلعه «من شر ماخلق» من الجن والانس وسائر الحيوانات وإنما سمى الصبح فلقاً لانفلاق عموده بالضياء عن الظلام ،

وقيل إن الفلق معناه المواليد لأنهم ينفلقون بالخروج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات كانفلاق الحب من النبات ، وقيل إن الفلق جب في جهنم يتعوذ منه أهل جهنم من شدة حره « ومن شر غاسق إذا وقب » أي ومن شر الليل إذا دخل بظلامه أي من شر حوادثه ومكارهه وخص الليل ، لأن الفساق ومريدي الجرائم يقدمون غالباً فيه على مفاسدهم و كذلك الهوام والسباع تؤذي فيه اكثر من النهار وقيل إن معنى الغاسق كل هاجم بضرره كائناً ما كان « ومن شر النفاثات في العقد » أي ومن شر النساء الساحرات اللاتي ينفثن أي ينفخن في العقد أي عقد الخيوط وقيل إن معناه النساء النفاثات اللاتي يملن آراء الرجال ويصرفنهم عن مرادهم ويرددنهم إلى آرائهن لأن العزم والرأي يعبر عنه بالعقد « ومن شر حاسد إذا حسد » فانه يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود ، لذا امر سبحانه بالتعوذ منه ومن شره ، وقيل إنه اراد التعوذ من شر نفس الحاسد ومن شر عينه فانه ربما اصاب بها فعاب وضر فقد جاء في الحديث ان العين حق .

وروي ان العضباء ناقة النبي (ص) لم تكن تسبق فجاء اعرابي على قعود (وهو البكر) فسابق بها فسبقها فشق ذلك على الصحابة فقال النبي (ص) : حق على الله عز وجل ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه .

وروي عنه (ص) من رأى شيئاً يعجبه فقال : الله الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضر شيئاً .

وروي ان النبي (ص) كان كثيراً ما يعوذ الحسن والحسين (ع) .

وإنما خص سبحانه التعوذ من هـذه الثلاثة مع دخولها في العموم بقوله تعالى : من شر ما خلق لأهميتها وكثير ضررها وعلى رأسها الحسد وقد جعل خاتمتها كما ذكرنا وان الله قد نهى عنه وحرمه بأبلغ تعبير ، حيث قد فهمنا فلسفة تشريع حرمته اولا وهي الضرر بالمجتمع والتنفير عنه ثانياً في الأمر بالتعوذ منه

فبالأولى ان لا تقاربه وتفعله وتتصف به كما لو اردت المبالغة والتأكيد في نهي ولدك عن استعمال السم مثلا فتعدل عن النهي إلى بيان مفاسده وأضراره وان الشخص إذا أخذ منه قدر حمصة تتقطع أمعاؤه ولا يمكن ان يتداركه أي طبيب وإلى غير ذلك من المنفرات والمخوفات فانه يكون اردع له عن استعماله مما إذا نهيته صريحاً وقلت : لا تأكل السم .

وقد ورد في ذمه والتحذير منه الكثير من الأخبار ، فعن داود الرقي قال : سمعت ابا عبدالله (ع) يقول : اتقوا الحسد ولا يحسد بعضكم بعضاً .

وفي أخرى فاتقوا الله ولا يحسدن بعضكم بعضاً .

الحسد يضر صاحبه

قال الصادق (ع) : الحاسد مضر بنفسه قبل ان يضر بالمحسود كابليس أورث بحسده اللعنة له ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء فكن محسوداً ولا تكن حاسداً فان ميزان الحاسد ابداً خفيف بثقل ميزان المحسود والرزق مقسوم فماذا ينفع الحسد الحاسد وما يضر المحسود الحسد وان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . ومن هذا نرى ان حساد آل بيت النبي (ص) لم يضروا إلا بأنفسهم وقد استحقوا اللعن من كل منصف أبد الآبدين ، بينما نرى اهل البيت (ع) المحسودين قد أخذوا من المدح والثناء نهايته وأقصى حدوده وحتى ممن انحرف عنهم وقد انتشرت علومهم حتى سدت الآفاق وقد اخذ بها حتى حاسدهم واستند اليها حتى مناوئهم مع ان علومهم هي التي سببت الحقد عليهم والحسد لهم وبالرغم من سعيهم لغلق ابوابها قد انفتحت على مصاريعها حتى على غالقيها وقد انكر الله عز وجل على حاسديهم في كتابه

المجيد مبيناً علة الانكار فقال : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » (١) .

فقد ورد عن ابي جعفر الباقر (ع) ان المراد بالناس النبي (ص) وآله والمراد بالفضل النبوة فيه (ص) والامامة في آله (ع) .

وفي تفسير العياشي باسناده إلى ابي الصباح الكناني قال : قال ابو عبدالله ﷺ : يا ابا الصباح نحن قوم فرض الله طاعتنا لنا الأنفال ولنا صفو المال ونحن الراسخون في العلم ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه : « أم يحسدون الناس ... الخ » قال : والمراد بالكتاب النبوة وبالحكمة الفهم والقضاء وبالملك العظيم افتراض الطاعة وقيل إن المراد بالملك العظيم الجمع بين سياسة الدنيا وشرع الدين . وقد بين تعالى العلة لهذا الانكار منه عليهم على حسدهم بقوله تعالى : « فقد آتينا آل ابراهيم الآية » ومعناه انه لا معنى لحسدهم لهم حيث ان محمداً ﷺ وآله من أولاد ابراهيم (ع) فكما آتيناه آتيناهم . وقيل إنما عبر عنهم بالناس لأنه لما كان قوام الدين به (ص) وبآله صار حسدهم لهم كحسدهم لجميع الناس

الذم الطبيعي والحسي للحسد والحاسد

من المحسوس والمقطوع به ان العالي لا يحسد السافل ومن هو أدنى منه سواء في ذلك الروحيات او الماديات فلا ترى الغني يحسد فقيراً ولا رئيساً يحسد مرؤوساً ولا عالماً يحسد جاهلا وإنما يكون الحسد من الداني إلى العالي حيث يرى ان للعالي مزية عليه لا يمكنه الوصول اليها فيحسده عليها فالحسد هم وغم يتركز في القلب ولا يزول والحاسد معترف على نفسه بالهبوط والنزول كما قال الشاعر : — متسافل الدرجات يحسد من علا — .

(١) سورة النساء الآية ٥٣ .

التحذير عن الحسد العظيم مفاسده

قالت الحكماء : إياك والحسد فانه يفسد الدين ويضعف اليقين ويذهب المروة. وقالوا : من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد .

ومن الأحاديث القدسية يابن آدم من قنع استغنى ومن ترك الحسد استراح ومن اجتنب الحرام خلص دينه ومن ترك الغيبة ظهرت محبته في القلوب ومن اعتزل عن الناس سلم منهم ومن قل كلامه كمل عقله ومن رضي بالقليل فقد وثق بالله عز وجل ومن رضي عن الله بالقليل من الرزق رضي الله عنه بالقليل من الطاعة ومن شكا مصيبته إلى غيري فقد شكاني ومن لطم وجهه على ميت فكأنما أخذ رمحاً يحاربني .

وروي ان رجلا اتبع حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إني جئتك للذي آتاك من العلم اخبرني عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الحجارة وما أقسى منها ؟ وعن النار وما أحر منها وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه فقال : البهتان على البرئ أثقل من السماوات وان الحق اوسع من الأرض وان القلب القانع أغنى من البحر وان الحرص والحسد أحر من النار وان الحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وان قلب الكافر أقسى من الحجر وان النمام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

وروي ان موسى (ع) استسقى لبني إسرائيل حين أصابهم قحط فأوحى الله اليه اني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة ، قال موسى : يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا ؟ فقال : يا موسى انهاكم عن النميمة

واكون تماماً فتابوا بأجمعهم فسقوا .

وروي ان رجلاً أتى امير المؤمنين (ع) يسعى اليه برجل فقال (ع) : يا هذا نحن نسأل لمَ قلت فان كنت صادقاً مقتناك وان كنت كاذباً عاقبناك وان شئت ان نقيلك أقلناك قال : أقلني يا امير المؤمنين .

وروى عمار بن ياسر عن النبي (ص) انه قال : من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة .

وروى الصدوق باسناده إلى علي (ع) قال : قال رسول الله (ص) : يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً ثم يلهبان جسده ثم يقال هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك يوم القيامة .

آثار الحسد

فانه إذا انطبع الانسان على الحسد ينجر إلى الحقد ثم إلى النميمة ثم إلى النفاق وأخف مراتبه ما يسمى بالغبطة ومعناها ان تتمنى لنفسك مثل ما لأخيك المسلم بدون تمني زوالها عنه ، اما إذا كنت تتمنى زوالها عنه وكانت مما له فيها صلاح فهذا هو الحسد المذموم المحرم ، اما الغبطة فقد تكون واجبة كما لو كنت تتمنى مثل ما لأخيك من التزامه بأداء الواجبات وقد تكون مندوبة كما لو كان في المندوبات وقد تكون مباحة كما لو كان في المباحات ، وعلى هذا المعنى يحمل الخبر الوارد عن النبي (ص) الذي يعطي بظاهره جواز الحسد في بعض المقامات وهو قوله (ص) : لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على ملكه في الحق ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل ويعلمه الناس ، فالمقصود انه يجوز ذلك ان

تغبطها على ذلك أي تتمنى مثل ما أعطاها الله من المال والعلم لا بمعنى جواز تمني إزالة ذلك عنها فانه الحسد المحرم لأن الله تعالى قد نهى عن ذلك بقوله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » (١) .

ولعله من ذلك أيضاً الأخبار المثبتة للحسد بين العلماء ، فان المقصود منها الغبطة المباحة إلا إذا كان طلبهم للعلم ناشئاً من حب المال والجاه فيكون حينئذ بينهم التحاسد بمعناه الحقيقي وهو المحرم .

الحسد مرض عضال

وحيث ان منشأه خبث السريرة وضعف العقيدة وينتهي بصاحبه إلى مضار الدنيا والآخرة ، اما في الدنيا فلعدم خلوه آناً ما عن الأحزان والآلام الروحية إذ كلما رأى على احد من خلق الله نعمة من خالقه يتأذى ويتمنى زوالها وان نعم الله عز وجل على عباده غير متناهية فجراحات قلب الحسود ايضاً غير متناهية واما في الآخرة فلان حسده لأخيه يوجب الكلام فيه بما يحطه في أعين الناس فيكون ظالماً له وبذلك تبدل حسناته بسيئآت المحسود فحسده يعود على المحسود بالخير وعلى نفسه بالشر هذا أولا وثانياً ان الحاسد يكون معارضاً لله تعالى في رزقه لعباده ومصادماً لمقتضيات حكمته في التوسعة على بعض عباده حيث ان الحاسد المسكين يكون ساخطاً على تفضيل الله تعالى بعض عباده ومتمنياً لانقطاع فيوضاته الصادرة منه على وفق علمه بمصلحة عبده دون ذلك العبد الآخر فالحاسد يريد لربه ان يتصف بصفات النقص وان يزيل عن عبده النعمة التي علم صالحه بها تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ومن هذا وغيره فقد صار الحسد من اشد

(١) سورة النساء الآية ٣٦ .

الأمراض وأخبث الصفات ، ولذا قد نزه عنه المؤمن في كثير من الأخبار مثل قوله (ص) : إن المؤمن يغبط ولا يحسد وان المنافق يحسد ولا يغبط وقد شدد الشارع المقدس النكير عليه والتنفير عنه بما ألحقه بدرجة الكافر كقوله (ص) : إن لنعم الله أعداءً فقيل : ومن هم ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وورد في الأحاديث القدسيه ان الحاسد عدو لنعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي .

وعن الباقر (ع) ان الرجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر وان الحسد ليأكل الايمان كما تأكل النار الحطب . وقال الصادق (ع) : آفة الدين الحسد والعجب والفخر . وقد ورد ان الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى وهما جناحان للكفر وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد . وقد قالوا : إن الحاسد لا ينال من المجالس إلا ذماً وذلا ومن الملائكة إلا لعنة وبغضاً ومن الخلق إلا جزعاً وغماً ولاينال عند النزع إلا شدة وهولا وعند الموقف إلا فضيحة ونكالا

تخوف النبي ﷺ على الأمة

من الحسد وأسبابه

قال (ص) : أخوف ما أخاف على أمتي ان يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون . وقال (ص) : سيصيب أمتي داء الأمم قالوا : وما داء الأمم ؟ قال ﷺ : الأشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج . وقال (ص) : لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولاتباغضوا

وكونوا عباد الله اخواناً . وقال (ص) : دب اليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم افشوا السلام بينكم .

فقد أشار (ص) إلى الداء والدواء وأساس الداء العداوة والبغضاء لأنها المهيجة للطبيعة على الحسد وأساس الدواء الاخوة والتحابب لأنه المقرب والمؤلف ومن مبادئه إفشاء السلام ، ولذا قال تعالى في وصف اهل الجنة : « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » .

آخر علاج لقلع جذور مكروب الحسد

أن تعرف انه مضرك في دينك ودنياك معاً كما اوضحنا ذلك فيما تقدم ولا يضر بالمحسود بل قد ينتفع به فيما إذا تجاوز حسدك قلبك إلى لسانك حيث لا يقبله منك غالب الناس والدواء الأخير أن تستعرض دائماً صورة عن عقيدتك بعدل الله في قسمه وانك بالحسد معارض لعدله تعالى وساخط على عطائه ومنكر لحكمته وبهذا تخرج عن حدود الايمان به تعالى والاعتراف بتوحيده وأضف إلى ذلك ما يستلزمه الحسد من سائر الصفات الذميمة والخسيسة من العداوة والغش والحقد والكذب على المؤمن وهو من عرفت عظمته عند الله تعالى فبدل ان تحقد عليه تقبل على حبه ونصيحته لتكون من رفقائه يوم القيامة ، وقد قال ﷺ : المرء مع من أحب . وقال رجل بحضرة النبي (ص) بعدما ذكرت الساعة ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا اني أحب الله ورسوله فقال (ص) : انت مع من أحببت فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ .

وعنه ايضاً انه قيل له الرجل يحب المصلين ويحب الصائمين فقال : هو مع من أحب . فحبك للمؤمن لا يدعك ان تحسده فهو الدواء القالع لهذا المرض العضال والحافظ للعقيدة .

قضاء الحسد على صاحبه

بقول أمير المؤمنين عليه السلام : من حفر بئراً لأخيه وقع فيها

فقد حكي ان بدوياً دخل على المعتصم فقربه وجعله نديماً له لما رأى من أدبه حتى صار يدخل على حريمه بدون استئذان وكان له وزير حسود فقال في نفسه إن لم احتل في قتل هـذا البدوي أبعدني عن الملك فصار يتلطف به حتى دعاه إلى منزله وطبخ له طعاماً واكثر فيه من الثوم وبعد الأكل قال له : احذر ان تقرب من الخليفة فانه يكره رائحة الثوم ثم اختلى الوزير بالخليفة وأخبره بأن البدوي يقول عنك للناس ان الخليفة ابخر وقد هلكت من رائحة فمه وهو يدنيني وأنا لا أحب ذلك فلما دخل البدوي عليه بعد خروج الوزير اخذ الخليفة يشاوره وهو واضع كمه على فمه مخافة ان يشم منه رائحة الثوم فلما رأى ذلك منه صدق مقالة الوزير عنه فكتب كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه : اضرب رقبة حامله بدون توقف ودفعه إلى البدوي وقال : ادفعه إلى فلان العامل واتني بالجواب فلما خرج وافاه الوزير بالباب فقال له : إلى أين تريد ؟ فأعلمه بالكتاب فظن الوزير ان قد حوله بمال جزيل على عادته معه لأن ذلك العامل كان وكيل المال فقال له : ما تقول فيمن يريحك من تعب هذا السفر ويعطيك عوض الكتاب الفي دينار فقال له البدوي : انت الكبير والحاكم في ذلك مهما رأيته من الرأي فافعله فأعطاه واستلم الكتاب وسار به إلى العامل فلما قرأه امر بضرب عنقه في الحال فضربت

وبعد ايام تذكر الخليفة أمر البدوي وانه قد قتل أم لا فسأل عن الوزير فأعلم بأنه قد مضت عليه ايام لايظهر وان البدوي مقيم في المدينة فأمر باحضاره وسأله عن الكتاب فأخبره بما كان له فيه مع الوزير فعلم انه قد قتل فقال له: انت قلت للناس عني باني أبخر وانك تكره مجالستي فقال: معاذ الله ان أتحدث بما ليس لي فيه علم ثم سأله عن سبب وضع كمه على فمه في ذلك اليوم ، فذكر له ان الوزير اطعمه في ذلك اليوم طعاماً فيه الثوم وأوصاه ان لا يقرب من الخليفة لئلا يؤذيه برائحة الثوم لذا وضعت كمي لرفع الأذية عنك ، فعند ذلك قال الخليفة: قاتل الله الحسد ما أعـــدله بدأ بصاحبه فقتله واتخذ البدوي وزيراً في مكانه ومات الوزير بحسده .

الفصل الثاني في النفاق

قد عرف النفاق والمنافق بتعاريف احسنها وأوضحها وأعمها ما عرفه به الكتاب العزيز في ضمن توصيف المنافقين إذ قال تعالى : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » فيكون لهم طلاء ظاهري جميل وخبث باطني قبيح يجعلون حلاوة ألسنتهم وسيلة إلى نفث سموم قلوبهم يتلعقون بالحق وقد انطوت سرائرهم على الغدر والباطل وهم اعظم جرثومة في الخلق وأضر ميكروب في المجتمع يعطيك المنافق كلاماً معسولا ويرميك سهما مسموماً يوافقك في الألفاظ ويفارقك عند زبد المخاض يساندك في الظاهر ويكيدك في الباطن وقد اكثر القرآن الكريم في ذمهم وضرب الأمثال فيهم ونددبهم وحذر المؤمنين منهم بما لم يحذرهم بمثله من الكافرين انظر أول سورة البقرة لما تلت سبحانه قسمة عباده وهم المتقون وقد وصفهم بالايمان وإقامة الصلاة والانفاق من ارزاقهم واليقين بالكتب المنزلة من

ربهم والفلاح ، ثم ذكر الكافرين ولم يزد في ذمهم وفي بيان حالهم على آيتين فقط واما المنافقون فقد ذكرهم وذمهم بأبلغ ذم وأوسع بيان بما لايقل عن اربعة عشر آية من انهم مؤمنون بألسنتهم فقط ولم يتجاوز الايمان إلى سطوح قلوبهم فضلا عن اعماقها وانهم المخادعون لله وللمؤمنين وانهم المريضة قلوبهم وانهم الكاذبون وان لهم بذلك العذاب الأليم وانهم المفسدون في الأرض وفي جميع المجتمع وانهم المعيرون لأهل الايمان بالسفاهة وانهم المستهزئون واهل الطغيان وانهم المشترون للضلالة بالهدى وانهم الخاسرون في بيعهم وشرائهم ولم تربح تجارتهم وإلى آخر اوصافهم وضرب الأمثال بعد ذلك فيهم كما هو مشاهد في صريح الآيات هنا وفي المقامات الأخرى من القرآن الكريم بين آونة واخرى ثم لم يكتف سبحانه وتعالى في التحذير منهم بكل ذلك حتى انزل سورة مخصوصة باسمهم سماها سورة المنافقين كل ذلك لعلمه عز وجل بفساد بواطنهم وخبث سرائرهم وتمكن الضلال والكفر من اعماق قلوبهم فضررهم على المؤمنين اضعاف ضرر الكافرين حيث ان الكافر مصارح بعدائه فهم منه على حذر مستمر في الليل والنهار ، اما المنافق فحيث انه قد صبغ نفسه بصبغة الاسلام وأجرى كلمة التوحيد على لسانه ، فأهل الايمان منخدعون به وهو يكيد لهم وهم في غفلتهم لايعلمون فاللطف من الله تعالى بعباده المؤمنين اقتضى زيادة البيان من اوصافهم كي يزيدوا التحذر من مكرهم وخفايا دسائسهم ، ومن اوصافه سبحانه لهم من سورة المنافقين قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وإذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم

رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون» فالله تعالى يشهد بكذبهم في ادعاء انهم يعتقدون رسالة نبيه وانها من قلوبهم لأن قلوبهم منكرة ودليل إنكارها اعمالهم على خلافها فالتكذيب منه تعالى لهم يرجع إلى ذلك لا إلى شهادتهم باللسان لأن هذا قد صدر منهم ولا معنى لتكذيبهم فيه فاذاً ليس كل من اجرى الشهادة على لسانه فهو من المؤمنين وان أقسموا وحلفوا على انهم مؤمنون لأنهم « اتخذوا إيمانهم جنة » وسترة يتسترون بها من الكفر لئلا يقتلوا ولا يسبوا ولا تؤخذ اموالهم ، واما قوله تعالى : ثم كفروا أي بقلوبهم بعد الاقرار بألسنتهم او انهم كفروا عند خلوهم بالمشركين بعد ان اسلموا عند النبي (ص) والمسلمين وان كلمة ثم تفيد انهم يجددون الكفر والشرك بعد إظهار الايمان ولا يكتفون بشركهم السابق تأكداً منهم على الشرك « فطبع على قلوبهم » اي ختم عليها بسمة تميز بها الملائكة بينهم وبين المؤمنين ، وقيل : إن معنى الطبع هو انهم لما ألفوا الكفر والعناد ولم يصغوا إلى الحق ولا فكروا في المعاد خذلهم الله تعالى وتركهم وانفسهم بدون ألطاف فصار ذلك طبعاً لهم على قلوبهم كما قد فسر قوله تعالى في مقامات أخر إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء بذلك وقد تقدم في اوائل الكتاب مفصلا .

التحذير من الله لنبيه عن معسول الكلام

قال : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » بحسن منظرهم وجمال بزتهم « وان يقولوا تسمع لقولهم » أي تصغي إلى كلامهم لحسن منطقهم وفصاحة لسانهم وبلاغة بيانهم « كأنهم خشب مسندة » اي كأنهم أشباح بلا أرواح شبههم الله في خلوهم من العقول والافهام بالخشب المسندة إلى جدار لا ارواح

فيها ، وقيل شبههم بخشب نخرة متآكلة لاخير فيها ويحسب من رآها انها صحيحة سليمة لأن ظاهرها يروق وباطنها لا يفيد ، فكذلك المنافق ظاهره معجب رائع وباطنه عن الخير زائغ « يحسبون كل صيحة عليهم » وصفهم الله تعالى بالخور والهلع والخوف · اي يظنون كل صيحة يسمعونها من اي سبب كانت انها عليهم والمعنى يحسبون انها مهلكتهم وانهم هم المقصودون بها كل ذلك جبناً ووجلا وذلك مثل ان ينادي مناد في العسكر او يصيح احد بصاحبه او انفلتت دابة او انشدت ضالة ، وقيل إن معناه إذا سمعوا صيحة ظنوا انها آية منزلة في شأنهم وفي الكشف عن حالتهم لما عرفوا انفسهم به من الغش والخيانة في صدورهم كما قيل « يكاد المريب ان يقول خذوني » ثم أخبر تعالى بعداوتهم فقال: «هم العدو» في الحقيقة لك وللمؤمنين « فاحذرهم » ولا تأمنهم على سرك « قاتلهم الله »: أي أخزاهم ولعنهم ، وقيل إنه دعاء عليهم بالهلاك ، لأن من قاتله الله فهو مقتول ومن غالبه فهو مغلوب « أنى يؤفكون » اي أنى يصرفون عن الحق مع كثرة الأدلة وهذا توبيخ وتقريع وليس باستفهام ، وقيل معناه كيف يكذبون مأخوذ من الافك وهو الكذب « وإذا قيل لهم تعالوا » اي هلموا « يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم » اي حركوها استهزاء ، وقيل أمالوها إعراضاً وكراهة لجهة كفرهم واستكبارهم كما ذكر تعالى بقوله : « ورأيتهم يصدون » عن سبيل الحق « وهم مستكبرون » ومظهرون انهم لاحاجة لهم إلى الاستغفار، ثم يعطي نتيجتهم من عنده عز وجل بقوله : « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » أي يتساوى عندالله الاستغفار لهم وعدمه « لن يغفرالله لهم » لأنهم يبطنون الكفر وان اظهروا الايمان فان الله لايخدع عن دينه « ان الله لايهدي القوم الفاسقين » قال بعض المفسرين : أخبر الله نبيه انهم يموتون على الكفر فترك الاستغفار لهم وقد كان يستغفر لهم علي ظاهر الحال بشرط حصول التوبة منهم وان يكون

الظاهر منهم مثل الباطن جرياً على طبيعته من حب الخير لجميع عباد الله تعالى .

اعلام الله لنبيه بخفايا حيلهم له ﷺ

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله » أي من المؤمنين ولا تساعدوهم حيث بهم سناده وبصحيح نصرتهم فتوحه « حتى ينفضوا » ويتفرقوا عنه وإنما قالوا على من عند محمد (ص) ولكن الله سماه رسول الله تشريفاً وتعظيما لقدره ، ثم قال تعالى إبطالا لقولهم وإظهاراً لسخافة عقولهم في تدابيرهم لاضعاف نبيه : « ولله خزائن السموات والأرض » وما بينهما من الأرزاق والأموال فلو شاء لأغناهم ولكنه سبحانه يفعل ما هو الأصلح لهم ويمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر فيؤجروا وينالوا بذلك الثواب وكريم المآب .

يكشف سبحانه لنبيه عنهم مؤامرة اخرى

« يقولون لئن رجعنا » من غزوة بني المصطلق « ليخرجن الأعز » يعنون انفسهم « منها الأذل » يعنون رسول الله (ص) والمؤمنين فرد الله تعالى عليهم بأن قال : « ولله العزة ولرسوله » باعلاء كلمته وإظهار دينه على الأديان « وللمؤمنين » بنصرته إياهم في الدنيا وإدخالهم الجنة في العقبى ، وقيل إن معناه لله العزة بالربوبية ولرسوله بالنبوة وللمؤمنين بالعبودية أخبر سبحانه بذلك أولا ثم حققه ثانياً بأن أعز رسوله والمؤمنين وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها ، وقيل عز الله خمسة أشياء : عز الملك والبقاء ، وعز العظمة والكبرياء ، وعز البذل والعطاء ، وعز الرفعة والعلاء ، وعز الجلال والبهاء . وعز الرسول خمسة أشياء :

عز السبق والابتداء ، وعز الأذان والنداء ، وعز قدم الصدق على الأنبياء ، وعز الاختيار والاصطفاء . وعز الظهور على الأعداء . وعز المؤمنين خمسة أشياء : عز التأخير بيانه نحن الآخرون السابقون ، وعز التيسير بيانه ولقد يسرنا القرآن للذكر يريد الله بكم اليسر ، وعز التبشير بيانه وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً ، وعز التوقير بيانه وأنتم الأعلون ، وعز التكثير بيانه انهم اكثر الأمم « ولكن المنافقين لا يعلمون » فيظنون ان العزة لهم لجهلهم بمعرفة الله تعالى وعظيم قدرته وشمول سلطته وما يستحقه أولياؤه ومدى كرامتهم عليه .

دفع شبهة

املك تقول انه تعالى قد جعل في هذه الآية العزة له ولرسوله وللمؤمنين وفي مقام آخر يقول : ولله العزة جميعاً (١) ، فالجواب ان عزة الرسول والمؤمنين آتية من جهته وحاصلة لهم بلطفه ونتيجة لطاعتهم له فهو مرجع العزة كلها وله جميعها « يعز من يشاء ويذل من يشاء » .

ختم الآية بخطاب المؤمنين ووعظهم

« يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم » أي لا تشغلكم « أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » أي الصلوات الخمس المفروضة او جميع طاعاته او شكره على نعمائه والصبر على بلائه والرضا بقضائه وهو إشارة إلى انه لا ينبغي للمؤمن ان يغفل عن ذكر الله في بؤس كان او نعمة فانه سبحانه محسن لعباده في كل حالاتهم حتى

(١) سورة فاطر الآية ١٠ .

لو ماتوا جوعاً « ومن يفعل ذلك » أي الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله « فأولئك هم الخاسرون » حيث خسروا ثواب الله ورحمته وفارقوا أخيراً الأموال والأولاد وربما تلحقهم تبعاتهم فيما لو كسبوها من حرام وشبهات ثم أرشدوهم إلى السماحة والانفاق مبيناً لهم انه هو الرازق فلا يقبض على ايديهم الشيطان ويخوفهم الفقر فقال : « وأنفقوا مما رزقكم الله » في سبيل البر واجباً او ندباً « من قبل ان يأتي أحدكم الموت » أي مقدماته وأسبابه « فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب » ومدة قصيرة لأتدارك ما فاتني وقالوا : ليس في الزجر عن التفريط في حقوق الله وفيما يؤول اليه أمر العبد أعظم من هذه الآية حيث قد بين تعالى لابن آدم حتى ما يمكن ان يتشبث به في يوم الحساب او عند طلائع الآخرة وهو السؤال بالرجوع وان جوابه « كلا » فلا يتكل إذاً على ذلك « فأصدق » وأنفق في سبيل الله « وأكن من الصالحين » أي من الذين يعملون الصالحات او المطيعين .

وعن ابن عباس قال : ما من أحد يموت وكان له مال فلم يؤد حقوقه وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت فقالوا : يابن عباس اتق الله فانا ما نرى الكافر يسأل الرجعة فقال : أنا أقرأ عليكم قرآناً ثم قرأ هذه الآية وقال: الصلاح هنا الحج ، وروي ذلك عن ابي عبدالله (ع) . وبهذا المضمون تأتينا النصيحة من الشفيق امير المؤمنين (ع) .

نصيحة على مجرى الآية

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر . انها إرشاد لهذه الخليقة لأمر قد التزمناه بدافع الفطرة وبدون مرشد

ومنبه ولكن فيما يخص امور الدنيا فقط ، فانا لو علمنا بمحاكمة علينا تستلزم الحساب والسؤال والجواب او علمنا بالحضور في اجتماع هيئة محكمة او علمنا باستحقاق مبلغ من النقود علينا لشخص قوي لا يمكن مدافعته ، ففي كل ذلك لابد وان نأخذ الاستعداد قبل حلول الوقت المضروب لذلك بتحضير المبلغ او الكلمات المفيدة في الجواب فهو سلام الله عليه يوصينا بمثل هذا الاستعداد ولكن لأمور الآخرة وشديد موقفها ودقيق حسابها وتحضير أثمان انواع نعيمها والخلاص من نار جحيمها ولنعرف ثقيل حسناتنا وسيئاتنا من خفيفها ولنحاسب انفسنا ونقول لها : إيهاً أيتها النفس ان هذا العمر هو بضاعة وكل ساعة منه بل كل نفس أغلى من الجوهرة فضلا عن الذهب والفضة ، لأن بصرفه في الطاعات يربح النعيم في الجنات ألست تتمنين على الله تعالى ان يرجعك إلى الدنيا لاصلاح شأنك وقد اصبحت ولم يحن اجلك ولو شاء الله لحان فافرضي ان اجلك قد حان ثم أجابك ربك وأرجعك فيه فأصلحي فيه شأنك بتقديم التوبة النصوح أولا وتصفية الحساب وتكميل النواقص ثانياً وهكذا نفرض الأمر في كل يوم لم يصادفنا فيه الأجل وهذا هو مراده (ع) بقوله : حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا . وأخيراً يعطي سبحانه وتعالى الأمر الحاسم والحجة القاطعة بقوله : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » يعني الأجل المطلق الذي حكم فيه بأن الحي يموت عنده واما الأجل المقيد وهو المحكوم فيه بأن العبد يموت عنده إن لم يقتطع دونه لعمل يعمله ينقص العمر كقطيعة الرحم وعقوق الوالدين مثلا اولم يزد عليه لعمل يوجب زيادة العمر كصلة الرحم ومطلق البر مثلا على ما يعلمه الله من الوقوع وعدمه لأنه « خبير بما تعملون » فيجازيكم عليها ولا تذهب لذيه سدى على عاملها بل الخير بالخير والشر بالشر على حد الذرة الواحدة .

اما سبب نزول آية المنافقين

نزلت الآيات في عبدالله بن ابي المنافق وأصحابه ، وذلك ان رسول الله ﷺ بلغه ان بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحرث بن أبي ضرار ابو جويرية زوج النبي (ص) فلما سمع بهم رسول الله (ص) خرج اليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل ونفل رسول الله (ص) أبناءهم ونساءهم وأموالهم فبينما الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً فقال عبدالله بن أبي لجعال : إنك لهناك فقال : وما يمنعني ان افعل ذلك ، واشتد لسان جعال على عبدالله بن أبي فقال عبدالله : والذي يحلف به لأزرنك ويهمك غير هذا وغضب ابن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن ارقم حديث السن فقال ابن أبي : قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله (ص) ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم اموالكم أما والله لو أمسكتم فضل الطعام عن جعال وذويه لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا ان يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم فقال زيد بن ارقم : انت والله الذليل المبغض في قومك ومحمد (ص)

في عزة من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبدالله اسكت فانما كنت ألعب فمشى زيد بن ارقم إلى رسول الله (ص) وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله (ص) بالرحيل وأرسل إلى عبدالله فقال : ما هذا الذي بلغني عنك ؟ فقال عبدالله : والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك قط وإن زيداً لكاذب ، وقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه بكلام غلام من غلمان الأنصار عسى ان يكون هذا الغلام وهم في حديثه فعذره رسول الله (ص) وفشت الملامة من الأنصار لزيد بن ارقم ولما استقل رسول الله (ص) وسار لقيه اسيد بن الحضير فحياه بتحية النبوة ثم قال : يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت لتروح فيها ، فقال له رسول الله (ص) : أوما بلغك ما قال صاحبكم زعم انه ان رجع إلى المدينة اخرج الأعز منها الأذل فقال اسيد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت هو والله الذليل وانت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه وانه ليرى انك قد استلبته ملكا وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبي ما كان من امر أبيه فأتى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله انه بلغني انك تريد قتل أبي فان كنت لابد فاعلا فمرني به فأنا احمل اليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل ابر بوالديه مني واني اخشى ان تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي ان انظر إلى قاتل عبدالله بن أبي ان يمشي في الناس فأقتله فأكون قد قتلت مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال (ص) : بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا قالوا : وسار رسول الله (ص) بالناس يومهم ذلك حتى امسى وليلتهم حتى الصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فما وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث في الكلام الذي خرج من عبدالله بن أبي

ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فوق البقيع يقال له بقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوها وظلت ناقة رسول الله (ص) وذلك ليلا فقال (ص) : مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة ، قيل : من هو ؟ قال : رفاعة فقال رجل من المنافقين : كيف يزعم انه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته ألا يخبره الذي أتاه بالوحي فأتاه جبرئيل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة وأخبر رسول الله بذلك اصحابه وقال : ما ازعم اني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب فاذا هي كما قال فجاءوا بها وآمن (ص) ذلك المنافق فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت وهو أحد بني قينقاع وكان من عظماء اليهود وقد مات ذلك اليوم قال زيد بن ارقم فلما وافى رسول الله (ص) المدينة جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبدالله بن أبي ثم أخذ رسول الله (ص) باذن زيد فرفعه عن الرحل ثم قال : يا غلام صدق فوك ووعت أذناك ووعى قلبك وقد انزل الله فيما قلت قرآناً وكان عبدالله ابن أبي بقرب المدينة فلما اراد ان يدخلها جاءه ابنه عبدالله حتى اناخ على مجامع طرق المدينة فقال له ابوه : ما لك ويلك قال : والله لا تدخلها إلا باذن رسول الله (ص) ولتعلمن اليوم من الأعز ومن الأذل فشكا عبدالله من ابنه إلى رسول الله (ص) فأرسل اليه ان خل عنه يدخل فقال : إما إذا جاء امر رسول الله فنعم فدخل فلم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات فلما نزلت الآيات وبان كذب عبدالله قيل له نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله (ص) يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني ان أؤمن فآمنت وأمرتموني ان اعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا ان اسجد لمحمد (ص) فنزل قوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا ... الخ » .

فضل السورة

أبي بن كعب عن النبي (ص) انه قال : من قرأ سورة المنافقين برأ من النفاق ولما ختم سبحانه سورة الجمعة بعلامات المنافقين من تركهم النبي (ص) قائماً في الصلاة او في الخطبة والاشتغال باللهو وطلب التجارة والارتزاق افتتح هذه السورة على أثرها بذكر المنافقين فقال : إذا جاءك المنافقون .. الخ .

ثمرات السورة ونتائجها

أولا بعد مدى عداوة الشيطان للانسان وتتبع أحواله واغتنام الفرص للتدخل في إغوائه وإيقاعه في المعصية من أي طريق كان ولو من طريق الغضب والعصبية كما وجدنا كيف افتتن أناساً مجاهدين بأنفسهم وبصحبة الرسول الأعظم ﷺ حتى جعل بعضهم يحاول قتل بعض ، وثانياً قد استفدنا الفرق البعيد بين من قر الايمان في قلبه وتركزت جذوره في أعماقه وبين من طفى إيمانه على سطح قلبه دون رسوخ وثبوت تزيله أقل شبهة او عصبية او غضب كما قد رأينا ووجدنا الأنصار كيف اختلفت كلماتهم بالنسبة إلى الاحتفاظ بكرامة النبي (ص) وأصحابه كزيد بن ارقم واسيد بن خضير واضرابهما وكعبدالله بن عبدالله بن أبي وصنعه مع ابيه حيث كان إيمانهم واقعياً وكابن أبي وأمثاله وما ظهر على ألسنتهم مما كانت تكنه صدورهم مع ان الكل أنصار قد نصروا وآووا وأطعموا وأنفقوا فالعبرة إذاً بالاختبار ، وثالثاً قد استفدنا ان الله عز وجل بالمرصاد للمنافقين وان أمهلهم وقتاً ما فلابد وان يكشف حالهم ويفضحهم في دار الدنيا

بالاضافة إلى فضائح الآخرة ويكشف للملأ أسرارهم وسرائرهم كما قال الشاعر .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإن المرء إذا كان حقوداً وحسوداً ويضمر الغوائل ويتطلب عثرات اخوانه المؤمنين فهو غير مأمون العاقبة ولا تراه تجدي فيه المواعظ واستماع الحكمة لأنه لم يعمد أولا إلى تنظيف قلبه وإزالة الأدران عنه كي يتلقى العبر بارتياح وسلامة وملاءمة مع سريرته كما قال تعالى : « والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » ورابعاً فهمنا ان علم النبي وكذلك أهل بيته الطاهرين المغيبات ليس بالذاتي لاختصاصه بالله جل شأنه وإنما هو إرادي بمعنى انهم إذا أرادوا العلم بشيء تيسر لهم سواء كان بطلب من الله تعالى بكشف ذلك لهم او بالالتفات إلى امور قد هيئت عندهم وباستعداد خاص ، ولذا لما أراد الله ان يعلم نبيه مكان ضالته ومحل ناقته بالاضافة إلى إعلامه بموت المنافق وكذلك حالهم (ع) في القدرة والسيطرة وتسخير الأشياء لهم حتى الجمادات تارة تراها منقادة لهم مطيعة لأوامرهم كأمر الامام الجواد (ع) لصورة السبع بالتقام من اراد النقص به (ع) بمحضر الخليفة العباسي وكذهاب الامام موسى بن جعفر (ع) من السجن وبقاء الحديد في مكانه والأبواب مغلقة على حالها ثم رجوعه (ع) واضطراب السجان لفقده وامثال ذلك اكثر من ان يحصى وتارة أخرى تراهم ظاهراً كغيرهم عاجزين عن رد المكاره عنهم وعن أتباعهم صابرين مسلمين حتى إلى السجن والتبعيد ، والخلاصة انهم تارة تراهم قاهرين وغالبين وتارة أخرى مقهورين مغلوبين ، كل ذلك لحصول المعدل من حالاتهم فان قدرتهم في حال للدلالة على إمامتهم ورفيع محلهم عند ربهم واستجابة الأشياء لهم وتارة أخرى تراهم مقهورين مغلوبين عاجزين عن رد السوء والمكروه عن انفسهم لدفع شبهة الغلو فيهم وادعاء الربوبية لهم .

تعميم المفهوم من الآية لعموم الملاك

وان قصة النزول وسببه وإن كان خاصاً لكن المناط عام والملاك شامل وتعطينا السورة درساً لكل زمان وأهله وحتى زماننا وما بعده وإلى آخر الدنيا لضرورة أمثال هؤلاء في كل زمان وأوان فالسعيد من سلم من النفاق وكان ظاهره وباطنه واحداً ولا يكون مرائياً وذا وجهين ولسانين ، وقد تقدم ما ورد في ذي اللسانين من العقاب ولهذا يأتي التنبيه من الله تعالى لنبيه وعباده والتحذير بلسان الأخبار عن أمثالهم بقوله تعالى : « ومنهم من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » (١) .

النزول

قال ابن عباس : نزلت في المرائي لأنه يظهر خلاف ما يبطن وهو المروي عن الصادق (ع) إلا انه عين المعني بها ، وقال الحسن : نزلت في المنافقين ، وقال السدي : نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر الجميل بالنبي (ص) والمحبة والرغبة في دينه ويبطن خلاف ذلك ، وعلى كل حال فالأمر عام بمقتضى نظام القرآن وشامل بالذم واستحقاق العقاب لأهل كل زمان ، المعنى «من يعجبك قوله» أي تستحسن كلامه ويعظم موقعه من قلبك « في الحياة الدنيا » أي يقول : آمنت بك وأنا

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

صاحب لك « ويشهد الله على ما في قلبه » أي يحلف بالله ويشهده على انه يقول وفق ما في قلبه والحالة ان ضميره على خلاف لسانه « وهو ألد الخصام » أي أشد الخاصمين بناء على الذات وشديد الخصومة جدل مبطل بناء على المصدر « وإذا تولى » أي أعرض وقيل معناه إذا ملك الأمر وصار والياً وسلطاناً جار وظلم وأعرض عن قوله الذي أعطاه كما نرى من ابناء ورجال زماننا ينادون بالعدالة والمساواة وإذا تولوا الأمر إذا هم يغوصون في الظلم غوصاً « سعى في الأرض » أي أسرع في المشي من عندك مريداً مفارقتك على المعنى الأول ، وعلى المعنى الثاني يكون معنى سعى عمل في الأرض « ليفسد فيها » أي ليقطع الرحم بمعناه العام ويسفك الدماء او ليظهر الفساد ويعمل المعاصي « ويهلك الحرث والنسل » النبات والمراد عموم الاقتصاديات والتعبير عنها بالحرث باعتبارها اظهرها واهلا كها بصرفها في مصالحه الخاصة وشهواته ولذاته دون مراعاة لأحوال من يتولى امورهم والمراد بالنسل الأولاد لأن الناس على دين ملوكهم فاذا نشأ الشباب على المتولين وعملهم المعاصي وسيرتهم الجور تكون سجيتهم ايضاً ذلك بحكم التبعية لأن الولد مها رأى من افعال رئيسه سواء كان في بيته او دائرته او ناديه او مجتمعه او مملكته فهو يتابعه فيها ويتمثل بأوصافه ليعد من اتباعه وحزبه والمرضيين لديه والمشابهين له وبذلك فقد اهلكهم وأعدم عليهم مستقبلهم بانطباعاتهم الفاسدة وأخلاقهم الكاسدة .

وروي عن الصادق (ع) ان المراد من الحرث هنا الدين ، ومن النسل الناس والمعنى واحد لأن الدين وأحكامه هو المنظم والمربي والمتعهد لأن ينشىء الجيل على الصفة الكاملة والعقول السليمة المدركة لمصالحها المراعية لحقوق أبناء نوعها فاذا اهلك المتولي الدين بارتكاب المعاصي وتجاوز حدود الله تعالى نشأ الولد على ما يمرض عقله ويغيره عما جعله الله عليه صحيحاً إلى عكسه وضده وهذا كما

قلنا شامل للمتولي بجميع أفراده من مملكة البيت الصغيرة مترقياً إلى المملكة الكبيرة « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم » أي إذا وعظ وأرشد وقيل له اترك ما نهاك عنه الدين وكن خائفاً من عقاب رب العالمين من السعي بالفساد وإهلاك الحرث والاقتصاديات وإفساد الرعية وتبديل اخلاقها أخذته العزة بالاثم أي حملته العزة وحمية الجاهلية والقوة الغضبية على فعل الاثم ودعته اليها اعتزازاً برأيه وانفراداً بعقله ، وقيل إن معناه أخذته العزة من اجل الاثم الذي يبطنه في قلبه لأنه ذو وجهين ولونين كما ذكرنا في صدر البحث وهذا مايسمى بالازدواج النفسي اوالنفاق القلبي وانه كما ذكرنا افتك الأمراض حيث لم يؤخذ منه الاحتياط والحذر مثلما يؤخذ من العدو والكافر الصريح ، فلهذا ان الله تعالى يخبر نبيه لتنبيه عباده بوجود امثال هؤلاء في ما بين ظهرانيهم ثم يعطيه استحقاقه ويقول « فحسبه جهنم » أي فكفاه عقوبة من إضلاله للمجتمع ان يصلى نار جهنم « ولبئس المهاد » أي القرار وسميت جهنم مهاداً على المجاز وكأنها بدل له عن المهد الذي ينام فيه ، وقد دلت الآية على ان من تكبر عن قبول الحق إذا دعي اليه كان مرتكباً لأعظم كبيرة ، ولذلك قال ابن مسعود : إن من الذنوب التي لا تغفر ان يقال للرجل اتق الله فيقول عليك بنفسك . غير مكترث ولا ملتفت إلى ما ورائه وكأنه مستهزىء أو منكر للبعث والنشور .

مقارنة بين ضدين

ثم قال تعالى في قبال هؤلاء متصلا : « ومن الناس من يشري نفسه » أي يبيع « ابتغاء » أي طلب « مرضاة الله » وذلك في حق علي (ع) لما بات على فراش رسول الله (ص) ليلة الغار واقياً له بنفسه لكي يسلم (ص) من كيد

الكافرين بائعاً (ع) نفسه على الله تعالى لحفظ نبيه وإتمام شريعته وهداية خلقه والثمن هو طلب مرضاة الله تعالى فكم تجد الفرق المتناهي بينه (ع) وبين من تقدم ذكرهم فان الله قد أصلح العقول وأودعها في البشر ليهتدوا بها وليعيشوا أصحاء فاذا هم يفسدونها بارتكاب المعاصي كشرب الخمر وامثاله فيعودوا مرضاء .

انكارات الله تعالى على خلقه

هي لطف لعباده

وحيث قد اعتقد بعض ان دخولهم في دين محمد (ص) واعتناق الاسلام هو فضل منهم عليه (ص) كما سمعت من كلمات ابن أبي وانهم نصروه بعد ان آووه وكأن الله تعالى لم يقدر على نصره بغيرهم فلردعهم ولطفه بالآخرين كي لا يأخذهم العجب بنصرهم له (ص) ويبطل عملهم ينزل قوله : « واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم» (١) . فهو الذي حببه اليكم بنصب الأدلة فالواجب عليكم ان تشكروه على دخولكم في دينه لا ان تمنوا عليه ، ومعنى تحبيبه لهم هو ان صدر لهم فيه اوامر وأوعد الممتثل لها منهم بالجزاء والعطاء وزينه في قلوبهم لما في امتثاله من الخير والقلوب مجبولة على حب الخير ، ومعنى قوله : وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان حيث صدر فيها نواهي وقد هدد وتوعد الفاعل لها بشديد العقاب والانسان بطبعه يكره الشر والأذى ، هذا وان الانسان الكامل بصحيح معنى الكمال لا ينبغي له الاقتصار في مقام فعل الطاعة على نية امتثال

(١) سورة الحجرات الآية ٧ .

الأمر فقط تعبداً ولأنه أمر بها وكذلك في تركه للمعصية لأنه نهي عنها وان يتركها تعبداً رجاء في ثواب الأول وإشفاقاً من عقاب الثاني ، بل ينبغي له ان يتفهم ويتوصل إلى انه لم يؤمر بشيء إلا لأجل مصلحة كامنة في المأمور به تعود اليه نفسه وخير مودوع فيه يستفيد منه بفعله كالدواء الموصوف له من قبل الطبيب الحاذق فانه يستعمله لا بقصد امتثال الطبيب فقط بل لوثوقه بوجود نفع فيه يعود اليه نفسه لا لنفع يعود إلى الطبيب الموصف وان الطبيب لا يهمه إلا شفاؤه امتثل أم لم يمتثل وان امتثاله له لا يزيد في طبه ورتبته شيئاً وانه لم ينه عن شيء إلا لمفسدة ومضرة فيه تعود عليه نفسه ، فكذلك بالنسبة إلى التكاليف الشرعية لأن مشرعها عالم بمزاياها وخصوصياتها مضارها ومنافعها بأضعاف مايعلمه الطبيب وهي أدوية ووصفات لمرض العقول كما ان تلك وصفات لمرض الأجسام وعلاج العقول أشد وأطباؤه أحذق وأقل فاذا توصل العبد إلى هذه المرتبة صار محباً لامتثال الأوامر والنواهي حتى لو لم يهدده المولى بعد ان ادرك مصالحها ومفاسدها ومنافعها ومضارها وصار مقبلا على الطاعات كاقباله على ما فيه الخير الظاهر المحسوس من امور الدنيا ومدبراً عن المعاصي بل فاراً منها كفراره مما فيه الشر والأذى من امور الدنيا ، وان الآية الكريمة وإن كانت بنظرتها الأولى افادت ان التحبب والتكريه بواسطة الأوامر والنواهي ولكنها بنظرتها الثانية ودراستها الدقيقة تعطي ان الحب للايمان والكره للفسوق والعصيان بادراك المنافع والمضار منها عاجلا فضلا عن الآجل ولذا تقول الآية : « اولئك هم الراشدون » أي المدركون لملاكات الأوامر والنواهي وهي المصالح والمفاسد العامة والخاصة التي اودعها سبحانه فيها فهو معنى تحبيبها وتبغيضها لعباده لا للتعبد الصرف فقط ثم القرينة الأخرى على ذلك قوله تعالى : « فضلا من الله ونعمة » وهذا إنما يناسب ان يكون تفضلا منه تعالى ونعمة على عباده إذا كانت ألطافه

الخفية قد اوصلت العبد إلى ما ذكرناه وإلا فنفس الأمر والنهي واجب بيانه بمقتضى الحكمة والعدل الثابتين له جل شأنه ثم بذلك يكون العبد من الراشدين كما ذكر تعالى عنهم بقوله : « اولئك هم الراشدون » كما تقول للصغير صار رشيداً فيما إذا أدرك وتوصل إلى مصالح المعاملات وان يعمل بذاته وبدون امر ونهي من وليه وإلا فاذا كان لا يندفع إلى الشيء إلا بالأمر من الولي ولا ينصرف عنه إلا بالنهي عنه لم يكن بعد رشيداً ولم تسلم اليه امواله شرعاً ، فادراك عظيم النفع والخير في الطاعات يورثها محبة في القلب تمنع عن تركها كما ان إدراك خطير الضرر في المعاصي يورثها بغضاً في القلب يمنع عن فعلها وارتكابها .

معركة خفية للشيطان

وهنا يتخذ الشيطان من وسائله الخفية سلاحاً لمعركته الأساسية مع الانسان حيث قد علم بوصول العبد إلى هذه الدرجة من إدراك المصالح والمفاسد فلا يمكنه إيقاعه في ترك طاعة او ارتكاب معصية كما كان يفعل معه في مرحلته الأولى من الطاعة حيث كانت للخوف والرجاء وكانت وسيلته آنذاك قوله : الله كريم والله عفو والله غفور رحيم وانك بعد مدة تتوب وتستغفر إلى غير ذلك بل انه يتدخل له في التسامح بفعل الصغائر من الذنوب وانها قليلة الضرر وبترك المندوبات او خفائف الواجبات بحجة انها لا تفوت عليك نفعاً جليلا كما ان المريض ربما يترك مايتبقى من الدواء في قعر الأناء او يرتكب بعض منهيات الطبيب الجزئية فاذا تمكن إبليس من تلويث قلب العارف بهذه تابعه بأمثالها إلى ان يتمكن من إيقاعه بالعظائم من الذنوب وينسيه ماعلمه أولا عنها لأنه صار متسامحاً في دينه وإلى ذلك يشير مافي تحف العقول في وصايا المسيح (ع) بحق اقول لكم

ان صغار الخطايا ومحقراتها لمن مكائد إبليس يحقرها لكم ويصغرها في اعينكم فتجتمع فتكثر وتحيط بكم .

وعلى منواله في الكافي عن الباقر (ع) اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالباً يقول احدكم أذنب واستغفر وان الله تعالى يقول : « ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (١) .

سلاح آخر بمنتهى الخفاء للشيطان

في كتاب دار السلام عن النبي (ص) من حديث طويل ذكر فيه مكالمات يحيى بن زكريا مع الشيطان إلى ان قال له يحيى : هل أصبت مني فرصتك قط في لحظة من بصر او لفظة بلسان او هم بقلب قال الشيطان : اللهم لا إلا انه كان يعجبني منك خصلة فكثر ذلك منك ووقع عندي موقعاً شريفاً فتغير لون يحيى من قوله وتبلد وتقاصرت اليه نفسه وارتعدت فرائصه وغشي عليه ، ثم قال : وما ذاك يا ابا مرة ؟ قال : انت رجل اكول وإذا اكثرت من الطعام فتبشم منه (التخمة) ويعتريك الوهن والثقل والنوم فكنت تنام أحياناً في الوقت الذي تريد فيه القيام من الليل وقد كان يعجبني هذا منك قال يحيى : وبهذا كنت تجد علي الفرصة ، قال : نعم إلى ان قال يحيى (ع) : عاهدت الله عز وجل نذراً واجباً علي ان أخرج من الدنيا ولا أشبع من الطعام فغضب إبليس وحزن على ما اخبر به يحيى فاحترز يحيى واعتصم فقال الشيطان : خدعتني يابن آدم وقد كسرت ظهري وأنا ايضاً اعاهد الله نذراً واجباً على ان لا أنصح آدمياً .

فلو كان غير يحيى ممن لم يأخذ الحيطة لدينه من مكر الشيطان لقال عند

---

(١) سورة ياسين الآية ١١ .

جواب إبليس له الحمد لله حيث اني لم أرتكب معصية ، اما كثرة الأكل فهي ليست بحرام ويستشهد بقوله تعالى : أحل لكم الطيبات من الرزق ، وبمثل قوله تعالى : قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، ولكنه يحيى بن زكريا فأراد ان يسد على إبليس طريقه إلى المعاصي حتى من فعل المباح ، وقريب منه ما قاله رسول الله (ص) : إن أول ما عصي به الله ستة : حب الدنيا وحب الرئاسة وحب الطعام وحب النساء وحب النوم وحب الراحة .

وعن السجاد (ع) في صفات المنافق يمسي وهمه الطعام ويصبح وهمه النوم ولم يسهر . وقال الباقر (ع) : إن العبد يوقظ ثلاث مرات من الليل فان لم يقم أتاه الشيطان فبال في أذنه .

وفي رواية أخرى بهذا المضمون ألم ير احدكم انه إذا قام ولم يكن ذلك منه (أي النوم كما أراد إبليس) قام وهو متخثر (أي متثقل غير طيب النفس ولا نشيط) ثقيل كسلان . وذلك كناية عن ظهور الشيطان عليه حتى ينام وعن عدم تنبهه بصوت المؤذن وقد خص الأذن بالبول فيها ليفسد حسها لأنها آلة السمع والانتباه ، ولهذا قد ورد في فضل صلاة الليل ما لا يحصى عدة من الترغيب فيها كل ذلك لصد مكيدة الشيطان لأنك إذا صددته ومانعته عن النوم في النافلة فكيف يطمع فيك ان تنام عن الفريضة فيكون مأيوساً منك فتستريح منه حتى في الأحوال الأخرى .

حديث قدسي في التحذير عن النفاق

يابن آدم إذا كان قولك مليحاً وعملك قبيحاً فأنت رأس مال المنافقين وإذا كان ظاهرك مليحاً وباطنك قبيحاً فأنت أهلك الهالكين ، وقال تعالى في

الأحاديث القدسية : « يا ايها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون و كم تنهون عما لا تنتهون و كم تأمرون بما لا تعملون و كم تجمعون ما لا تأكلون و كم التوبة يوماً بعد يوم تؤخرون وعاماً بعد عام تنتظرون ألكم من الموت أمان أم تحققتم الفوز بالجنان أبطرتكم النعمة وغركم من الله طول الأمل فلا تغرركم الصحة والسلامة فان أيامكم معلومة وأنفاسكم معدودة وسرائركم مكشوفة وأستاركم مهتوكة فاتقوا الله يا اولي الألباب وقدموا ما في أيديكم لما بين أيديكم . يابن آدم قدم إلي عملك فانك في هدم عمرك من يوم ولدتك أمك وتقرب كل يوم من قبرك فلا تكن كالحطب الذي يحرق نفسه بالنار لغيره .

النفاق وقسوة القلب متلازمان

فقد ذكر في مجموعة ورام ان علامات النفاق أربعة : جمود العين وقساوة القلب والحرص على الدنيا والاصرار على الذنب . فالهارب من النفاق يلزمه أولا الفرار من اسباب قسوة القلب فانها ذات مفاسد عديدة ، ومنها النفاق .

فعن الصادق (ع) في مقام تعداد اسباب قسوة القلب قال : وإن المؤمن عن جميع ذلك لفي شغل ما له وللملاهي فان الملاهي تورث قسوة القلب وتورث النفاق ، وقال النبي (ص) : يا علي ثلاثة يقسين القلب : استماع اللهو وطلب الصيد وإتيان باب السلطان .

وقال أمير المؤمنين (ع) وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب .

أسباب قساوة القلب

فمن أسباب قساوة القلب عدم التضرع إلى الله حين نزول البلايا كما قال تعالى : « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم » . (ومنها) جمود العين قال أمير المؤمنين (ع) : ما جفت الدموع إلا لقسوة القلب . (ومنها) كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى ، قال المسيح (ع) : لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فان الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون .

وفي التوراة يابن آدم إذا وجدت قساوة في قلبك وسقما في جسمك ونقيصة في مالك وحريمة في رزقك فأعلم انك قد تكلمت فيما لا يعنيك . (ومنها) كثرة الأكل فعن النبي (ص) من قل طعامه صح جسمه وصفى قلبه ، ومن كثر طعامه سقم بدنه وقسا قلبه .

وفي مصباح الشريعة وليس شيء أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل فانها مورثة شيئين قسوة القلب وهيجان الشهوة ، وقال عيسى بن مريم : مامرض قلب بأشد من القسوة .

وفي محاسن البرقي قال : قام عيسى (ع) خطيباً في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل لا تأكلوا حتى تجوعوا وإذا جعتم فكلوا ولا تشبعوا فانكم إذا شبعتم غلظت رقابكم وسمنت جنوبكم ونسيتم ربكم .

ولذا قال أمير المؤمنين (ع) في وصف المتقين : الرقيقة قلوبهم لما سأله همام « قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة أجسامهم نحيفة حاجاتهم خفيفة أنفسهم عفيفة»

وعنه (ع) إياكم والبطنة فانها مقساة للقلب مكسلة عن الصلاة مفسدة للجسم (ومنها) كثرة النوم قال الصادق (ع) : كثرة النوم تتولد من كثرة الشرب وهو

من كثرة الأكل وهما يثقلان النفس عن الطاعة ويقسيان القلب عن التفكر والخشوع « ومنها كثرة المال » .

فمن أمير المؤمنين (ع) ايها الناس اعلموا ان كمال الدين طلب العلم والعمل به وان كثرة المال مفسدة للدين مقساة للقلب وان كثرة العلم والعمل به مصلحة للدين سبب إلى الجنة .

من كلام الحكماء

إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة وألزمه القناعة وفقهه في الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف ، وإذا أراد الله بعبد شراً حبب اليه المال وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ووكله إلى هواه فركب الفساد وظلم العباد

ومما أوحى الله إلى موسى لا تفرح بكثرة المال ولا تنس ذكري على كل حال فان كثرة المال تنسي الذنوب وان ترك ذكري يقسي القلوب « ومنها فضول المطعم » فانه يسمم القلب بالقسوة كما عن بعض الأئمة الطاهرين (ع) وهو التكيف والتنوع بلذائذ الأطعمة ويدخل فيه المشتبه والحرام .

وفي وصايا عيسى (ع) بحق أقول لكم ان الزق إذا لم تُخرق يوشك ان تكون وعاء للعسل كذلك القلوب إذا لم تخرقها الشهوات او يدنسها الطمع او يقسيها النعيم فسوف تكون اوعية الحكمة « ومنها طرح التراب على قبور ذوي الأرحام » . ذكر الكليني انه قد روى عبيد بن زرارة ان الصادق (ع) قد أخذ بكفي أحد أصحابه لما هال على ولده التراب بعد ان ألحد حيث كان (ع) قد حضر وقال : لا تطرح عليه التراب فان رسول الله (ص) نهى ان يطرح ذو رحم على ميته التراب فقلنا : يابن رسول الله انتهانا عن هذا وحده فقال : انها كم ان

تطرحوا التراب على ذوي أرحامكم فان ذلك يورث القسوة في القلب ومن قسا قلبه بعد عن ربه .

(ومنها) مجالسة الماجن فعن أمير المؤمنين (ع) ينبغي للمسلم ان يجتنب مؤاخاة ثلاثة : الماجن والأحمق والكذاب ، اما الماجن فيزين لك فعله ويحب ان تكون مثله ولا يعينك على أمر دينك ومعادك ومقارنته جفاء وقسوة « وهو الفاحش في منطقه ولا يبالي قولا ولا فعلا » وعنه (ع) من الفئام تكون القسوة وعن النبي (ص) خمس تقسي القلب قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : ترادف الذنب على الذنب ومجاراة الأحمق وكثرة منافسة النساء (أي الرغبة على جهة المباراة) وطول ملازمة المنزل على سبيل الانفراد والوحدة والجلوس مع الموتى قيل : يا رسول الله وما هم الموتى ؟ قال (ص) : كل عبد مترف فهو ميت وكل من لا يعمل لآخرته فهو ميت .

(ومنها) الغفلة ففي مواعظ ابي جعفر (ع) لجابر الجعفي إياك والغفلة ففيها يكون قساوة القلب .

(ومنها) نقض الميثاق ، قال تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية .

(ومنها) كسب الجزار سئل ابو عبدالله (ع) عن أي عمل أضع ولدي فيه ؟ فقال : لا تسلمه جزاراً فان الجزار تسلب منه الرحمة .

(ومنها) النظر إلى البخيل ، ففي البحار عن أمير المؤمنين (ع) النظر إلى البخيل يقسي القلب وشرب الخمر وأكل اللحم اربعين يوماً .

(ومن مقسيات القلب طول الأمل) كما قال تعالى في سورة الحديد : « ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » ومن وصايا علي (ع) لايطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم . وقال (ع) :

من يأمل ان يعيش غداً يأمل ان يعيش ابداً ومن يأمل ان يعيش ابداً يقسو قلبه ويرغب في دنياه ..

وفي مناجاة الله تعالى لموسى يا موسى لايطول في الدنيا أملك فيقسو قلبك وقاسي القلب مني بعيد .

السبب الوحيد لطول الأمل

طول الأمل المسبب لقساوة القلب هو مسبب عن حب الدنيا حيث ان الانسان قد أنس بها فلا يحب مفارقتها ويرغب في دوامها ولو في عالم الخيال فلا تراه يفكر في الموت لأنه سبب مفارقتها ، ومن أحب شيئاً كره الفكر فيما يزيله ويبطله فهو لا يزال تمنيه نفسه البقاء في الدنيا وتقدر له الحصول على ما يحتاجه من أهل ومال وأدوات وأسباب فصار فكره فانياً في ذلك فلا يخطر الموت والآخرة بباله وان خطرا في وقت سوّف العمل من يوم إلى آخر ومن شهر إلى شهر ومن عام إلى عام وإلى ان ذهب الشباب فصار كهلا وإلى ان ذهبت الكهولة فصار شيخاً ثم يقول إلى ان أزوج ولدي وإلى ان أبني داري وإلى ان أعود من سفري وإلى ان اكمل عملي حتى إذا اختطفه الموت المحتم وهو غافل عن آخرته فيالها عند ذلك من حسرة وندامة « وذلك هو الخسران المبين » فطول الأمل من أعظم الموانع وأقوى الصواد عن إصلاح الآخرة ودار المعاد ، وقد قال تعالى في حق أرباب الأمل : « فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون »

وقد ورد في الأحاديث ذم الأمل بما لا مزيد عليه ، وقد تقدم بعضها وفي النبوي المعروف في البحار عنه (ص) يا ابا ذر إياك والتسويف بأملك فانك بيومك ولست بما بعده فان يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم وإن لم يكن غد

لك لم تندم على ما فرطت في اليوم ، يا ابا ذر كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً لا يبلغه يا ابا ذر لو نظرت إلى الأجل ومصيره لأبغضت الأمل وغروره يا ابا ذر إذا أصبحت لا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت لا تحدث نفسك بالصباح وخذ من صحتك قبل سقمك ومن حياتك قبل موتك فانك لا تدري ما اسمك غداً فهل تشك في راوي الحديث وهو صاحب الوسام الرفيع من سيد المرسلين بقوله: « ما أقلت الغبراء وما أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » أم تشك في المحدث وقد زكاه رب العالمين بقوله : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » أم تشك في أمر هو محسوس بالحس الظاهر وبالحواس الخمسة كلها فأي فقرة من الحديث ليست بالمشاهدة بل هي واقعة باستمرار .

وفي رواية اجتمع مؤمنان فقال أحدهما للآخر : ما بلغ من قصر أملك؟ فقال : أملي إذا أصبحت أن لا أمسي وإذا أمسيت أن لا أصبح فقال الآخر : انك لطويل الأمل أما أنا فلا آمل ان يدخل لي نفسي إذا خرج ولا يخرج لي نفس إذا دخل .

وفي الصحيفة السجادية اللهم صل على محمد وآل محمد واكفنا طول الأمل وقصره عنا بصدق العمل حتى لا نأمل استتمام ساعة بعد ساعة ولا استيفاء يوم بعد يوم ولا اتصال نفس بنفس ولا لحوق قدم بقدم وسلمنا من غروره وآمنا من شروره .

وفي الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (ع) شعر بهذا المضمون :

تؤمل في الدنيا طويلا ولا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى فجر
فكم من صحيح مات من غير علة وكم من مريض عاش دهراً إلى دهر
وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري

فمفاسد طول الأمل لو لم يكن منها إلا نسيان الآخرة لكفى . ولقيس بن

ساعدة الأيادي شعر للاعتبار في أمر الدنيا وعدم الغرور بها بالماضين قبله :

في الأولين الذاهبين من القرون لنا بصائر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غابر
أيقنت اني لا محالة حيث صار القوم صائر

وخطب أمير المؤمنين (ع) في دخوله الكوفة بعد منصرفه من حرب الجمل في البصرة ومعه أشراف الناس من اهل البصرة وغيرهم فاستقبله اهل الكوفة وفيهم قراءهم وأشرافهم فدعوا له بالبركة وقالوا : يا أمير المؤمنين اين تنزل أتنزل القصر ؟ قال (ع) : لا ولكني أنزل الرحبة فنزلها وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم فصلى فيه ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي (ص) فصلى عليه ثم قال : يا اهل الكوفة فان لكم في الاسلام فضلا ما لم تبدلوا وتغيروا دعوتكم إلى الحق فأجبتم وبدأتم بالمنكر فغيرتم ألا ان فضلكم فيما بينكم وبين الله فأما الأحكام والقسم فأنتم اسوة غيركم ممن اجابكم ودخل فيما دخلتم فيه ايها الناس ان اخوف ما اخاف عليكم اثنان اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة ، ألا وان الدنيا قد ولت حذاء (أي سريعة) فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الأناء اصطبها صابها ، ألا وان الآخرة قد أقبلت ولكل منهما بنون فكونوا من ابناء الآخرة ولا تكونوا من ابناء الدنيا فان كل ولد سيلحق بأبيه (بأمه خ ل) يوم القيامة وان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

وقد سبق منا إيضاح معنى الفقرتين ان اخوف ما اخاف ... الخ ، فراجعه فطول الأمل سبب القساوة . وعن الصادق (ع) من اعظم الشقاوة القساوة .

وعن الباقر (ع) ما ضرب عبد بعقوبة اعظم من قسوة القلب .

العلاج لازالة القسوة عن القلب

بترك اسبابه فما كان منها من افعال الجوارح فيتركه دفعة ويحتاج في تركه إلى قليل جهاد مع النفس لما تعودت من فعلها ، واما ما كان منها من عمل القلب كطول الأمل وهو أهمها فتركه وان كان صعباً ولكن بتتبع اسبابه وقطعها يعود سهلا فان البيوت تدخل من ابوابها وان سبب طول الأمل كما قد ظهر مما تقدم هو حب الدنيا فاذا فكرنا في الدنيا وعاقبتها تفكيراً منصفاً واقعياً تركناها بل أبغضناها وبذلك قصرت الآمال وبه ترق القلوب وعند ذلك يذهب النفاق فندخل في زمرة المؤمنين .

حقيقة الدنيا وما يسفر عنها

فعن الصادق (ع) من تعلق قلبه بالدنيا تعلق منها بثلاث خصال : هم لا يفنى وأمل لا يدرك ورجاء لا ينال . وقال أمير المؤمنين (ع) : من لهج قلبه بالدنيا تعلق منها بثلاث : هم لا يغنيه وحرص لا يتركه وأمل لا يدركه فيعالج حينئذ طول الأمل بما يعالج به حب الدنيا وهو تذكر الموت ، كما عن أمير المؤمنين (ع) لو رأى العبد أجله وسرعته اليه لأبغض الأمل وترك طلب الدنيا . وقال (ع) : لو رأى العبد الأجل ومسيره لأبغض الأمل وغروره .

وفي الكتب السماوية يابن آدم لو رأيت قصر ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك .

وعن أمير المؤمنين (ع) أكثر الناس أملا أقلهم للموت ذكراً .

وعن النبي ﷺ قال لرجل شكا اليه قسوة القلب : اطلع في القبور واعتبر بالنشور .

وعن الباقر (ع) وتعرض لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات . وقال تعالى « ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله » .

وفي الحديث القدسي عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب كيف يجمع المال وعجبت لمن أيقن بالقبر كيف يضحك وعجبت لمن أيقن بزوال الدنيا كيف يطمئن اليها وعجبت لمن أيقن ببقاء الآخرة ونعيمها كيف يستريح وعجبت لمن أيقن بأن الله مطلع عليه كيف يعصيه وعجبت لمن أيقن انه يموت وحده ويدخل في القبر وحده ويحاسب وحده كيف يأنس بالناس .

ومن كلام الصادق (ع) ان كان الله تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا وان كان الرزق مقسوماً فالحرص لماذا وان كان الحساب حقاً فالجمع لماذا وان كان الثواب حقاً فالكسل لماذا وان كان الخلف من الله حقاً فالبخل لماذا وان كانت العقوبة من الله عز وجل النار فالمعصية لماذا وان كان الموت حقاً فالفرح لماذا وان كان العرض على الله حقاً فالمكر لماذا وان كان الشيطان عدواً فالغفلة لماذا وان كان كل شيء بقضاء وقدر فالحزن لماذا وان كانت الدنيا فانية فالطمأنينة اليها لماذا .

قيمة الدنيا مع الآخرة

ان الدنيا كتخطيط خريطة لبناء دار بعد لم تشيد فهي صورة والآخرة مثل دار قد شيدت و كملت وأثثت فهي مادة فقيمة الدنيا بلحاظ الآخرة كقيمة الخريطة بلحاظ الدار الجاهزة .

ومن خطبة لأمير المؤمنين (ع) ذكرها للتنفير عن الدنيا وعدم الغرور بها

وبوصف حالة أهلها في طلبها قال : « أقبلوا على جيفة افتضحوا بأكلها » وقد نظم الشاعر هذا المعنى وأجاد فيه فقال :

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فان تجتنبها كنت سلماً لأهلها وان تجتذبها نازعتك كلابها

وقال آخر :

يا طالب الدنيا يغرك وجهها ولتندمن إذا رأيت قفاها

وفي كتاب عيون أخبار الرضا (ع) بسنده عن ابي المغيرة قال : سمعت الرضا (ع) يقول :

إنك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل
ألا ترى الموت محيطاً بها يكذب فيها أمل الآمل
تعجل الذنب بما تشتهي وتأمل التوبة في قابل
والموت يأتي أهله بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل

وعن رسول الله (ص) انه قال : من عرضت له دنيا وآخرة فاختار الدنيا على الآخرة لقي الله يوم القيامة وليست له حسنة يتقي بها النار ومن اختار الآخرة وترك الدنيا رضي الله عنه وغفر له مساوئ عمله . ومعناه ان إقباله على الدنيا يوقعه في عظيم السيئات الآكلة لما عنده من الحسنات . كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : الناس في الدنيا عامل في الدنيا للدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته يخشى على من يخلفه الفقر ويأمنه على نفسه فيفني عمره في منفعة غيره وآخر عمل في الدنيا لما بعدها فجاءه ماله من الدنيا بغير عمله فأصبح ملكا لا يسأل الله شيئاً فيمنعه .

وعن الحسن (ع) انه قال لرجل : كيف طلبك للدنيا ؟ قال : شديد ، قال له : هل أدركت منها ما تريد ؟ قال : لا ، قال : فهذه التي تطلبها لم تدرك فكيف بالتي لم تطلبها .

وقال بعض ذوي المعرفة في معاداة الدنيا وأهلها شعراً :

الدهر كالبحر يعلو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس بكسف إلا الشمس والقمر

فمعاداة الدنيا للمؤمن ومعاداته لها ليست حطاً من شأن المؤمن بل هي الرفعة له كما هو مضمون هذا الشعر .

ولذا قد روي ان عيسى بن مريم (ع) جلس في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال (ع) : ما أنت أقمتني وإنما أقامني الذي لم يرض لي ان أتنعم في ظل الحائط .

وفي الروايات ان عيسى لما رفعه الله إلى السماء زارته الملائكة فوجدوا عليه قميصاً مرقعاً برقع كثيرة فضجوا وقالوا : إلهنا ليس يساوي عبدك عيسى عندك ثوباً صحيحاً فنودوا ان فتشوا عيسى ففتشوه فوجدوا في قميصه ابرة يرقع بها ما يخترق من قميصه فقال تعالى : فوعزتي وجلالي لولا ابرته لرفعته إلى السماء السابعة . والحالة انه هو القائل في زهده في الدنيا وقناعته منها كما في الانجيل اللهم ارزقني غدوة رغيفاً من شعير وعشية رغيفاً من شعير ولا ترزقني فوق ذلك فأطغى . وقال الصادق (ع) : إن الله عز وجل ليعتذر إلى عبده المحوج كان في الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه فيقول : وعزتي وجلالي ما أفقرتك لهوان بك علي فارفع هذا الغطاء فانظر ما عوضتك عن الدنيا فيكشف له عن بصره فيقول : ما ضرني يا رب ما زويت عني مع ما عوضتني .

وقيل لسلمان الفارسي : مالك لا تلبس الجيد من الثياب ؟ فقال : وما العبد والثوب الحسن فاذا أعتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً .

أهل المعرفة والتفكر في الدنيا

ذكروا ان رجلا صالحاً كان مصاحباً لسلطان الهند خرم شاه وكانت مداخله منه تبلغ في كل سنة أربعمائة الف دينار وكان ينفقها كلها في سبيل الله فسمع السلطان بذلك فطلبه وقال له : لابد وان يكون للانسان حظ من حب الدنيا وقد سمعت انك تنفق جميع مالك ولا تحبه ، فقال له : ايها السلطان والله لأني أحرص خواصك على حب المال لأني أريد أن آخذ جميع أموالي معي ولا أبقي لأحد منها شيئاً والناس يبذرون في أموالهم ويبقونها لغيرهم فأي حريص أحرص مني فقال السلطان له : صدقت . وقال الشاعر في هذا المعنى :

يبكي على الذاهب من ماله وإنما يبقى الذي يذهب

وان التفكر في الدنيا وتقلبها بأهلها من اعظم الروادع والزواجر عن الميل اليها وحبها ، ولذا قد ورد تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

وقد سأل الحسن الصيقل الصادق (ع) عن معنى ذلك التفكر فقال (ع) يمر بالخربة أو بالدار فيقول : أين ساكنوك أين بانوك مالك لا تتكلمين .

وقال الرضا (ع) : ليس العبادة بكثرة الصلاة والصيام إنما هي بالتفكر في أمر الله وبالتفكر يقصر الأمل وإذا قصر الأمل كثر العمل .

ومن عجائب تقلبها ماذكروه من ان خليفة من خلفاء بني العباس قد جعلوه خليفة يوماً واحداً ثم عزلوه في اليوم الآخر وأخذوا جميع ما عنده فاحتاج ذلك اليوم إلى ان يقف على باب المسجد ويتكفف الناس وكان يقول لهم : ارحموا من كان بالأمس أميركم واليوم سائلكم .

مقارنة بين التفكر والتنفس

فكما ان التنفس له أثران أحدهما إدخال النسيم الطيب على القلب وإبقاء اعتداله وسلامته ، ثانيهما إخراج الهواء الفاسد الحار المحترق عنه وبذلك يكون القلب عضواً صحيحاً مؤدياً لوظيفته الكاملة الصحيحة بالنسبة إلى المادة والبدن فكذلك الفكر له أثران أحدهما إيصال نسيم الحجة والبرهان إلى القلب وإبقاء اعتدال الايمان والمعرفة عليه ثانيهما إخراج الهواء الفاسد المتولد من الشبهات عن القلب وبذلك يكون القلب عضواً صحيحاً مؤدياً لوظيفته الكاملة الصحيحة بالنسبة إلى الروحيات .

وقد وجدت أبيات مكتوبة على قبر سيف بن ذي يزن تعطينا عبرة ونظرة عن مآل الدنيا وما يكون نتيجة أهلها منها وهي هذه :

من كان لا يطأ التراب برجله وطأ التراب بصفحة الخد
من كان بينك في التراب وبينه شبران كان بغاية البعد
لو بعثرت للناس أطباق الثرى لم يعرف المولى من العبد

وروي عن النبي (ص) انه قال : قال الله تعالى : إني وضعت خمسة أشياء في خمسة والناس يطلبونها في خمسة أخرى فمتى يجدونها اني وضعت العز في طاعتي والناس يطلبونه في ابواب السلاطين فمتى يجدونه ووضعت العلم والحكمة في الجوع والناس يطلبونه في الشبع فمتى يجدونه ووضعت الراحة في الجنة والناس يطلبونها في الدنيا فمتى يجدونها ووضعت الغنى في القناعة والناس يطلبونه بجمع المال فمتى يجدونه ووضعت رضاي في مخالفة الهوى والناس يطلبونه في الهوى فلم يجدوه .

ونظير ذلك ما ذكره في كتاب أنوار النعمانية عن الصادق (ع) انه قال

لبعض تلاميذه يوماً : أي شيء تعلمت مني ؟ قال : يا مولاي ثمان مسائل ، قال ﷺ : قصها علي لأعرفها ، قال :

(الأولى) رأيت كل محبوب يفارق محبوبه عند الموت فصرفت همي إلى من لا يفارقني وهو فعل الخير لقوله تعالى : « والباقيات الصالحات » ، قال (ع) : احسنت والله .

(الثانية) رأيت قوماً يفخرون بالحسب والنسب وآخرين بالمال والولد وإذاً لا فخر في ذلك ، ورأيت الفخر العظيم قوله تعالى : « إن اكرمكم عند الله أتقاكم » فاجتهدت ان اكون عند الله كريماً ، قال (ع) : أحسنت والله .

(الثالثة) رأيت الناس في لهوهم وطربهم وسمعت قول الله تعالى : « واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » فاجتهدت في صرف الهوى عن نفسي حتى استقرت على طاعة الله تعالى فقال (ع) : احسنت والله

(الرابعة) رأيت كل من حصل على شيء مكرم عنده اجتهد في حفظه وسمعت قول الله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » فأحببت المضاعفة ولم ار احفظ مما يكون عند الله تعالى فكلما وجدت شيئاً يكرم عندي وجهت به اليه ليكون لي ذخراً عنده إلى وقت حاجتي اليه ، فقال (ع) : أحسنت والله .

(الخامسة) رأيت حسد الناس بعضهم لبعض وسمعت قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » فلما عرفت ان رحمة الله خير مما يجمعون ما حسدت احداً ولا تأسفت على ما فاتني فقال (ع) : احسنت والله .

(السادسة) رأيت عداوة الناس بعضهم لبعض في دار الدنيا وسمعت قول

الله تعالى : « إن الشيطان لكم عدو مبين » فاشتغلت بمداوة الشيطان عن عداوة غيره ، فقال (ع) : احسنت والله .

(السابعة) رأيت كدح الناس واجتهادهم في طلب الرزق وسمعت قوله تعالى : « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » فعلمت ان وعـده حق وقوله صدق فسكنت إلى وعده ورضيت بقوله واشتغلت بما له علي عما لي عنده ، فقال ﷺ : احسنت والله .

(الثامنة) رأيت قوماً يتكلمون على ابدانهم وقوماً على كثرة اموالهم وقوماً على خلق مثلهم وسمعت قول الله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدراً » فاتكلت على الله وزال اتكالي عن غيره ، فقال (ع) : والله ان التوراة والانجيل والزبور والفرقان وسائر الكتب مشحونة بهذه المسائل .

ايضاح

قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » الآية في سورة الزخرف اي قسمناها بينهم حسب الحكمة والمصلحة ليس لأحد ان يتحكم في ذلك وان يغير ما قسمه الله لعباده من التوسعة على بعضهم والتقتير على آخرين فكم ترى عي اللسان قليل الحيلة موفوراً عليه رزقه وكم ترى طلق اللسان كثير الحيلة مضيقاً عليه رزقه وإضافة إلى الحكمة الغيبية ايضاً ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا اي ليسخر الغني الفقير في الأعمال او ليتسخر الفقير بنفسه للغني في اعماله كل ذلك لاقامة النظام ، لأنه لا يستقيم إلا بالغني والفقير معاً ، ثم قال تعالى بعد ذلك : « ورحمة ربك خير مما

يجمعون ، اي الأغنياء تسلية منه تعالى للفقراء وتوبيخاً للأغنياء في عدم بذلهم ومنعهم لحقوق الفقراء .

التحذير عن الدنيا من القرآن الكريم

قال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا »(١)

(المعنى) انه تعالى امر نبيه ان يضرب للناس مثلا موضحاً للدنيا تزهيداً فيها وترغيباً في الآخرة فهي كماء انزل من السماء فاختلط به نبات الأرض أي نبت به واخضر والتف بعضه ببعض يروق حسناً وغضاضة وله نظرة « فأصبح هشيما تذروه الرياح » أي كسيراً مفتتاً تنقله الرياح من موضع إلى موضع فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات فلا ينبغي لذوي العقول الاغترار بها « وكان الله على كل شيء مقتدراً » أي قادراً لا يجوز عليه الامتناع وان الذي شاهدتموه من قدرته ليس بحادث بل هو كذلك من الأزل كما هو مفاد كان الماضية وهذا مثل للمتكبرين الذين اغتروا بأموالهم واستنكفوا عن مجالسة الفقراء من المؤمنين اخبرهم تعالى بأن ما كان من الدنيا لا يراد به الله فهو كالنبت الحسن على المطر لا مادة له فهو يروق ما خالطه المطر فاذا انقطع عنه عاد هشيما لا ينتفع به ، ثم قال سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » أي يتفاخر ويتزين بهما في الدنيا ولا ينتفع بهما في الآخرة وكلاهما لايبقيان للانسان ، نعم يبقيان له فيما إذا صرف المال في وجوه البر والاحسان وفيما إذا ربي الولد تربية صحيحة وتغذى المعارف

(١) سورة الكهف الآية ٤٥ .

الالهية والكمالات الدينية فيكون ولداً صالحاً فيشمله الخبر القائل : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : عقار ينتفع منه المسلمون وكتاب علم ينتفع منه للدين وولد صالح .

ففي الأمالي عن النبي (ص) مر عيسى (ع) بقبر يعذب صاحبه ثم مر به من قابل فاذا هو ليس يعذب فقال : يا رب مررت بهذا القبر عام أول وهو يعذب ومررت به الآن وهو ليس يعذب فأوحى الله تعالى اليه يا روح الله انه قد ادرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيما فغفرت له بما عمل ابنه ، وحيث ان المال والولد لا يبقيان للانسان يقول رب العزة : « والباقيات الصالحات » إرشاداً منه تعالى إلى الأنفع لنا وهي الطاعات ، لأن الانسان يكون له رصيد واعتماد يرجع اليه في مهامه وحاجاته وهي المال والبنون والاخوان وكثيراً ما يخيب فيهم الأمل فلذا يقول سبحانه في وصف الصالحات : « خير عند ربك ثواباً وخير أملا » لاستمرارها وعدم انقطاعها وأصدق أملا من المال والبنين وسائر زهرات الدنيا لكذب تلك وصدق هذه ، لأن من عمل طاعة وجد ما يأمله عليها من الثواب عند الله تعالى ، وقيل : إن الصالحات هي ما كان يفعله سلمان وصهيب وفقراء المسلمين وهو قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ، فانهن من الباقيات الصالحات .

وروي ان النبي (ص) قال لجلسائه : خذوا جنتكم فقالوا : أحضر عدو ؟ قال (ص) : خذوا جنتكم من النار ، قولوا سبحان الله ... الخ ، فانهن المقدمات وهن المنجيات وهن المعقبات وهن الباقيات الصالحات .

وروي عنه (ص) انه قال : إن عجزتم عن الليل ان تكابدوه وعن العدو ان تجاهدوه فلا تعجزوا عن قول سبحان الله ... الخ ، فانهن من الباقيات الصالحات فقولوها ، وقيل : هي الصلوات الخمس .

وروي ايضاً ان من الباقيات الصالحات القيام بالليل لصلاة الليل ، وقيل : هي البنات الصالحات .

وفي كتاب ابن عقدة ان ابا عبدالله (ع) قال للحصين بن عبد الرحمن : يا حصين لا تستصغروا مودتنا فانها من الباقيات الصالحات ، قال : يابن رسول الله ما أستصغرها ولكن أحمد الله عليها .

وفي كتاب عيون أخبار الرضا (ع) (١) بسنده عن الرضا عن آبائه (ع) قال رسول الله (ص) : من أحب ان يركب سفينة النجاة ويستمسك بالعروة الوثقى ويعتصم بحبل الله المتين فليوال علياً بعدي وليعاد عدوه وليأتم بالأئمة الهداة من ولده فانهم خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي وسادة أمتي وقادة الأتقياء إلى الجنة حزبهم حزبي وحزبي حزب الله عز وجل وحزب أعـــدائهم حزب الشيطان .

وختام معنى الآية ان الطاعات إنما سميت بالصالحات لأنها أصلح الأعمال للمكلف من حيث أمر بها ووعد الثواب عليها وتوعد بالعقاب على تركها والأولى حمل معنى الباقيات الصالحات على العموم وجميع المعاني التي ذكرت حيث لا مانع من ذلك .

آية اخرى في مقارنه الدنيا بالاخرى

قال تعالى : « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (٢) .

(١) ص ٢٩٢ . (٢) سورة الأعلى الآية ٩ .

قيل في تفسيره إن : إن بمعنى قد أي قد نفعت لأن مواعظ النبي (ص) كانت مؤثرة في عمل الايمان والامتناع عن العصيان فهو بمعنى انك استمر على التذكير فانه نافع حتى لغير المتعظ فانه لابد وان يتعظ يوماً ما ونافع للمتعظ ايضاً لأنه يزيد في طاعته وانتهائه عن المعصية ، وان الموعظة من أفضل الهدايا للمسلم ولمن عرف ثمرتها .

ففي الغرر نعم الهدية الموعظة ، وفي الارشاد عن النبي (ص) ما أهدى المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة تزيده هدى او ترده عن ردى ، وقال ﷺ : نعم العطية ونعم الهدية الموعظة .

وفي الكافي عنه (ص) أحب اخواني إلي من أهدى إلي عيوبي ، ويحق ان تكون الموعظة كذلك لأن بها يحصل على خير الدارين وكذلك الواعظ فانه يكفي من كسبه ما قاله النبي (ص) لأمير المؤمنين (ع) : يا علي لأن يهدي بك الله رجلا احب مما طلعت عليه الشمس ، وان ربنا رب العزة قد صار واعظاً كما نجده في اكثر كتابه العزيز ولهذا قد أمر نبيه الكريم بقوله تعالى : فذكر إن نفعت وإن لم تنفع على قول في معنى إن لأنها إن نفعت فذاك المطلوب وإن لم تنفع فهو حجة عليه لينقطع عذره يوم القيامة فيستحق أليم العذاب كما قد نبه سبحانه على الحالتين بقوله : « سيذكر من يخشى » أي يخشى الله ويخاف عقابه وان للخشية منه تعالى أجراً عظيما .

فعن الرضا (ع) عن أبيه موسى (ع) قال : قال الصادق (ع) : إن الرجل ليكون بينه وبين الجنة اكثر مما بين الثرى والعرش لكثرة ذنوبه فما هو إلا ان يبكي من خشية الله عز وجل ندماً عليها حتى يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إلى مقلته ، وبهذا الاسناد قال الصادق (ع) : كم ممن كثر ضحكه لاعباً يكثر يوم القيامه بكاؤه وكم ممن كثر بكاؤه على ذنبه خائفاً يكثر يوم القيامة في

الجنة سروره وضحكه « ويتجنبها الأشقى » أي الموعظة ، وقيل : إن الأشقى الذي يتجنب الموعظة مع خوفه حيث ان شيطانه قد تمكن منه ونفسه قد ملكته فهو مكب على شهواته وارتكاب معاصيه مع كونه خائفاً من العذاب ومعتقداً سوء المآب ، فهذا هو الأشقى « الذي يصلى النار الكبرى » وهي نار جهنم لأنها اكبر النيران ، وقيل : إن معنى الكبرى هي الطبقة السفلى من جهنم « ثم لايموت فيها » فيستريح « ولا يحيى » حياة ينتفع بها بل تكون حياته وبالا عليه يتمنى زوالها لما هو فيه من فنون العقاب وألوان العذاب ، وقيل : معناه لا يجد روح الحياة « قد أفلح من تزكى » أي زكى نفسه من الشرك واتصف بالأعمال الصالحة وزيادة الورع ، وقيل : معناه من اعطى زكاة ماله كي لا يتلوث غذاؤه فيكون مفلحاً « وذكر اسم ربه » أي وحده ، وقيل : ذكره في قلبه عند صلاته فرجا ثوابه وخاف عقابه ، وهذا ماتواترت فيه الأخبار الآمرة باحضار القلب واستجماع الحواس في الصلاة فان مقدار الخشوع في الصلاة بمقدار الخوف والرجاء فكلما زاد خوف الانسان من شيء زاد حضوره في قلبه وكذلك كلما زاد الرجاء والأمل في أحد زاد حضوره أيضاً في قلبه ، ويوضح ذلك ما نحن عليه بالنسبة إلى أفراد أبناء الدنيا حيث نخافهم او نرجوهم كيف نرى انهم لا يغيبون عن أذهاننا طرفة عين ولذا يقول سبحانه على أثر ذلك : « بل يؤثرون الحياة الدنيا » لعلمه تعالى بما انطبعت عليه نفوسنا من حب العاجلة أي لا ترتبون هذه الآثار بالنسبة إلى خوف الله ورجائه كما ترتبونها بالنسبة إلى أبناء الدنيا ثم قال جل شأنه في بيان الواقع والحق : « والآخرة خير وأبقى » أي أفضل وأدوم فلا ينبغي لذوي العقول ان يختاروا الأدون نوعاً والأقصر عمراً ، والخلاصة ان الآخرة والدنيا ضدان لا يجتمعان ، في الحديث من احب آخرته أضر بدنياه ومن احب دنياه أضر بآخرته ، ولذا لما دخل سويد بن غفلة على امير المؤمنين (ع) في الكوفة

وقد وجده جالساً على حصير صغير في أيام خلافته. والأموال تجبى اليه من كل صوب فنظر سويد إلى اطراف الدار فلم يجد شيئاً فيها سوى تلك الحصير فقال: يا سيدي أين أثاث داركم ومتاعكم ؟ فقال (ع) : إن لنا داراً اخرى قد نقلنا أثاثنا ومتاعنا اليها قال : وأين تكون داركم الجديدة ؟ قال (ع) : هي در البقاء

وفي رواية انه قال له : يابن غفلة ان اللبيب لا يتأثث في دار النقلة ولنا دار أمن نقلنا خير متاعنا اليها وإنا عن قليل اليها صائرون ، نعم ان ذوي اللب يحتمون من الأمراض قبل عروضها وحيث انهم علموا ان التوسع من الدنيا مما يقسي القلوب لذا تراهم لا يدخرون منها شيئاً كي لا يمرضوا بقساوة القلب المسببة لمفاسد كثيرة ، ومنها النفاق كما ذكرنا فيحتاجوا حينئذ إلى علاجها بالزهد في الدنيا من جديد وبالتوبة مما مضى كي لا تجرهم القسوة إلى النفاق وقد انذر الله عباده عن هذا في الحديث القدسي يابن آدم لا تكن ممن يطوي التوبة بطول الأمل ويرجو الآخرة بغير عمل يقول قول الزاهدين ويعمل عمل المنافقين « أي ان ظاهره لا يوافق باطنه » إن اعطي لم يقنع وإن منع لم يصبر يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر ولا ينتهي عنه ويحب الصالحين وليس منهم ويبغض المذنبين وهو منهم .

المنافقون في صفاتهم والوانهم

قال الله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا ان اغناهم الله من فضله فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم عذاباً أليما في الدنيا والآخرة وما لهم من ولي ولا نصير ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من

فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً إلى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وإن الله علام الغيوب » (١) .

النزول فيمن ؟

اختلف فيمن نزلت هذه الآية فقيل : إن رسول الله (ص) كان جالساً في ظل شجرة فقال : سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعيني الشيطان فلم يلبثوا ان طلع عليهم رجل ازرق فدعاه رسول الله (ص) فقال : علىم تشتمني انت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا فأنزل الله هذه الآية عن ابن عباس

وقيل : خرج المنافقون مع رسول الله (ص) إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله (ص) وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله (ص) فقال لهم : ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ فحلفوا بالله ما قالوا شيئاً من ذلك .

وقيل : نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت وذلك ان رسول الله (ص) خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين وسماهم رجساً وعابهم فقال الجلاس : والله لئن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فأخبر رسول الله (ص) بما قال الجلاس ، فقال : كذب يا رسول الله ، فأمرهما (ص) ان يحلفا عند المنبر فحلف الجلاس عند المنبر بالله انه ما قال ، ثم قام عامر فحلف بالله لقد قاله ، ثم قال : اللهم انزل على نبيك الصادق مَن الصادق منا فقال رسول الله والمؤمنون : آمين ، فنزل جبرئيل قبل ان يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا

(١) سورة التوبة الآية ٧٤ .

يك خيراً لهم ، فقام الجلاس فقال : يا رسول الله اسمع الله لقد عرض علي التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقـد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب اليه فقبل رسول الله (ص) ذلك منه .

وقيل: نزلت في عبدالله بن أبي بن سلول حين قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وقيل : نزلت في اهل العقبة فانهم إئتمروا في ان يغتالوا رسول الله (ص) في عقبة عند مرجعهم من تبوك وأرادوا أن يقطعوا انساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلعه الله على ذلك وكانت من جملة معجزاته حيث لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي فسار رسول الله (ص) في العقبة وعمار وحذيفة معه أحدهما يقود ناقته والآخر يسوقها وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي ، وكان الذين هموا بقتله اثني عشر رجلا او خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه وقد عرفهم رسول الله (ص) وسماهم بأسمائهم واحداً واحداً والقصة مشروحة في كتاب الواقدي ، وقال الباقر عليه السلام كانوا ثمانية من قريش وأربعة من العرب .

(المعنى) أظهر تعالى أسرار المنافقين وانهم قد حلفوا كاذبين وحكى سبحانه عنهم انهم قد قالوا كلمة الـكفر وهي جحودهم لنعم الله تعالى وطعنهم في الاسلام وأقسم على ذلك تعالى شأنه لأن اللام في قوله : ولقد للقسم « وكفروا بعد إسلامهم » أي ظهر كفرهم بعد ان اظهروا الاسلام أولا « وهموا بما لم ينالوا » أي بقتل النبي (ص) ليلة العقبة والتنفير بناقته او إخراجهم الرسول من المدينة او بالفساد والتضريب بين أصحابه ، وكل ذلك لم يبلغوه ولم ينالوه بعناية الله تعالى به وبالمسلمين « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » أي انهم عملوا بضد الانصاف وما يجب عليهم فجعلوا موضع شكر النعمة ان نقموا وأرجفوا حيث انه لم يكن لرسول الله ولا للمسلمين ذنب معهم بل انهم لم يعارضوا حتى في

إباحة الله ورسوله لهم الغنائم فقابلوا النعمة بالكفران وكان من حقهم ان يقابلوها بالشكر وهذا البيان أبلغ في الطعن عليهم والتحذير منهم وانهم اناس قد انطبعت قلوبهم على الاجرام والنفاق ولا يجدي معهم أي إحسان، ثم قال تعالى : « فان يتوبوا يك خيراً لهم » في الدنيا والآخرة وينالوا بذلك رضاء الله ورسوله فاتحاً لهم سبحانه طريق الرجعة رأفة منه وحناناً على النادمين وقطعاً للعذر وبرهاناً على المصرين «وأن يتولوا» ويعرضوا عن الرجوع إلى الحق وسلوك الطريق المستقيم « يعذبهم الله عذاباً أليما » أي مؤلماً « في الدنيا » بما ينالهم من الفضيحة وسوء الذكر « وفي الآخرة » بعذاب النار « وما لهم في الأرض من ولي » أي محب « ولا نصير » ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله .

لون آخر من النفاق

ثم قال تعالى على أثر ذلك : « ومنهم من عاهد الله » الآية « نزولها » قيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب وكان من الأنصار فقال للنبي (ص) : ادع الله ان يرزقني مالا ، فقال : يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه أما لك برسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت ان تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله ﷺ : اللهم ارزق ثعلبة قال : فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثم كثرت نمواً حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة وبعث رسول الله (ص) اليه المصدق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال : ما هذه إلا أخت الجزية فقال رسول الله (ص) : يا ويح ثعلبة

وأنزل الله الآيات عن أبي أمامة الباهلي ، وقيل : إن ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن أتاني الله من فضله تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه ووصلت منه القرابة فابتلاه الله فمات ابن عم له فورثه مالا ولم يف بما قال فنزلت الآيات عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف قالا : لئن رزقنا الله مالا لنصدقن ، فلما رزقهما الله المال بخلا به .

وقيل : نزلت في رجال من المنافقين نبتل بن الحارث وجد بن قيس وثعلبة ابن حاطب ومعتب بن قشير .

وقيل : نزلت في حاطب ابن ابي بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عليه وجهد جهداً شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدقن فأتاه الله ذلك فلم يفعل .

(المعنى) إن الله اخبر عن المنافقين بلون آخر من نفاقهم فقال : « ومنهم » أي ومن جملة المنافقين الذين تقدم ذكرهم «من عاهدالله...الخ» أي حلف بعهدالله تعالى ان اعطاه الله مالا ليواسي به الفقراء وينفقه في سبيل الله وعندما اعطاهم بخلوا به وشحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد وأعرضوا عن دين الله تعالى « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم » أي أورثهم بخلهم النفاق راسخاً في قلوبهم كأنهم حصلوا على النفاق بسبب البخل .

وقيل : إن معناه أعقبهم الله بذلك حرمان التوبة كما حرم إبليس وأراد بذلك الأخبار عنهم بأنهم لايتوبون لا ان الله سلبهم قدرة التوبة بل ان الاختيار باق معهم « إلى يوم يلقونه » أي يلقون جزاء البخل وعلى القول الثاني معناه إلى يوم يلقون الله ، أي اليوم الذي لا يملك النفع والضر فيه إلا هو ، وهذا إخبار من الله على لسان رسوله بأنهم يموتون على النفاق وكان معجزة للنبي (ص) « بما أخلفوا الله ... الخ » أي ان هذا إنما أصابهم بفعلهم السيء وإخلافهم الوعد

وكذبهم على الله وعلى رسوله « ألم يعلموا » أي المنافقون « إن الله يعلم سرهم » أي ما يخفون في انفسهم « ونجواهم » أي ما يتناجون به فيما بينهم ويراد بهذا الاستفهام التوبيخ ، أي يجب عليهم ان يعلموا ذلك « وإن الله علام الغيوب » وهو كل ما غاب عن الاحساس ، وفي قوله تعالى : فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم دلالة على أن بعض المعاصي قد تدعو وتجر إلى معاص اخرى أعظم كالنار إذا أهمل قليلها يجر إلى كثيرها لأنهم لما تهاونوا عن أداء الحق وتلويث قلوبهم بالحرام دعاهم ذلك إلى العناد والثبات على النفاق إلى الممات وكذلك العكس فان بعض الطاعات تجر إلى بعض أهم إذا تعود على الأقل .

وفيه دلالة ايضاً على ان الاخلاف والخيانة والكذب من اخلاق اهل النفاق لأن صافي القلب لا تسمح له نفسه وذاته بارتكاب هذه الصفات الرذيلة .

علامات النفاق

فقد صح عن النبي (ص) انه قال : للمنافق ثلاث علامات ، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان .

المنافق ينفث سمه عند الفرصة

وقد تتبع سبحانه وتعالى احوال المنافقين وفضح مؤامراتهم وكشف اسرارهم وهتك سرائرهم في كل آونة واخرى وفي كل مناسبة حاولوا فيها تسميم افكار المؤمنين وتنفيرهم عن رسول رب العالمين وتفريق كلمة المسلمين اراد عز وجل بذلك جمعهم على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة تنزيهاً لذواتهم وتقوية

لشوكتهم غير ان النفوس مريضة والأرواح عليلة وقد تأصل فيها النفاق وتركز فيها الغيض والحسد فلم تعد تلك المعجزات تزيلها وهاتيك العظات تجليها ولكن الخوف والارهاب قد سيطر عليها فصبرت على مضض طيلة حياة النبي (ص) ومدة نزول الوحي ثم هاجت نافثة سمومها مظهرة اضغانها آخذة من النبي ديونها منفذة بأهل بيته اهدافها مرغمة من المؤمنين انوفها سالبة من المسلمين حقوقها مميتة من معالم الدين لبابها ملتزمة زبارجها وألفاظها وان الله لهم بالمرصاد في الدنيا والآخرة معاً فقال تعالى : « وإذ يقول المنافقون الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » (١) ، وفي هذه القصة نزل ايضاً قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب » (٢) ، ذكرناها بطولها لما تتضمن من جليل المباحث وعظيم الفوائد .

فضل قراءتها

روى جعفر بن محمد عن ابيه عن آبائه (ع) عن النبي (ص) انه قال : لما اراد الله ان ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي و « شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (٣) ، و « قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب » تعلقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب وقلن يا رب تهبطنا إلى دار الذنوب وإلى من يعصيك ونحن متعلقات بالطهور وبالعرش فقال : وعزتي وجلالي ما من عبد قرأكن في دبر كل صلاة

(١) سورة الأحزاب الآية ١٢ . (٢) و (٣) سورة آل عمران الآية ٢٦ و ١٨

مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه وإلا نظرت اليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة وإلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلا ان يموت .

وقال معاذ بن جبل : احتبست عن رسول‌الله (ص) يوماً لم أصل معه الجمعة فقال : يا معاذ ما يمنعك من صلاة الجمعة ؟ قلت : يا رسول الله كان ليوحنا اليهودي علي اوقية من تبر وكان على بابي يرصدني فأشفقت ان يحبسني دونك قال (ص) : أتحب يا معاذ ان يقضي الله دينك ؟ قلت : نعم يا رسول الله قال : قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب يا رحمن الدنيا ورحيمها تعطي منهما ما تشاء وتمنع منهما ما تشاء اقض عني ديني فإن كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداه الله عنك .

النزول

قيل : لما فتح رسول الله (ص) مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون : واليهود هيهات من أين لمحمد (ص) ملك فارس والروم ألم يكفه المدينة ومكة حتى طمع في الروم وفارس فنزلت هذه الآية عن ابن عباس وأنس بن مالك وقيل : إن النبي (ص) خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة اربعين ذراعاً فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلا قوياً فقال المهاجرون: سلمان منا وقال الأنصار : سلمان منا فقال النبي (ص) : سلمان منا اهل البيت قال عمر بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة ونعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في اربعين ذراعاً فحفرنا حتى إذا كنا بجب ذي ناب اخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا : يا سلمان إرق إلى

رسول الله واخبره خبر هذه الصخرة فاما ان يعدل عنها فان المعدل قريب واما ان يأمرنا فيه بأمره فانا لا نحب ان نجاوز خطه ، قال : فرق سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال : يا رسول الله خرجت علينا صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحتك فيها قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فانا لا نحب ان نجاوز خطك قال : فهبط رسول الله (ص) مع سلمان الخندق والتسعة على شفة الخندق فأخذ رسول الله ﷺ المعول من يد سلمان فضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق اضاء مابين لابتيها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله (ص) تكبيرة فتح وكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله (ص) الثانية فكسرها وبرق منها برق اضاء ما بين لابتيها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله (ص) تكبيرة فتح وكبر المسلمون ثم ضربها رسول الله (ص) الثالثة ففلقها فبرق منها برق اضاء ما بين لابتيها حتى لكان مصباحاً في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح وكبر المسلمون وأخذ بيد سلمان ورقى فقال سلمان : بأبي انت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت منك قط فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال : رأيتم ما يقول سلمان ، قالوا : نعم يا رسول الله قال : ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم اضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبرئيل ان امتي ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم اضاءت لي منها قصور حمر من ارض الروم كأنها انياب الكلاب واخبرني جبرئيل ان امتي ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم اضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها انياب الكلاب واخبرني جبرئيل ان امتي ظاهرة عليها فابشروا فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون : ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم

الباطل ويخبركم انه يبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح لكم وانتم إنما تحفرون الخندق من الفرق (الخوف) ولا تستطيعون ان تبرزوا فنزل القرآن « وإذ يقول المنافقون » الآية وقد نزل ايضاً فيها قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك » الآية رواه الثعلبي باسناده إلى عمر بن عوف .

(المعنى)

يا الله المالك لكل ملك فكل مالك دونك هالك . وقيل : معناه مالك العباد وما ملكوا . وقيل : امر الدنيا والآخرة . وقيل : مالك النبوة « تؤتي الملك » أي تعطي وتنزع الملك أي تقطعه عمن تشاء على ما توجبه الحكمة وتقتضيه المصلحة واختلف في المقصود منها فقيل : تؤتي الملك وأسباب الدنيا محمداً (ص) وأصحابه وأمته وتنزعه عن صناديد قريش ومن الروم وفارس فلا تقوم الساعة حتى يفتحها اهل الاسلام .

وقيل : إن المقصود تؤتي النبوة والامامة من تشاء من عبادك وتوليه التصرف في خلقك وبلادك وتنزع الملك من الجبارين بقهرهم وإزالة ايديهم فان الكافر والفاسق وان غلب او ملك فليس ذلك بملك قد آتاه الله لقوله تعالى : لاينال عهدي الظالمين ، وكيف يكون ماعند الظالم من السلطنة من إيتاء الله تعالى له والحالة انه عز وجل قد أمر بقصر يده وإزالة ملكه .

نعم هو مما يعلمه الله وقد مر تحقيق الفرق بين مايعلمه وبين مايريده تعالى فراجع « وتعز من تشاء » بالايمان والطاعة « وتذل من تشاء » بالكفر والمعاصي فانه لا أذل من ذلك كما انه لا اعز من الايمان .

وقيل : تعز محمداً (ص) وأصحابه وتذل أبا جهل واضرابه من المقتولين يوم بدر .

وقيل : معناه تعز من تشاء من اوليائك بأنواع العز في الدنيا والدين وتذل من تشاء من اعدائك في الدنيا والآخرة ، لأن الله لا يذل اولياءه وان افقرهم وابتلاهم فانه ليس ذلك منه على سبيل الاذلال بل ليكرمهم بذلك في الآخرة ويعزهم ويجلهم غاية الاعزاز والاجلال يوم الحسرة والندامة على ان ذلك حتى في الدنيا هو إعزاز لهم حيث انه يظهر للخلائق ركيزة إيمانهم وعميق وثوقهم بربهم وجليل نفسياتهم بصبرهم وثباتهم وصمودهم على الحق والطاعة «بيدك الخير» أي الخير كله في الدنيا والآخرة هو من قبلك «انك على كل شيء قدير» لايعجزك شيء تقدر على إيجاد المعدوم وإفناء الموجود وإعادة ما كان موجوداً «تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل» في تفسير معناه قولان :

(أحدهما) ينقص من الليل فيجعل ما ينقصه زيادة في النهار وبالعكس على قدر الزيادة والنقصان حسب الفصول بحيث إذا نقص في هذا النهار ثانية زاد في ليلتها ثانية فهذا معنى إدخال أحدهما في الآخر .

(ثانيهما) تدخل أحدهما في الآخر بمعنى إتيانه بدلا منه في مكانه «وتخرج الحي من الميت» أي من النطفة وهي ميتة بدليل قوله تعالى : وكنتم أمواتاً فأحياكم «وتخرج الميت من الحي» أي النطفة من الحي وهو الانسان وكذلك الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة .

وقيل : إن معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن لأن الايمان هو الحياة والكفر هو الممات واقعاً «وترزق من تشاء بغير حساب» أي بغير تقتير

وقيل : معناه بغير مخافة نقصان لما عنده لعدم نهاية مقدوراته فما يؤخذ منها لا ينقصها .

وقيل : المراد بهم اهل الجنة لأنه يرزقهم رزقاً لا يتناول الحساب والعد ولا الاحصاء ويطابقه قوله تعالى : فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب

عاقبة المنافقين

قال الله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون صم بكم عمي فهم لايرجعون» (١) مثل ضربه عز وجل للمنافقين بعد ان استضاءوا بنور الاسلام رجعوا بقلوبهم ولم يلتزموا بمعالم الدين وأحكامه ويمكن ان يكون مثالا لكل من لايستفيد بما علمه ولا يتعظ بما سمعه بتعميم ملاك الآية لأن الانسان العاقل إذا فهم شيئاً فيه خير له لابد وان يزاوله ويراجعه ويكرره ويعمل على طبقه ويستفيد من خيراته المودعة فيه وان يزداد علمه وعمله يوماً فيوماً ويكون أشد إتقاناً كالعامل للدنيا بصنعة او مهنة أليس في كل يوم يروم ان يكون عمله اكثر وأتقن من سابقه حتى يكون أستاذاً في مهنته ومعلماً في صنعته فهكذا ينبغي لعامل الآخرة ان يكون عمله آخذاً في ازدياد وإتقان حتى يكون مؤمناً وولياً لله تعالى ومرشداً لعباده ولا ينبغي له الجمود والاقتصار على القدر الذي فهمه وعلمه ويبقى دائماً متعلماً ومحتاجاً لغيره كما لا يرضى لنفسه الجمود بالنسبة إلى منافع الدنيا وحتى الغير من ذويه وإخوانه لا يرضون له بالجمود ويلومونه على عدم تقدمه فقد شبه تعالى المنافقين بالصم والبكم والعمي في عـدم الاستفادة من أنوار الدين ومعارف الاسلام لما انطبعت عليه قلوبهم من الظلام بفاقد الضياء بعد الاستضاءة به .

(١) سورة البقرة الآية ١٦ .

الفصل الثالث في الكبر

الكبر والتكبر والفرق بينهما هو ان الكبر حالة نفسانية باطنية لها آثار ظاهرية فما دامت كامنة بدون ظهور آثارها في الخارج تسمى بالكبر وإذا ظهرت آثارها وامتدت فروعها وأورقت اغصانها تسمى بالتكبر .

اما الكبر فهو ان يرى لنفسه ميزة على غيره تستوجب في نظره تعظيمه وتقديمه على من سواه .

واما التكبر فكالترفع عن مواكلة الغير وعن مجالسته مثلا والامتناع عن الجلوس إلى جنبه وعدم الالتفات اليه عند المذاكرة والمحاورة وأشباه ذلك وهو من آثار العجب واتساعه ، لأن معناه هو ان يرى لنفسه عظمة فقط دون ان يكون أعظم من الغير .

واما الكبر فمعناه ان يرى نفسه اعظم من الغير فيستدعي ان يكون هناك غير ، وعلى كل حال فهو من الآفات العظيمة والغوائل المهلكة ، لأنه يجر بصاحبه إلى كل رذيلة إلى إنكار الحق إلى الكذب إلى الظلم إلى الغضب فيما إذا لم يحصل التعظيم لنفسه إلى الحسد فيما إذا عظم الغير دونه إلى الحقد الى الازدراء بالناس وقد ورد الذم له من القرآن والاخبار الكثير فمن القرآن قوله تعالى : « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (١) ، أي مثل ما طبع على قلوب أولئك الذين سبق ذكرهم بالكفر وهم قوم نوح وعاد وثمود كذلك المتكبر الجبار حاله حال الكافرين والطبع على القلب الختم عليه عقوبة له على ما يحمل من العزة والعظمة والتجبر على عباد الله الذين هم يشار كونه في أمه وأبيه ومبتدئه ومنتهاه ولربما

(١) سورة المؤمن الآية ٣٢ .

كانوا يفضلونه إذا كانوا قد نزهوا قلوبهم عن صفة الكبر الرذيلة وان الطبع على القلب كناية عن عدم التوفيق بسبب استيلاء ظلام التكبر عليه بما بيناه سابقاً من ان الكبر يجر الى كل رذيلة فهو داعماً يجلب الى القلب مايزيده ظلاماً وقساوة فلا يجدي معه وعظ ولا إرشاد .

آية اخرى في تقرير المصير للمتكبر

قال تعالى : « ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين »(١) فكأنهم يدخلون من ابواب جهنم السبعة كلها لا من باب واحد تغليظاً للعقوبة والخلود هو التأبيد ومعناه انه لا انقطاع لمكثهم فيها ولا نهاية لعقابهم بها وقد قيل إنما جعل لجهنم ابواب كما جعل لها دركات تشبيهاً بما يتصور الانسان في الدنيا من المطابق والسجون والمطامير بمراتبها فان ذلك اهول واعظم في الزجر لمن له فكر ، ثم قال تعالى بعدما بين مصيرهم ومهد مقرهم : « فبئس مثوى المتكبرين » أي بئس مقام الذين تكبروا وتجبروا عن الانقياد إلى الله والانصياع إلى احكامه وتعاليمه .

آية اخرى تحكم بعدم بلوغ المتكبر لمقاصده

قال تعالى : « إن في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه » (٢) ، أي انهم عرفوا الحق وميزوا بينه وبين الباطل ، لكن في صدورهم عظمة وتكبر على محمد ﷺ وجبروتية ما هم ببالغي مقتضى العظمة وما تطلبه نفوسهم القذرة لأن الله

(١) و (٢) سورة المؤمن الآية ٢٦ و ٥٦ .

تعالى مذلهم وعالم بعدم لياقتهم لرعاية خلقه بما انطوت عليه جوانحهم من الصفات الخسيسة وركيزتها الكبر لأنه كما ذكرنا يدفع بحامله إلى سائر القبائح من الأعمال وظلم غيره حتى لو كان غيره يستحق التقدم عليه .

آية اخرى مفادها

حرمان المتكبر من الالطاف

قال تعالى: « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » (١) قيل في معنى الصرف : منعهم عن إبطالها ومعارضتها او تبليغها او الاستفادة منها والاستنارة من تعاليمها وعلومها وخص بها الأنبياء والمؤمنين لأنهم اهلها وان قلوبهم لنزاهتها تكون معادنها ولا يكون منعهم عن الالطاف خلاف العدل لأنه قد علم باستيلاء الكبر على قلوبهم كما ذكرنا فلا يجدي معهم لطف إلا على طريقة الجبر وهي خلاف العدل وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى على أثرها « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها » وقوله تعالى : « بغير حق » فيه بيان التكبر لا يكون إلا بغير الحق لأن مصاحب الحق لا يتكبر .

آية اخرى تفيد تعجيز المتكبرين

قال تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » (٢) ، قوله في غمرات الموت ، أي شدائد

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٦ . (٢) سورة الأنعام الآية ٩٣ .

الموت عند النزع والملائكة تبسط أيديها لقبض أرواحهم او بالعذاب يضربون بها وجوههم وأدبارهم كسائق الحمار قائلين لهم : اخرجوا أنفسكم من سكرات الموت ان استطعتم وصدقتم فيما ادعيتم من التكبر وعدم الانقياد فلينفعكم تكبركم وليجد كم تجبر كم ، وقيل : إن معناه اخرجوا أرواحكم من أجسادكم عند معاينة الموت إرهاقاً لهم وتغليظاً عليهم وإن كان الاخراج من فعل غيرهم او ان المعنى اخرجوا أنفسكم من النار وخلصوها ان تمكنتم « اليوم تجزون عذاب الهون » أي عذاباً تلقون فيه الهوان والذلة كل ذلك نتيجة التكبر والأنفة عن اتباع الحق كما قال في آخر الآية مبيناً للعلة : « وكنتم عن آياته تستكبرون » .

ونكتفي بهذا المقدار من آيات القرآن الكريم في الردع عن صفة التكبر وإن كانت كثيرة وكثيرة .

وأما الآثار في ذم المتكبر الجبار

قال رسول الله (ص) : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر نقل من الكافي .

وقال (ص) : من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان

وقال (ص) : يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطأهم الناس ذراً في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار شر نار يسقون من طينة خبال وعصاره أهل النار .

وفي حديث قدسي من تكبر على مسكين حشرته يوم القيامة على صورة ذرة تحت أقدام الناس .

وفي حديث آخر اطلبوا رضائي برضاء المساكين فان رضائي لا يفارقهم طرفة عين .

وقال رسول الله (ص) : إن في جهنم وادياً يقال له هبهب حق على الله ان يسكنه كل جبار .

وقال (ص) : إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم .

وقال (ص) : لا ينظر الله إلى رجل يجر ازاره بطراً .

وقال (ص) : قال الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة أزاري فمن نازعني في واحد منها ألقيته في جهنم .

وقال (ص) : لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الخلق .

وقال (ص) : لا يزال الرجل يذهب بنفسه (أي يتمادى في كبره) حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب .

وقال (ص) : يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصورين .

وقال (ص) : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، شيخ زان وملك جبار ومقل مختال .

وقال (ص) : بئس العبد عبد تبختر واختال ونسي الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى .

وقال (ص) : ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ جعظري متكبر (١) .

وقال (ص) : إن أبغضكم الينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون

---

(١) الجواظ المتكبر الجافي والجعظري الفظ الغليظ .

المتفيهقون (١) ، وقال عيسى بن مريم (ع) : كما ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمر في القلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ألا ترون انه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجه ومن يطأطىء أظله وأ كنه .

ولما حضرت نوحاً الوفاة دعا ابنيه فقال : إني آمركما باثنتين وانهاكما عن اثنتين انهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله ، وسبحان الله وبحمده .

وقال سليمان بن داود (ع) يوماً للطير والجن والانس والبهائم : اخرجوا فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتاً يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته .

وقال أبو جعفر (ع) الكبر رداء الله والمتكبر ينازع الله رداءه .

وقال (ع) : العز رداء الله والكبر أزاره فمن تناول شيئاً منه أ كبه الله في جهنم .

وقال الصادق (ع) : إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله شدة حره وسأله ان يأذن له ان يتنفس فتنفس فأحرق جهنم .

وقال (ع) : إن المتكبرين يجعلون في صور الذر يتوطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب .

وقال (ع) : ما من رجل تكبر او تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه . فياله من حكيم محلل لأن العزيز في نفسه والكبير في قومه والمكرم عند الناس غني عن التكبر عليهم لأنه أشبه بطلب تحصيل الحاصل نعم يتكبر ويتجبر من لم يكن له استحقاق ذلك .

وقال الصادق (ع) : إن في السماء ملائكة موكلين بالعباد فمن تواضع رفعاه ومن تكبر وضعاه . وما تركناه من الأخبار في ذم الكبر اكثر .

---

(١) المتكبرون .

العلاج للكبر

هو استعراض مفاد هذه الآثار بالاضافة إلى مضامين الآيات السابقة فيجد نفسه بعيداً عن الخير كل البعد بل انه من أهل جهنم على سبيل القطع واليقين قريناً للكافرين والمشركين اضافة الى كونه ثقيلا وممقوتاً في الدنيا عند الناس أجمعين هذا أولا وإذا أضاف الى ذلك ما ورد في مدح المتواضعين كان العلاج أقوى والوصفة أنفع كقول النبي (ص) لأصحابه : مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة ، قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع .

وقال (ص) : إذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة .

وقال (ص) : إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله .

وقال عيسى (ع) : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون الى الله يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة .

وقال الصادق (ع) : التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب .

وقال الحسن العسكري (ع) : أعرف الناس بحقوق اخوانهم وأشدهم قضاء لهم أعظمهم عند الله شأناً ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي أمير المؤمنين (ع) ، وفي الختام ما جمله الله تعالى للمتواضعين وأضداد المتكبرين في القرآن المبين جزاء لهم .

آخر وصفة واقية عن مرض التكبر

قال الله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » .

(النزول)

عن ابن عباس لما نزل النبي (ص) بالجحفة في مسيره إلى المدينة عند هجرته اليها اشتاق إلى مكة فأتاه جبرئيل فقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال : نعم ، قال جبرئيل : فإن الله تعالى يقول : إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، يعني مكة حالة كونك ظاهراً عليها ومتغلباً ، فنزول الآية بالجحفة فهي ليست مكية ولا مدنية وإنما سميت مكة معاداً لعوده (ص) اليها .

(المعنى)

تلك الدار الآخرة ـ يعني الجنة ـ « نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض » أي تجبراً وتكبراً على عباد الله تعالى واستكباراً عن عبادة الله « ولا فساداً » أي عملا بالمعاصي وتجاوزاً على العباد وخروجاً عن حدود الله وإخلالا بأنظمته تعالى فدار الآخرة والاستقرار والراحة قد جعلت وهيئت لهم جزاء لتواضعهم وكسرهم لقوة نفوسهم واعترافهم بعبوديتهم لمالكهم ومن تجب طاعته عليهم .

امتثال الآية وتطبيقها

روى زاذان عن أمير المؤمنين (ع) انه كان يمشي في الأسواق وحده وهو دال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، ويقول : نزلت هـــذه الآية في أهل العدل والتواضع والولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وروى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين (ع) انه قال : إن الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية تلك الدار ... الخ ، يعني ان من تكبر على غيره بلباس يعجبه فهو ممن يريد علواً في الأرض .

وقال الكلبي : يعني بالفساد الدعوة إلى عبادة غير الله .

وقال عكرمة : هو أخذ المال بغير حق « والعاقبة للمتقين » أي والعاقبة الجميلة والمحمودة من الفوز بالثواب للذين اتقوا الشرك والمعاصي .

وقيل : معناه الجنة لمن أتقى عقاب الله بأداء الفرائض واجتناب المعاصي والمعنى واحد ، ثم قال تعالى في إظهار العدل والفضل : « من جاء بالحسنة فله خير منها » لأن الله لكرمه لا يقتصر في مقام العطاء على قدر الاستحقاق فهو يزيد إلى حد غير محدود حسب أوزان الطاعة وقابليات المحل كالذي أهدى لكريم هدية فانه لا يقتصر في عطائه على قدر هديته بل يزيده على مايرى من مقتضيات المحل للشريف بأضعاف ما للوضيع والشريف عند الله من تقدم بزيادة التقوى « ومن جاء بالسيئة ... الخ » أي لا يزاد في عقابهم عن قدر استحقاقهم لعدله بخلاف الزيادة في الثواب فهي لفضله ، ثم قال سبحانه : « إن الذي فرض عليك

القرآن » أي أوجب عليك ما تضمنه القرآن وما أنزله عليك فيه « لرادك إلى معاد » أي يردك إلى مكة ، وفي هذا دلالة على صحة النبوة لأنه أخبر بدون تعليق على شرط ولا استثناء ، وقد جاء المخبر به مطابقاً للخبر الذي كان في حال لايصدق ذلك منه (ص) لضعف المسلمين حينئذ ، وفي أوائل الهجرة فاذاً هو أمر من الله القادر جل شأنه .

وقيل : إلى معاد أي إلى الجنة أو إلى الموت أو المرجع في يوم القيامة والظاهر ان المراد العود إلى مكة .

الحكيم يبغض التكبر بالترغيب الى ضده

قال الصادق (ع) لعنوان البصري : إن كنت تريد العلم فاطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية إلى أن قال عنوان : وما حقيقة العبودية ؟ قال (ع) : ثلاثة أشياء : أن لايرى العبد فيما خوله الله ملكا ، لأن العبيد لايكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله وان لا يدبر العبد لنفسه تدبيراً . وان يكون جملة اشتغاله فيما أمره الله به ونهاه عنه فاذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكا هان عليه الانفاق فيما أمره الله ان ينفق فيه ، وإذا فوض العبد تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا وإذا اشتغل العبد بما أمره الله ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهات مع الناس فاذا اكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا وإبليس والخلق ولايطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً ولايطلب ما عندالله عزاً وعلواً ولايدع أيامه باطلا ، فهذا أول درجات التقى ، قال الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً . قال عنوان : قلت : يا أبا عبدالله أوصني ، قال (ع) : أوصيك بتسعة أشياء فانها

وصيتي لمريد الطريق إلى الله تعالى والله أسأل ان يوفقك لاستعمالها (ثلاثة) منها في رياضة النفس (وثلاثة) منها في الحلم (وثلاثة) منها في العلم فاحفظها وإياك والتهاون بها ، قال عنوان : ففرغت قلبي له فقال (ع) : أما اللواتي في الرياضة فاياك ان تأكل مالا تشتهيه فانه يورث الحماقة والبله ولاتأكل إلاعند الجوع وإذا أكلت فكل حلالا وسم الله واذكر حديث رسول الله (ص) ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه فان كان ولابد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ، واما اللواتي في الحلم فمن قال لك ان قلت واحدة سمعت عشراً فقل له ان قلت عشراً لم تسمع واحدة (١) ، ومن شتمك فقل له : إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله ان يغفر لي وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل ان يغفر لك (٢) ومن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة والدعاء ، واما اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت وإياك ان تسألهم تعنتاً وتجربة وإياك ان تعمل برأيك شيئاً وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد اليه سبيلا واهرب من الفتيا هربك من الأسد ولا تجعل رقبتك للناس جسراً قم عني يا عبدالله فقد نصحت لك ولا تفسد علي وردي فأني امرىء ظنين بنفسي والسلام على من اتبع الهدى .

الطبيب لا يدع طبه

ومن وصايا الصادق (ع) لشيعته كتابة مطولة ومفصلة حتى انهم جعلوها في محل صلاتهم ليطالعوها ويدارسوها بعد الفراغ من كل صلاة .

ومنها قوله (ع) : وإياكم أيتها العصابة المرحومة المفضلة على من سواها

(١) أي ان قال لك أحد إن شتمتني أو آذيتني بكلمة واحدة شتمتك بعشر كلمات .

(٢) عدوله (ع) في الجملة الثانية إلى تقديم لفظ الجلالة لافادة التخصيص الأبلغ .

وحبس حقوق الله قبلكم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة فانه من عجل حقوق الله كان الله أقدر على التعجيل له إلى مضاعفة الخير في العاجل والآجل وانه من أخر حقوق الله قبله كان الله أقدر على تأخير رزقه ولم يقدر ان يرزق نفسه فأدوا إلى الله حق ما رزقكم يطيب الله لكم بقيته وينجز لكم ما وعدكم من مضاعفته لكم الأضعاف الكثيرة التي لا يعلم عددها ولا كنه فضلها إلا الله رب العالمين . من جاء بالحسنة فله خير منها .

الفصل الرابع في الكذب ومقته

قال الله تعالى : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » (١) ، وفي الآية من شدة الزجر عن الكذب والتنفير عنه ما لا يخفى حيث أخبر سبحانه بل قد حصر الكذب بمن لا يؤمن بدلائل الله تعالى لأن الايمان يحجز صاحبه عن الكذب فاذا اقتحم الكذب بغير مبالاة فهو كاشف عن عدم وجود الحاجز وهو الايمان .

وقد روي انه قيل : يا رسول الله المؤمن يزني ، قال : قد يكون ذلك قيل : يا رسول الله المؤمن يسرق ، قال : قد يكون ذلك ، قيل : يا رسول الله المؤمن يكذب ، قال : لا ثم قرأ هذه الآية « إنما يفتري الكذب ... الخ » .

وروي أيضاً أن المؤمن لا يكذب وهو مؤمن ، ومعناه انه ينسلخ منه الايمان أولا ثم يعمد إلى الكذب .

وقال تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا » (٢) ، فانه تعالى قد جعل لأهل الجنة نعما جسيمة وكرامات عديدة وعد منها في هـــذه الآية انهم

(١) سورة النحل الآية ١٠٥ . (٢) سورة عم الآية ٣٥ .

لا يسمعون في الجنة الكذب والتكذيب من بعضهم لبعض حيث ان الكذب من أضداد الروح الصحيحة الشفافة ومؤذياتها ولا أذى في الجنة على أهلها كما قد نرى من أشراف أهل الدنيا التباعد والتنفر من الكذب ومن أهله ، وفي هذا البيان منه تعالى ترغيب وافي للتباعد عن الكذب والتجنب عن أهله .

وقال تعالى : « كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة » (١) فان نزولها في أبي جهل وزجره عن تكذيب محمد (ص) وإيذائه ومعنى لنسفعن بالناصية أي لنجرن بناصيته إلى النار ، وهذا نظير قوله تعالى : فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، ومعناه لنذلنه ونقيمه في مقام الأذلاء ، ففي الأخذ بالناصية إهانة واستخفاف لأنها محل اعتزاز الانسان .

وقيل : معناه لنغيرن وجهه ولنسودنه بالنار يوم القيامة لأن السفع أثر الاحراق بالنار ثم أخبر سبحانه عنه بأنه فاجر كاذب خاطىء فقال : « ناصية كاذبة » وصفها بالكذب بمعنى ان صاحبها كاذب في أقواله خاطىء في أفعاله ، فالكذب من أقبح الصفات المستلزمة لعظيم العقوبات كما ترى من تعبير الله تعالى لأبي جهل بالكذب مع وجود سائر الصفات القبيحة فيه ، ومنها الكفر ولم يقل تعالى ناصية كافرة بل قال ناصية كاذبة .

وقال ابن عباس : لما أتى أبو جهل إلى رسول الله (ص) انتهره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبو جهل : أتنهرني يا محمد فوالله لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً مني ، فأنزل الله تعالى قوله فيه : « فليدع ناديه » وهذا وعيد له أي فليدع أهل مجلسه الكثيرين وليستنصر بهم إذا حل به عقاب الكاذبين وقال تعالى : « سندع الزبانية » أي الملائكة الموكلين بالنار الغلاظ الشداد .

قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته زبانية النار من ساعته . وصدّق سبحانه ذلك فقتل أبو جهل يوم بدر .

(١) سورة العلق الآية ١٥ .

لون آخر من التهديد للمكذبين

قال تعالى : « وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ان لدينا انكالا وجحيما » (١) ، فقد هددهم تعالى بأعظم تهديد حيث يقول : يامحمد اتركني معهم فأنا الذي أتولى عقابهم جزاء كذبهم ولم يكتف سبحانه بأصل التهديد بل بين قرب عذابهم وسرعة الانتقام منهم فقال: « ومهلهم قليلا » فهو وعيد آخر بالأخذ المستعجل ولا تدفع عنهم نعمتهم التي اختبرناهم بها وان عذابهم يكون بما هو حاضر لدينا ومعد أمامنا وهو الانكال والقيود العظام فانها تقفل عليهم ولا تفك عنهم أبداً .

جنس من عقاب المكذبين

قال تعالى : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم » (٢) ، فقد قيل : إن شجرة الزقوم شجرة في النار يقتاتها أهل النار لها ثمرة مرة خشنة اللمس منتنة الرائحة ، وقيل : إن الزقوم ثمر شجرة متكره جداً وقيل : إن قريشاً لما سمعت هذه الآية قالت : ما نعرف هذه الشجرة ، فقال ابن الزهري معمياً عليهم ومستخفاً بتهديد الله تعالى لهم بذلك : إن الزقوم بكلام البربر التمر والزبد ، فقال أبو جهل لجاريته : يا جارية زقمينا فأتته الجارية بتمر وزبد فقال لأصحابه : تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد فيزعم ان النار تنبت الشجرة وان النار لتحرق الشجرة فأنزل الله تعالى: « إنا جعلناها فتنة للظالمين »

(١) سورة المزمل الآية ١١ و ١٢ . (٢) سورة الواقعة الآية ٥١ .

أي خبرة لهم افتتنوا بها وكذبوا بوجودها « انها شجرة تخرج في أصل الجحيم » أي في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها وغير بعيد عن كمال قدرة الله تعالى ان يخلق شجرة في النار من جنس النار او من جوهر لا تأكله النار ولا تحرقه كما انها لا تحرق السلاسل والأغلال وأنواع الحيوانات المؤذية فيها من العقارب والحيات ومن الملائكة الموكلين بالعذاب فتعساً للكذاب . وقد تكرر في القرآن الكريم قول : ويل للمكذبين .

بعض الأخبار الواردة في ذم الكذب

قال رسول الله (ص) : إياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار .

وقال ﷺ : إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به .

وقال ﷺ : إن للشيطان كحلا ولعوقاً ونشوقاً ، فاما لعوقه فالكذب واما نشوقه فالغضب ، واما كحله فالنوم .

وقال ﷺ : ألا أخبركم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقول الزور أي الكذب .

وقال ﷺ : المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون الف ملك وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش فيلعنه حملة العرش ، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية أهونها كمن زنى مع أمه .

وسئل ﷺ يكون المؤمن جباناً ، قال : نعم ، قيل : ويكون بخيلا ، قال : نعم ، قيل : ويكون كذاباً ، قال : لا .

وقال ﷺ : الكذب ينقص الرزق .

وقال ﷺ : ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له

وقال ﷺ : كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له كاذب .

وقال ﷺ : رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي : قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس وبيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذي أقامني : ما هذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة .

وقال عيسى بن مريم (ع) لأصحابه : من كثر كذبه ذهب بهاؤه .

وقال أمير المؤمنين (ع) : لا يجد المؤمن طعم الايمان حتى يترك الكذب هزله وجده .

وقال (ع) : أعظم الخطايا عند الله اللسان والكذب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة .

وقال علي بن الحسين (ع) : اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل فان الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير .

وقال أبو جعفر (ع) : إن الله عز وجل جعل للشر أقفالا وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب والكذب شر من الشراب .

وقال (ع) : الكذب هو خراب الايمان .

وقال (ع) : إن أول من يكذّب الكذاب الله عزوجل ثم الملكان اللذان معه ثم هو يعلم انه كاذب .

وقال الامام العسكري (ع) : جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب ، فتراهم عليهم السلام وهم الأطباء لأمراض العقول وأدران القلوب كيف يؤكدون في تنفير البشر ويتفننون في إبعاده عن جرائيم تلك الأمراض ويحافظون

على سلامة إيمانه عن هاتيك الأعراض آخذين مسؤولية صحته على أنفسهم حاملين لأعباء تنويره وإرشاده على اكتافهم جاهدين بصوغ عسجد الكلام باذلين كل ما وسعهم على مرور الأيام فيما يصلح عقول الأنام ، غير ان نهمة الظالمين وحسد المبغضين وكيد الفاسقين قد ضربت بأشد قسوة على أيدي المصلحين وألجمت السنة الموضحين لجوهريات شريعة سيد المرسلين وأحكام رب العالمين وكفى به خصما لهم يوم الدين ، فقد أفهمونا بمختلف أخبارهم وبليغ بيانهم عليهم وعلى جدهم الصلاة والسلام ، ان الكذب من أقبح الذنوب وأخبث العيوب بالاضافة إلى أقوال الله تعالى سابقة الذكر ، فهل آن لنا أن نعي ذلك النصح ونتفهم هذا الارشاد ونأخذ بطريق السداد والمنجي لنا في يوم المعاد وهو الصدق الذي هو ركيزة الفضائل النفسية ومنبع الصفات المرضية .

وقد ورد في مدحه من القرآن المجيد والحديث الشريف ما يعسر عده كقوله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ، وقوله تعالى : « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون»

وقال رسول الله ﷺ : تقبلوا إلي بست أتقبل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلايكذب ، وإذا وعد فلايخلف ، وإذا ائتمن فلايخن ، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم .

وعن الأئمة الأطهار (ع) إن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقاً .

وعن الصادق (ع) من صدق لسانه زكى عمله ومن حسنت نيته زيد في رزقه ومن حسن بره بأهل بيته مد له في عمره .

وعنه (ع) لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فأن ذلك شيء اعتاده ولو تركه لاستوحش لذلك ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته

وعنه (ع) إن الله لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر .

وقال (ع) : أربع من كن فيه كمل إيمانه ولو كان ما بين قرنه إلى قدمه ذنوب لم ينقصه ذلك هي : الصدق وأداء الأمانة والحياء وحسن الخلق .

اللسان أضر الجوارح وأنفعها

ولذا قيل : إنه صغير جرمه ولكن عظيم طاعته وجرمه لأن الايمان والكفر بشهادته والاهتداء إلى كل الأمور بدلالته وهو دليل القلب والقلب باعثه ، وقد سبق أن ذكرنا ان مولى لقمان أمره بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها فأتاه منها بالقلب واللسان ثم أمره بأن يذبح شاة ويأتيه بأخبث مضغتين منها فأتاه بالقلب واللسان ايضاً فقال له في ذلك فقال لقمان : هما أطيب مضغتين إذا طابا وأخبث مضغتين إذا خبثا فباللسان أنواع من الطاعات وكثير من رذائل الصفات فمن أطلق اللسان وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وأوقعه في أودية الضلالة والخذلان .

وقد ورد عنه ﷺ ما الناس إلا حصائد ألسنتهم ، ولهذا جعلت الرقابة من الله عز وجل عليه بخصوصه ، فقال تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

وقال ﷺ : لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه .

وقال ﷺ : إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول : اتق الله فينا فانما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل يتكلم بفضول الكلام : يا هـذا انك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربك فتكلم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك .

وقال عليه السلام : المرء مخبوء تحت لسانه فزن كلامك واعرضه على العقل والمعرفة فان كان لله وفي الله فتكلم وان كان غير ذلك فالسكوت خير منه .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : اخزن لسانك إلا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان

وقال صلى الله عليه وآله : إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فانه يلقن الحكمة

وقال صلى الله عليه وآله : إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وإن لسان المنافق أمام قلبه فاذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه .

وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة ، قال : لا تنطقوا أبداً قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال : فلا تنطقوا إلا بخير .

وقال عليه السلام : العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس .

وقال لقمان لابنه : يا بني ان كنت زعمت ان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب .

وقال الباقر عليه السلام : كان أبو ذر يقول : يا مبتغي العلم ان هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك .

وقال عليه السلام : إنما شيعتنا الخرس . وقد ذكر ان اربعة من أذكياء الملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر تلاقوا في وقت فأجمعت كلمتهم على ذم الكلام ومدح الصمت فقال أحدهم في فلسفة ذلك : أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل ، وقال الآخر : إني إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني ، وقال الثالث : عجبت للمتكلم ان رجعت عليه كلمته

ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه ، وقال الرابع : أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما أقل .

وقال أمير المؤمنين (ع) : جمع الخير كله في ثلاث خصال : النظر والسكوت والكلام فكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو وكل سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو فطوبى لمن كان نظره عبرة وسكوته فكرة وكلامه ذكراً وبكى على خطيئته وأمن الناس شره .

وقال الرضا (ع) : ما أحسن الصمت لا من عي والمهذار له سقطات .

وعن أبي عبدالله (ع) عن آبائه (ع) إن رسول الله (ص) قال : من أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاة ماله وكف غضبه وسجن لسانه واستغفر لذنبه وأدى النصيحة لأهل بيت نبيه فقد استكمل حقائق الايمان وأبواب الجنة مفتحة له . وكان (ص) إذا خطب يقول في آخر خطبته : طوبى لمن طاب خلقه وطهرت سجيته وصلحت سريرته وحسنت علانيته وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من كلامه وأنصف الناس من نفسه .

وقال أمير المؤمنين (ع) في وصيته لمحمد بن الحنفية : اعلم ان اللسان كلب عقور إن خليته عقر ورب كلمة سلبت نعمة فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك

وقال رسول الله (ص) : رحم الله عبداً استحى من ربه حق الحياء فحفظ الرأس وماحوى والبطن وما وعى وذكر القبر والبلا وذكر ان له في الآخرة معاداً

وقال علي بن الحسين (ع) : إن لسان ابن آدم يشرف كل يوم على جوارحه فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون : بخير إن تركتنا .

وقال رسول الله (ص) : إن مقعد ملكيك على ثنييك (أي ثناياك) لسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعنيك ولا تستحي من الله ولا منهما .

وعن أمير المؤمنين (ع) قال : قال رسول الله (ص) : إن الله يعذب اللسان

بعذاب لا يعذب به شيء من الجوارح فيقول : رب عذبتني بعذاب لا تعذب به شيئاً من الجوارح ، فيقال له : خرجت منك كلمة فبلغت مشارق الأرض ومغاربها فسفك بها الدم الحرام وأخذ بها المال الحرام وانتهك بها الفرج الحرام فوعزتي لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئاً من جوارحك .

من غرائب موضوع اللسان

ما وقع لأبي يوسف وهو من أكابر علماء الأدب وعظماء الشيعة وهو من أصحاب الامام الجواد والهادي عليهما السلام انه كان قد قال في التحذير من عثرات اللسان شعراً :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته في القول تذهب رأسه ... وعثرته في الرجل تذهب عن مهل

فاتفق ان المتوكل العباسي ألزمه تأديب ولديه المعتز والمؤيد فقال له يوماً : أيما أحب اليك ابناي هذان أم الحسن والحسين ؟ فقال : والله ان قنبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنيك ، فقال المتوكل لأتراكه : سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات رحمه الله تعالى .

الخلاصة لفصل الكذب

هو ان الكلام إذا صدر عن العقل تجرد عن لوث الكذب وغيره ، وإذا صدر عن النفس وشهوتها خرج ملوثاً وأوقع صاحبه في مهالك الدنيا قبل مهالك الآخرة ، لأن العقل كما قال الباقر عليه السلام : يغوص العقل على الكلام فيستخرجه من

مكنون الصدر كما يغوص الغائص على اللؤلؤ المستكن في البحر .

وقال ﷺ : إن الله تعالى بعث إلى آدم ثلاثة أشياء يختار منها واحداً العقل والحياء والسخاء فاختار العقل فقال جبرئيل للحياء والسخاء : اعرجا فقالا : أمرنا أن لا نفارق العقل .

وقال ﷺ : أفضل طبائع العقل العبادة وأوثق الحديث له العلم وأجزل حظوظه الحكمة وأفضل ذخائره الحسنات .

وفي الختام لذلك ما في كتاب الاختصاص (١) عن محمد بن مسلم عن الصادق ﷺ عن ابيه ﷺ قال : قال أبي علي بن الحسين (ع) : يا بني انظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق فقال : يا أبه من هم عرفنيهم ؟ قال : إياك ومصاحبة الكذاب فانه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب وإياك ومصاحبة الفاسق فانه بايعك بأكلة اوأقل من ذلك وإياك ومصاحبة البخيل فانه يخذلك في ماله أحوج ما تكون اليه وإياك ومصاحبة الأحمق فانه يريد ان ينفعك فيضرك وإياك ومصاحبة القاطع لرحمه فاني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع قال الله عز وجل : « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم اولئك الذين لعنهم الله ... الآية » (٢) ، وقال عز وجل : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الأرض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » (٣) ، وقال تعالى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض اولئك هم الخاسرون » (٤) .

---

(١) ص ٢٣٩ . (٢) سورة محمد (ص) الآية ٢٣ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٥ . (٤) سورة البقرة الآية ٢٧ .

العقد الرابع

الانسان في أدواره

وبيان عظمة الخالق في تدبيره فيها وفيه فصول :

الفصل الاول في بطن أمه

قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

(المعنى)

المراد بالانسان ولد آدم وبالسلالة الماء يسل من الظهر سلا ، والمراد بالطين طين آدم لأن النطفة تولدت من طين خلق منه آدم ، هذا بيان أصل الخلقة ومبدئها ثم ابتدأ في بيان مراتب نشأتها فقال : ثم جعلناه أي ابن آدم نطفة في قرار مكين يعني الرحم مكن فيه الماء بأن هيء بكيفية خاصة ليستقر فيه إلى بلوغ أمده الذي قدر له ، ثم تكون النطفة علقة وهي القطعة من الدم الجامد ثم تكون مضغة

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤ و ١٥ .

وهي شبه قطعة من اللحم ممضوغة أي مايعضغه الانسان بفمه ثم تكون إلى مرتبتها الرابعة وهي أن كونها تعالى عظاماً ثم الخامسة وهي ان كسا سبحانه تلك العظام لحماً أي أنبت اللحم عليها مشتملا عليها وحافظاً لها كاشتمال اللباس والكسوة على البدن فقد بين سبحانه تنقل احوال الانسان في الرحم حتى استكمل خلقه لينبه عباده على بدائع حكمته وعجائب صنعته وكمال نعمته ليعرفوا حقية عبادته وواجب شكره ، وحيث ان للانسان خلقة جسمانية وقد انتهت بمراتبها وخلقة روحانية وهو بها يكون جوهراً مجرداً من عالم الملكوت فأشار سبحانه إلى ذلك بقوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » اي نفخنا فيه الروح .

وقيل : إن معناه هو نبات الشعر والأسنان وإعطاء الفهم .

وقيل : إن المراد من الخلق الآخر هو إنشاؤه ذكراً او أنثى « فتبارك الله » اي دام خيره وثبت .

وقيل : معناه استحق التعظيم بأنه قديم لم يزل ولايزال «احسن الخالقين» لأنه لا تفاوت في خلقه ، ومعناه ان الايجاد وخلق الشيء وان صح ان ينسب الى غيره ، إلا ان الحقيقة في الخلق هو سبحانه لا غيره ، لأن المراد من الايجاد ان يكون مقدراً تقديراً دون اي زيادة او نقيصة وبدون اي تفاوت وهذا لايكون إلا منه تعالى كما قال : « ألا له الخلق والأمر » .

ونظير هذه الآية من سورة الحج في الاستدلال على البعث قوله تعالى : « يا ايها الناس إن كنتم في ريب » اي في شك « من البعث » والنشور « فانا خلقناكم من تراب » اي خلقنا اصلكم وهو آدم من تراب ، فالذي قدر على تسوية التراب بشراً سوياً وحياً في الابتداء قدر على إحياء العظام وإعادة الأموات في الانتهاء « ثم من نطفة » وهي الماء القليل يكون من الذكر والأنثى « ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » اي تامة الخلق وغير تامة وهو السقط قبل كماله

وقيل : معناه مصورة وغير مصورة اي لم تبلغ مرحلة التخطيط والتصوير بل تسقط قبله ، لأن النطفة تبقى في الرحم اربعين يوماً نطفة ثم اربعين يوماً علقة ثم اربعين يوماً مضغة ، وقد اوضح ذلك بقوله تعالى : « ونقر في الأرحام مانشاء إلى اجل مسمى » اي نبقي في ارحام الأمهات من قدرنا له اجلا في الحياة فيدرك تمام الخلقة والتصوير بقراره في الرحم .

بيان آخر منه تعالى لتكوين الانسان

قال تعالى في اول سورة الدهر : « هل أتى على الانسان » ومعناه قد أتى لأن الاستفهام إنكاري « حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ومعناه انه كان شيئاً وهو التراب والطين ، إلا انه لم يكن مذكوراً ومعدوداً ، حيث انه بعد لم ينفخ فيه من روحه ، والوجود الحقيقي لمن تشرف بالروح منه تعالى لأن بقية الموجودات كلها لخدمته وأنسه والمقصود انه إذا تفكر في ذلك علم ان له صانعاً صنعه ومحدثاً احدثه ، ثم قال سبحانه : « إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج » اي إخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المجتمع في الرحم فأيهما علا ماء صاحبه كان الشبه له .

وقيل : إن معنى امشاج اطوار طوراً نطفة وطوراً علقة وطوراً مضغة وطوراً عظاماً إلى ان صار إنساناً .

وقيل : اراد اختلاف ألوان النطفة فنطفة الرجل تكون بيضاء وحمراء ونطفة المرأة تكون خضراء وصفراء فهي مختلفة الألوان .

وقيل : إن معناه نطفة مشجت بدل الحيض ، لأن المرأة إذا حبلت ارتفع الحيض .

وقيل : هي العروق التي تكون في النطفة .

وقيل : إن امشاج اخلاط من الطبائع التي تكون في الانسان من الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة جعلها الله في النطفة ثم بناه الله البنية الحيوانية المعدلة من الاخلاط ثم جعل فيه الحياة ثم شق له السمع والبصر ، وهو قوله تعالى : « فجعلناه سميعاً بصيراً » واما قوله : « نبتليه » اي نختبره بالتكاليف وهي الأوامر والنواهي حيث تمت عليه الحجة باعطائه آلة الادراك والمعرفة وهي السمع والبصر ، وقد حقق سبحانه له طرق الهداية بقوله : « إنا هديناه السبيل » اي الطريق بنصب الأدلة وإزاحة العلة وجعله متمكناً من معرفة الحق والباطل بالعقل والشرع فهو باختياره يكون « إما شاكراً وإما كفوراً » فاما ان يختار السعادة الأبدية بشكره للمنعم واعترافه بالخالق ، او بالشقاوة السرمدية بكفره للنعم وعبادة مخلوق مثله ، وقد بين ما أعده تعالى للقسمين بقوله : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً » ثم قال تعالى في ما اعده للفريق الثاني : « ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ... الآية » .

الآثار في بديع صنع العزيز القهار

ما ذكرناه من الآي العظام هي كرؤوس اقلام في إتقان صنيع الملك العلام عند إرادته لخلق الأنام .

واما الأخبار في تفاصيل ذلك فكثيرة وهي وإن كانت بظاهر ألفاظها وغموض معاني تعابيرها تعطي للقارئ الوقفة في تصديقها والريبة في صدورها حيث انه نظرها بالنظرة البسيطة وبالفاكرة الأولى ، اما انه لو تأمل في تراكيبها ثانياً ، وفكر فيها ملياً وجدها صياغة من كلام البلغاء قد نظمت من استعارات

وكنايات عن عظمة قدرة الله تعالى وبدائع صنعه في خلقه ، غير انه جل شأنه أبى إلا ان يجري الأمور بأسبابها فلا استبعاد حينئذ لو حدثتنا الأخبار عن انه تعالى إذا اكملت النطفة ادوارها في الرحم وبلغت من عمرها الأربعة اشهر بعث الله ملكين خلاقين فيقتحمان في بطن المرأة من فمها فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة (١) المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء فينفخان روح الحياة والبقاء ويشقان له السمع والبصر وسائر الجوارح ، ثم يوحي إلى الملكين اكتبا عليه قضائي وقدري واشترطا لي البداء فيما تكتبان فيرفعان رأسيهما فاذاً اللوح يقرع جبهته وفيه صورته وأجله وميثاقه شقياً او سعيداً وجميع شؤونه فيملي أحدهما على صاحبه فيكتبان جميع ما في اللوح ويختمان الكتاب ويجعلانه بين عينيه ثم يقيمانه قائماً في بطن امه وربما عتا فانقلب ولا يكون إلا في عات او مارد فاذا بلغ اوان خروجه تاماً او غير تام اوحى الله إلى ملك يقال له زاجر فيزجره زجرة يفزع منها فينقلب فيخرج باكياً من الزجرة وينسى الميثاق .

وعن ابي جعفر عليه السلام ان النطفة تتردد في بطن المرأة تسعة أيام في كل عرق ومفصل منها والرحم ثلاثة اقفال (٢) قفل في اعلاها مما يلي السرة من الجانب الأيمن والقفل الآخر وسطها والقفل الآخر اسفل الرحم فيوضع بعد تسعة ايام في القفل الأعلى فيمكث فيه ثلاثة اشهر فعند ذلك يصيب المرأة خبث النفس والتهوع ثم ينزل إلى القفل الأوسط فيمكث فيه ثلاثة اشهر وصرة الصبي فيها مجمع العروق عروق المرأة كلها منها يدخل طعامه وشرابه ثم ينزل إلى القفل الأسفل فيمكث فيه

---

(١) إشارة إلى عالم الذر وإلى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٢) الأقفال كناية عن المناطق الثلاث المهيأة لتربية كل مرحلة من مراحله بحيث تمسكه مسكاً لا يمكنه الانتقال إلى المنطقة الأخرى إلا بعد كمال مرحلته الأولى .

ثلاثة اشهر فذلك تسعة اشهر ثم تطلق المرأة فكلما طلقت انقطع عرق من صرة الجنين فأصابها ذلك الوجع ويده على صرته حتى يقع إلى الأرض .

وقد ورد في تفسير قوله تعالى : « والمدبرات أمراً » ان المراد بها ملائكة التصوير فاذا دخلوا بطن المرأة وأخذوا في تصويره قالوا ما نصوره يا رب أذكر أم أنثى فان كان ذكراً قالوا على اي صورة ؟ فيقول سبحانه : احضروا صور آبائه إلى آدم وصوروه على صورة واحدة منها وإن كان انثى يقول سبحانه : احضروا صور أمهاته إلى حواء فصوروها مثل صورة واحدة منها .

ومن هذا ورد انه لا يجوز للرجل ان يقول هذا الولد لا يشبهني وينفيه عنه لأنه قد يكون على صورة احد آبائه وكذلك البنت ولربما تشبه غير آبائها ايضاً

فقد روى الصدوق باسناده إلى الرضا (ع) قال : إن الملك قال لدانيال : إني أشتهي ان يكون لي ابن مثلك ، فقال : ما محلي من قلبك ؟ قال : أجل محل وأعظمه ، قال دانيال (ع) : فاذا جامعت فاجعل همتك فيّ ففعل الملك ذلك فولد له ابن اشبه خلق الله بدانيال .

واما شبهه للأقارب فقد ورد في سؤالات الخضر لأمير المؤمنين (ع) اخبرني عن الرجل كيف يذكر وينسى وعن الرجل كيف يشبه ولده الأعمام والأخوال ؟ فالتفت إلى الحسن (ع) فقال : أجبه ، فقال (ع) : اما ما ذكرت من امر الذكر والنسيان فان قلب الرجل في حُق وعلى الحق طبق فان صلى الرجل عند ذلك على محمد وآل محمد صلاة تامة انكشف ذلك الطبق عن ذلك الحق فأضاء القلب وذكر الرجل ما كان نسيه وإن هو لم يصل على محمد وآل محمد او نقص من الصلاة عليهم انطبق ذلك الطبق على ذلك الحق فأظلم القلب ونسي الرجل ما كان ذكره .

واما ماذكرت من امر المولود فان الرجل إذا اتى اهله فجامعها بقلب ساكن

وعروق هادئة وبدن غير مضطرب فأسكنت تلك النطفة في جوف الرحم وخرج الولد يشبه اباه وامه ، وان وقعت النطفة في حال اضطرابها على بعض العروق فان وقعت على عرق من عروق الأعمام اشبه الولد اعمامه وان وقعت على عرق من عروق الأخوال اشبه الولد اخواله .

أمير المؤمنين في صفة خلق الجنين

قال (ع) في فصول خطبته الثانية والثمانين موصفاً كيفية خلق الله تعالى للانسان مبتدئاً بطوره الأول وهو الجنين في بطن امه : « أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار نطفة دهاقا وعلقة محاقا وجنيناً وراضعاً ووليداً ويافعاً ... الخ » فقد بين ان الله تعالى قد أنشأ هذا الانسان بقدرته الكاملة وحكمته البالغة الشاملة في ظلمات الأرحام ، والمراد منها ما ذكره الله تعالى في قوله « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » وهي إما ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، وإما ظلمة الصلب والرحم والبطن و (شغف الأستار) هي الأغلفة جمع شغاف وهو غلاف القلب (نطفة دهاقا) أي مفرغة إفراغاً شديداً كما قال تعالى : « خلق من ماء دافق » و (علقة محاقا) أي ناقصة لم تتصور بعد بصورة الانسانية .

ثم ذكر (ع) تطوره في أحواله واختلاف اسمائه في ذلك بقوله : وجنيناً كما قال تعالى : « وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم وراضعاً ووليداً ويافعاً » وغرضه بذلك تحقير الانسان ببيان منتهى ضعفه في أطواره وعناية الباري في تكوينه وتهيئة رزقه فيها حتى إذا اشتدت قوته وكمل عقله تمرد على ربه وظن به الظنون متبعاً لهواه كادحاً في دنياه ولم يعد ملتفتاً إلى مبدئه وأولاه ولامستعداً

لنهايته وأخراه وقد كان بقدرة ربه في بطن امه يتغذى من حين ولوج الروح فيه إلى ان ا كمل تسعة اشهر من دم حيض امه ولا يكون منه عذرة .

ومن هنا قال (ع) : إن أهل الجنة يأكلون ولا يتغوطون بل يترشح الغذاء عرقاً من أبدانهم كرائحة المسك ، فقال له رجل : أله نظير في الدنيا ؟ قال (ع) : نعم فان الجنين في بطن امه يبقى تسعة اشهر يأكل ولايخرج منه شيء هذه بعض أحواله في بطن امه .

الفصل الثاني

في ولادته وطفولته ورضاعه

قال تعالى : « فالزاجرات زجراً » فقد ذكر أن من معانيها ان إذا أراد الله تعالى ان تلد المرأة أرسل ملكا يقال له زاجر إلى بطنها فيزجرالولد زجرة عظيمة حتى ينتكس على رأسه لأنه كان واقفاً في بطن امه على رجليه ، واما سائر الحيوانات فهي محتبية في بطون أمهاتها واضعة رأسها بين رجليها والكي الذي يكون في يديها هو موضع منخريها ، فاذا زجره الملك خرج من الظلمات إلى أنوار الدنيا فأول منزله ظلمات ثلاث وآخره ايضاً ظلمات ثلاث وهي ظلمة القبر وظلمة العمل وظلمة الوحدة .

أحواله عند ولادته

(منها) انه يخرج قابضاً كفيه وعند الموت يبسطها ، وفي إيضاح معنى ذلك قال أمير المؤمنين (ع) شعراً :

وفي قبض كف الطفل عند ولادة — دليل على الحرص المركب في الحي
وفي بسطها عند الممات مواعظ — ألا فانظروني قد خرجت بلا شيء

(ومنها) انه باك وذكر في سببه أمور :

(منها) ما روي ان سببه زجرة الملك له وهو في بطن امه فيخرج خائفاً باكياً (١) .

(ومنها) ما روي في تفسير قوله تعالى : إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم من انه ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه .

(ومنها) ما رواه المفضل بن عمر قال : سألت جعفر بن محمد (ع) عن الطفل يضحك من غير تعجب ويبكي من غير ألم فقال : يا مفضل ما من طفل إلا وهو يرى الامام ويناجيه ، فبكاؤه لغيبة شخص الامام عنه وضحكه لاقباله عليه حتى إذا أطلق لسانه أغلق ذلك الباب عليه وضرب على قلبه بالنسيان .

(ومنها) ما رواه نافع عن رسول الله ﷺ انه قال : لاتضربوا أطفالكم على بكائهم فان بكاءهم : اربعة اشهر شهادة أن لا إله إلا الله ، واربعة اشهر الصلاة على النبي ﷺ ، واربعة اشهر الدعاء لوالديه .

(ومنها) ما رواه المفضل في توحيده في علل الرضا (ع) ان الأطفال إذا خرجوا من بطون امهاتهم يخرجون وابدانهم فيها رطوبات البطن الضارة بالبدن وهذه الرطوبات لا تخرج منه إلا بالتعصر وتشنج العروق ولا يكون هذا إلا بالبكاء . ومن ثم ورد النهي عن منعهم عن البكاء .

(ومنها) انه إذا خرج من بطن امه خرج إلى دنيا واسعة المجال بعدما

(١) والاستبعاد مدفوع بما ذكرنا سابقاً وبأن الله يوصل مفهومه إلى قلوب العباد كما يصل إغواء الشيطان إلى قلوبهم .

كان في ضيق الظلمات ، لكن الله يلهمه الموت والفناء والاستعداد لأهوالها ومصائبها وما سيجري عليه من التعب والعناء فيفهم هذا ويعقله فيشرع في البكاء خوفاً وفزعاً من ذلك ، ولهذا كان يوم الولادة من الأيام الثلاثة التي لا اصعب منها على ابن آدم ، ولهذا سلم الله تعالى فيها على يحيى بن زكريا وجعله سالماً من آفات هذه الأيام الثلاثة فقال : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » وكذلك عيسى (ع) قال : والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً ، ومرادهم من السلام الأمن من أهوالها وآفاتها فقد جعل سبحانه يوم الولادة معادلا ليوم القيامة في شدته .

وقد روي عن الصادق (ع) انه قال : اكبر مايكون الانسان يوم ولادته واصغر ما يكون يوم مماته . وقد ذكر في تفسيره وجوه :

(منها) ان المراد بكبره الغرة بالدنيا وبصغره القلة عند الموت .

(ومنها) ان المراد بأكبريته انه اول يوم من أيام تحصيل الكمال والقرب من الله بالعمل الصالح بخلاف وقت الموت فانه وقت انقطاع كسب الكمال ونهاية الأعمال .

(ومنها) ان يوم الولادة اكبر من حيث اجتماع الروح والبدن ويوم الموت هو يوم افتراقهما .

(ومنها) ان يوم الولادة اكبر لخلوه فيه عن المعاصي ويوم الموت يكون فيه اصغر لتحمله الذنوب والمعاصي .

(ومنها) ان يوم الولادة اكبر لاستجماع عمره كله فيه بخلاف يوم الموت يكون فيه اصغر لفناء عمره فيه .

ومن أحوال الولادة انه يخرج على رأسه إلا الأنبياء والأئمة الأطهار فانهم يخرجون وقوفاً على أرجلهم صوناً لهم وتشريفاً عن الانتكاس .

ومن المستحبات المؤكدة أن يؤذن في أذن المولود عند ولادته وأن يقام في أذنه اليسرى فعن النبي ﷺ انها عصمة من الشيطان الرجيم .

وعن السجاد (ع) انه إذا بشر بالولد لم يسأل أذكر هو أم أنثى حتى يقول سوي فان كان سوياً قال : الحمد لله الذي لم يخلق مني شيئاً مشوهاً .

شباهة الولد لوالديه

لا يلزم أن يكون الولد شبيهاً بأبيه او بأمه كما ذكرنا سابقاً وكما قد روى محمد بن حمران عن ابي عبدالله (ع) قال : إن الله عز وجل خلق للرحم اربعة اوعية فما كان في الأول فللأب وما كان في الثاني فللأم وما كان في الثالث فللعمومة وما كان في الرابع فللخؤلة .

وروى الكليني بسنده إلى ابي جعفر (ع) قال : أتى رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال : هذه ابنة عمي وامرأتي واني لا أعلم منها إلا خيرا وقد أتتني بولد شديد السواد منتشر المنخرين جعد قطط أفطس الأنف لا اعرف شبهه في أخوالي ولا في أجدادي ، فقال ﷺ لامرأته ما تقولين ؟ قالت : لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أقعدت مقعده مني منذ ملكني احداً غيره ، قال : فنكس رسول الله ﷺ رأسه ملياً ثم رفع بصره إلى السماء ثم اقبل على الرجل فقال : يا هذا انه ليس من احد إلا بينه وبين آدم تسعون عرقاً كلها تضرب في النسب فاذا وقعت النطفة في الرحم اضطربت تلك العروق تسأل الله الشبه لها فهذا من تلك العروق التي لم يدركها اجدادك ولا اجداد اجدادك خذ اليك ابنك فقالت المرأة : فرضيت عني يا رسول الله .

وعن الصادق (ع) قال : إن رجلا أتى بامرأته إلى عمر فقال : إن امرأتي

هذه سوداء وأنا اسود وقد ولدت غلاماً أبيضاً فقال لمن بحضرته : ما ترون ؟ فقالوا : نرى أن ترجمها فانها سوداء وزوجها أسود وولدها أبيض قال : فجاء امير المؤمنين وقد وجه بها لترجم فقال للأسود : أتتهم امرأتك ؟ فقال : لا ، قال (ع) : فأتيتها وهي طامث ، قال : قد قالت لي في ليلة من الليالي : اني طامث فظننت انها تتقي البرد فوقعت عليها ، فقال للمرأة : هل أتاك وانت طامث ؟ قالت نعم سله قد خرجت عليه وأبيت ، قال (ع) : فانطلقا فانه ابنكما وإنما غلب الدم النطفة فابيض ولو قد تحرك اسوّد فلما أيفع اسوّد .

عناية الباري برضاعه

فقد حول سبحانه ما كان يتغذى به من الدم في بطن امه لبناً في ثدييها جاعلا لها في منطقة من بدنها وهي الصدر ليمكنها من احتضانه ويمكنه من التقام ثديه بتمام الارتياح للرضيع والمرضعة وقد جعل الثدي بكيفيته الخاصة من اللين ووضع الحلمة على رأسه ليسهل على الطفل امتصاصها وجعل فيها ثقوباً صغيرة وعديدة لئلا يكون نزول اللبن عليه قليلا جداً ولا كثيراً مزعجاً وقد حول لون الدم إلى البياض لعدم الانقباض منه والنفورة ، ومن وراء هذا كله ما اودعه سبحانه في قلب أمه من عظيم الحنان منها عليه وعدم الضجر من انواع أذاياه والسهر معه وساير ما تتطلبه تربيته ويا ليته قد جازى عشر ذلك لأبويه .

مأثرة عن حدود بر الوالدين

فقد روي أن رجلا في الكوفة كان باراً بوالدته وقد بلغت من الكبر ما صارت به مقعدة وقد ذهب بصرها وسقطت جميع أسنانها وقد كان يتولى

جميع شؤونها وحتى قضاء حاجتها بنفسه ساهراً معها ملتزماً بعدم رد سؤال وحاجة لها فاتفق موسم الحج وعلمت بتهيؤ الحاج فطلبت منه أن يحملها إلى بيت الله لتحج ، وحيث انه قد التزم باجابة كل طلباتها الممكنة له فقد حملها على ظهره لعدم استطاعتها ركوب الراحلة ، وبعد ان قضى بها المناسك جاء إلى زيارة قبرالرسول ﷺ في المدينة ثم مضى إلى ابي عبدالله (ع) فرحب به الامام حيث كان من أصحابه فسأل الامام هل انه يعد من المجازين لوالديه بعدما ذكر له حاله مع والدته فقال له (ع) : إنك لست من المجازين ولكنك تعد من البارين ، لأن ما حملته معها لا يقابل ما حملته لك فانك حملتها على ظهرك وقد حملتك قبل هذا في بطنها وسهرت معها وقد سهرت معك وانها قد طلقت بك عند الولادة ولم تطلق انت بها ، وأخيراً انك الآن ترغب في موتها لتتخلص من تبعتها وهي كانت تتمنى بقاءك وتدعو الله بطول عمرك راضية بكل تبعاتك فرحة في بقائك فأين جزاؤك لها

وحيث علم سبحانه أن ليس في وسع الأولاد مجازاة الأم مع عظيم تحملها في حمله وتربيته وهو العدل سبحانه فجعل جزاءها على حسابه .

فقد ذكر في مجمع البيان (١) انه روى أنس بن مالك قال : جاءت امرأة سوداء جريئة المنطق ذات ملح إلى رسول الله ﷺ فقالت : بأبي انت وأمي يا رسول الله قل فينا خيراً مرة واحدة فانه بلغني انك تقول فينا كل شر ، قال : أي شيء قلت لكن ؟ قالت : سميتنا السفهاء ، قال ﷺ : الله تعالى سماكن السفهاء في كتابه (٢) قالت : وسميتنا النواقص ، فقال : وكفى نقصاناً ان تدعن من كل شهر خمسة أيام لا تصلين فيها ، ثم قال ﷺ : أما يكفي إحداكن انها إذا حملت كان لها كأجر المرابط في سبيل الله ، فاذا وضعت كانت كالمتشحط بدمه

---

(١) ج ٣ ص ٧ ط ايران .

(٢) يعني (ص) قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » سورة النساء الآية ٥

في سبيل الله ، فاذا أرضعت كان لها بكل جرعة كعتق رقبة من ولد اسماعيل فاذا سهرت كان لها بكل سهرة تسهرها كعتق رقبة من ولد اسماعيل وذلك المؤمنات الخاشعات الصابرات اللاتي لا يكفرن العشير قال : فقالت السوداء يا له فضلا لولا ما يتبعه من الشرط .

الفصل الثالث
في بلوغه وشبابه

وهنا يجب على الوالدين تربيته روحياً بالاضافة إلى تربيته جسمياً ، وليعلم كل مسلم بل كل انسان ان أولاده وبناته ودائع الله عنده وهو مسؤول عنها ومحاسب عليها وكما يجب حفظ أجسامهم وتغذية أبدانهم بالانفاق عليهم والكدح لهم في طعامهم وشرابهم وكسوتهم ومسكنهم وتزويجهم كذلك ، بل هو أوجب من ذلك يجب عليه تربية عقولهم وتغذية أرواحهم وتنمية جوهرياتهم بتصحيح عقائدهم وإشباع حواسهم بأصول الدين وأمهات فروعه وتمرينهم على فضيلة الأخلاق من الصدق والعفة والأمانة وتعويدهم على النظافة والطهارة والصلاة وهذه أساسيات عليها يبتني نمو الولد فيصير انساناً وبدونها يكون بهيمة وشيطاناً فكما ان الرجل مكلف بتهذيب نفسه ووقايتها من عذاب الله فهو مكلف ايضاً بوقاية أهله وحفظهم من عذاب الله فقد قال سبحانه : « يا ايها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (١) .

(١) سورة التحريم الآية ٦ و ٧ .

والمعنى احفظوا واحرسوا وامنعوا أنفسكم النار بالصبر على طاعة الله وعن معصيته واتباع الهوى والشهوات وقوا أهلكم النار بدعائهم إلى الطاعة وتعليمهم الفرائض ونهيهم عن القبائح وحثهم على أعمال الخير .

وقال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية هو أن يؤدب الرجل المسلم نفسه وأهله ويعلمهم الخير وينهاهم عن الشر فذلك حق على المسلم أن يفعل بنفسه وأهله وعبيده وإمائه ، ثم وصف سبحانه النار التي وعدهم التعذيب فيها تخويفاً لهم وحرصاً على الامتثال منهم فقال : « وقودها الناس والحجارة » أي حطب تلك النار الناس وحجارة الكبريت على ما ذكر في التفاسير لأنها تزيد في قوة النار « عليها ملائكة غلاظ شداد » أي غلاظ القلوب لا يرحمون أهل النار أقوياء « لا يعصون الله ويفعلون ما يؤمرون » وإنما أمرهم الله بذلك على وجه الثواب لهم حيث جعل سرورهم ولذاتهم في تعذيب أهل النار كما جعل سرور المؤمنين ولذاتهم في الجنة ، وإلا فلامعنى لأن يفعلوا ما يؤمرون حيث أن الآخرة ليست بدار تكليف ولا أمر فيها ولا امتثال وهذا يكون أبلغ في التعذيب .

الواجب في التعلم والتعليم

يجب على كل انسان أن يتعلم هو ويعلم كل من تحوطه عنايته وعلى الأخص أولاده أصول دينه أولا قال تعالى :« فاعلم انه لا إله إلا الله » وفروع دينه ثانياً قال تعالى : « فليتفقهوا في الدين » وطلب العلم قدر الامكان ثالثاً « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ثم يجب أن يعمل بما علم فالعلم يهتف بالعمل فان أجاب وإلا ارتحل قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ومعناه أمر من الله تعالى لنبيه

أن يقول للمكلفين اعملوا ما أمركم الله به عمل من يعلم انه مجازى على عمله فان الله سيرى عملكم ولا يذهب سدى ويمكن أن يكون دخول السين لافادة التقريب كقوله تعالى : « ويرونه بعيدا ونراه قريبا » وإنما قال تعالى : سيرى عملكم مع انه عالم بالأشياء قبل وجودها ، لأن المراد بذلك انه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة ، ومعنى كونه عالماً بأنها ستوجد هو كونه عالماً بوجودها إذا وجدت لا يتجدد له حال بذلك . ويراه رسوله أي يعلمه رسوله فيشهد لكم بذلك عندالله تعالى ويراه المؤمنون وهم الشهداء او الملائكة الحفظة كتبة الأعمال

وروي ان اعمال الأمة تعرض على النبي ﷺ في كل اثنين وخميس فيعرفها وكذلك تعرض على أئمة الهدى (ع) فيعرفونها وانهم هم المعنيون بقوله تعالى والمؤمنون فاذا رأوا أعمالا حسنة من أمتهم وشيعتهم يفرحون بها ويفتخرون ويرفعون رؤوسهم عند ربهم وكأنهم يقولون هؤلاء شيعتنا يا ربنا الذين اهتدوا بهدانا وإذا رأوا أعمالا سيئة وأفعالا قبيحة يستاؤون منها وينكسون رؤوسهم عند ربهم من اعمال أتباعهم لأنهم محسوبون عليهم كما نرى ذلك في الدنيا ممن له أتباع وفوقه رئيس أعلا يستقري أعمالهم وكالمدرس بالنسبة إلى طلابه عند مجيء مفتش يعطي التقرير عنه وعن طلابه فاجتهدوا أيها المؤمنون بأن لا تخجلوا أئمتكم عند ربهم لانتسابكم اليهم وان عرض أعمالنا عليهم وعلى جدهم مما يستشم منه العتاب لهم ثم قال سبحانه: « وستردون إلى عالم الغيب والشهادة » أي سترجعون إلى الله الذي يعلم السر والعلانية « فينبئكم » أي يخبركم بحيث انتم تنسونه وهو لا ينساه « بما كنتم تعملون » فيجازيكم عليه وحاصل ذلك الاعلام بأن لا يذهب بكم الوهم ان ما تعملونه من خير يذهب سدى وبدون جزاء وثواب وكذلك ما تعملون من شر يذهب بدون عقاب وذلك قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » كل ذلك ترغيب منه لعباده على العمل

الصالح وأخذ الزاد لدار المعاد .

وأخيراً يجب عليه ان يعلم بما علم قال تعالى : « ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم » ومن المعلوم تعليم الأقرب أولى من الأبعد قال تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » والأولاد من أقرب الأقربين فيجب تعليمهم .

وخلاصة الفصل

إنا نرى اكثر الآباء إن لم يكن كلهم يتشكون من صنيع اولادهم ويتذمرون من سيء أخلاقهم ويتظلمون من عدم مساعداتهم والحالة ان أسباب ذلك تعود على الآباء انفسهم ، فلو انهم احسنوا تربيتهم في غضون شبابهم وطراوة اغصانهم وركزوها على أسس الدين وتعاليم رب العالمين وأخلاق سيد المرسلين لاندفع الأولاد إلى خدمة الآباء اندفاعاً طبيعياً وإسعافاً جدياً وفق العقيدة المركزة في قلوبهم عند تصاميم نشأتهم والمتشبعة في جذور كل حواسهم ولارتاح الآباء من سلوكهم وحسن سيرتهم ومتابعة حسناتهم وخيراتهم لآبائهم حتى بعد مماتهم فما لنا نترك الدواء ونشكو من الداء ، وأخيراً فان الولد عند بلوغه يكون أول تكليفه وبدء مصاحبة الملكين له وهما رقيب وعتيد يكتبان جميع اعماله ويحصيان كل ألفاظه وأقواله كما قال تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وانه في هذه المرحلة وان تظافرت عليه دواعي الشهوات وتكثرت لديه أسباب ارتكاب السيئات ، غير أن جهاده لنفسه وصموده في طاعة ربه له ايضاً عظيم الحسنات ورفيع الدرجات ، كما قد ورد انه ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ويستقبل بشبابه طاعة الله إلا أعطاه الله أجر سبعين صديقاً ، يقول الله عز وجل : ايها الشاب المبتذل شبابه لي التارك لشهواته من أجلي انت عندي كبعض ملائكتي .

وكما ذكر ان شاباً كان يتبع الحكماء في مجالسهم ويستمع إلى محاوراتهم فاستثقلوا منه واختفوا عنه في بيت وأغلقوا الباب عليهم فصعد الشاب إلى سطح ذلك البيت في الليل وأصغى إلى دروسهم من كوة هناك إلى طلوع الفجر فنهض وقد بني الثلج على ظهره فقدر الله تعالى جهده وشكر له سعيه ووفقه لعلم الحكمة حتى صار مرجعاً لجميع علماء وحكماء زمانه .

هكذا ينبغي أن يكون الشاب مغتنماً فرصة وقته ومتين قوته صارفاً لها في استكمال معرفته وتركيز عقيدته كي يفوز برضاء ربه ونعيم جنته بالاضافة إلى الحصول على التقدير من أبناء نوعه وحكماء قومه .

فقد ذكر ان حكيماً كان يلقي الدروس على جماعة من العلماء وكان يقدر ويحترم شاباً في ضمنهم فعاتبوا أستاذهم في ذلك ، وان فيهم الشيوخ والكهول فأمرهم جميعاً في يوم أن يأخذ كل واحد منهم طيراً ويذبحه في مكان لا يراه فيه أحد ويأتيه به ففعلوا كلهم إلا الشاب فقد أتاه بالطير حياً فقال له : لِمَ لم تمتثل كما امتثل اصحابك الشيوخ والكهول فقال : إنك اشترطت علينا أن نذبح في مكان لا يرانا فيه احد وقد اجتهدت في تحصيل ذلك فلم اجد مكاناً لم يرني الله عز وجل فيه ، فعند ذلك علم الجميع خطأهم وأعذروا الحكيم في تقديمه الشاب عليهم حيث علم منه التضلع في معرفة الله فالعمل لا يذهب ضياعاً .

الفصل الرابع
في كهولته وشيبه وهرمه

قال تعالى : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يُرد إلى ارذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير » (١) .

أي إن الله اوجدكم وأنعم عليكم بضروب النعم الدينية والدنيوية امتحاناً لكم واختباراً لما تكنه نفوسكم ثم يتوفاكم ويقبضكم بالموت لمجازاتكم على اعمالكم ومنكم من يبقيه حتى يصير إلى الهرم والخرف فيظهر النقصان في جوارحه وحواسه وعقله « لكيلا يعلم بعد علم شيئاً » أي ليرجع إلى حال الطفولية بنسيان ما كان علمه وفهمه وقت قوة حواسه وإدراكاته لقوة جوارحه ، وذلك من جهة كبره فكأنه لا يعلم شيئاً مما كان علمه .

وقيل : إن معناه ليقل علمه وإدراكه عما كان عليه في حال شبابه .

وقيل : إن معنى ارذل العمر أسوأ العمر وأخبثه عند اهله .

وقيل : أحقره وأهونه وإنما صار ارذل لأن الانسان لا يرجو بعده صحة وقوة وإنما يرتقب الموت والفناء .

وقد روي عن علي ﷺ ان ارذل العمر خمس وسبعون سنة .

وروي مثله عن النبي ﷺ .

وقيل : تسعون سنة « إن الله عليم » بمصالح عباده « قدير » على مايشاء من تدبيرهم وتقدير احوالهم .

(١) سورة النحل الآية ٧٢ .

الموت حكمة في كل أحواله

فان من حِكمَ الموت فى حال الشباب والقوة هو الوعظ والتنبيه للباقين بأن الذي قدر على موت امثالكم في حال القوة والسيطرة قادر على فنائكم فلا يأخذكم الغرور بما تتمتعون به من شبابكم فأنكم مرهونون بآجالكم « إذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » فاذا حل الأجل لا يفرق فيه بين الكبير والصغير . ومن حكم الموت في حال الكبر هو إلفات الأنظار إلى ان الموت على بغضه وكرهه هو نعمة وستر لابن آدم وإجلال له ، لأنه بحالة الهرم يعود ثقلا على اهله ولو تكاثروا فلربما يؤدي الحال إلى كنسهم من البيوت كنس الأقذار والأوساخ .

رقابة الملكين تشتد وتخف

فان الانسان إذا بلغ الأربعين من عمره وهو وقت كمال العقل اوحى الله إلى الملكين رقيب وعتيد ان اكتبا وتحفظا على اعماله ولا تسامحاه في شيء منها فقد روي أن الذنب الواحد منه ربما كتبوه في سبعة ارقمة وبعكسه في حال شبابه وذلك لكمال عقله وتمام إدراكه في كهولته ، وقد قال تعالى للعقل عندما خلقه أقبل فأقبل وأدبر فأدبر ثم قال : « بك اثيب وبك اعاقب » وحتى قيل : إن للانسان من الله رسولين ظاهري وهو نبي زمانه وباطني وهو عقله .

وورد اخذ ما وهب فسقط ما وجب ، ولقلة الدواعي فيه إلى ارتكاب الذنب لأخذ شهواته في الانتقاص بخلافه في حال شبابه فاذا ارتكب ذنباً كان

ذلك كاشفاً عن شفائه نفسياً لامن حيث شهوته وكلما زاد سنه زاد التشديد عليه

ومن هنا قال النبي ﷺ : إني لأعجب كل العجب من رجلين والله يبغضهما فقير متكبر وشيخ زان . وذلك لضعف الداعي فيهما إلى التكبر والزنا فهما إذاً من خبث الذات والسريرة فحق أن يكونا مبغوضين لله تعالى .

وورد ان الرجل إذا شابت لحيته وبقي على ما كان عليه من مقارفة الذنب اتاه الشيطان ووقف بحياله وقال : بأبي وجهاً لا يفلح ابداً انت مناي ومرادي فيسرجه ويلجمه ويركب على ظهره ويورده موارد الهلاك ، وربما نزل عنه وقال ان ظهره لنا متى أردنا ركبناه .

وورد ان ثلاثة امور من القبائح وإذا صدرن من ثلاثة يتضاعف قبحهن وعقابهن الكذب قبيح وإذا صدر من الرئيس يكون أقبح والزنا قبيح وإذا صدر من الشيخ يكون أقبح والفسق قبيح وإذا صدر من العالم يكون أقبح .

الشيب انذار الحليم

إن الشيب في الواقع والحقيقة هو رسول الموت لأنه المرحلة الأخيرة لابن آدم وحتى لو علل نفسه وأوهم عليها فيما سبقه من المراحل بطول الأمل وإن كانت لا عبرة بها ففي هذه المرحلة ينقطع عنه حتى الوهم والخيال ويجزم بأنه قد اجتاز المراحل كلها ولم يبق أمامه إلا الموت ، فقد ذكر ان أياس بن قتادة رأى شيبة واحدة في لحيته فقال : أرى الموت يطلبني وأراني لا أفوته يارب أعوذ بك من فجأة الموت ثم قال : يا بني قد وهبت لكم شبابي فهبوا لي شيبي .

ومعناه اني بذلت شبابي في تربيتكم وقوتي في مصالحكم ولم اكن مشتغلا فيهما لآخرتي فلا تكلفوني شيئاً من امورالدنيا في شيبي واتركوني أعمل فيما تبقى

من عمري لآخرتي . ولزم بيته فقال له اهله تموت هزالا فقال : لأن اموت مؤمناً مهزولا أحب إلي من ان اموت منافقاً مهزولا .

ومعنى قولهم له تموت هزالا حيث انه ترك الدنيا وأقبل على الآخرة فأخذه الخوف من أهوال يوم القيامة ، وايضاً فقد ترك مطاعم الدنيا وألوانها واقتصر على ما يقوت به نفسه كما يفعل الأولياء فصار مهزولا .

ومن هـذا وصف أمير المؤمنين (ع) المؤمنين بقوله : أنفسهم عفيفة اجسامهم نحيفة حاجاتهم خفيفة ... الخ .

الشيب رحمة للحكيم النابه

فيما إذا كان رادعاً لصاحبه كما ذكرنا عن أياس وأشباهه ، فقد ورد أن الله عز وجل قال : الشيب نوري فلا يجمل بي أن أحرق نوري بناري فهو تنبيه للشيخ وكأنه يقول : أيها الشيخ لا تلجئني إلى ذلك باستمرارك على المعاصي واحترم نوري في وجهك وتب إلي من ذنبك واندم على ما مضى من قبيح فعلك واستأنف العمل فيما بقي من عمرك كي يسلم نوري من أن يحرق بناري فيحمل على هذا المعنى توفيقاً بينه وبين ما مر من التشديد على الشيخ في معاصيه بحمل الطائفة الأولى على الشيخ المصر على الذنب والمستمر على المعاصي والطائفة الثانية على الشيخ النادم والكبير التائب .

لبيب نفعه شيبه

ذكر في كتاب الأنوار (١) انه قد وجد في كتاب تفسير أن ملكا من ملوك اليونان استعمل على ملبسه جارية قد أدبها بعض الحكماء فألبسته يوماً ثيابه وأرته المرآة فرأى شعرة بيضاء في لحيته فاستدعى بالمقراض فقصها فأخذتها الجارية فقبلتها ووضعتها مكاناً عالياً وأصغت أذنها اليها فقال لها الملك : لأي شيء تصغين اليها ؟ قالت : إني أسمع هذه المبتلاة بفقد كرامة قرب الملك تقول قولا عجيباً قال : وما هو ؟ قالت : ما يجتري لساني على النطق به قال : قولي وأمنت ما لزمت الحكمة فقالت : إنها تقول : أيها الملك المسلط إلى أمد قريب إني خفت بطشك بي فلم أظهر حتى عمدت إلى بناتي أن يأخذن بثاري وكأنك بهن وقد خرجن عليك ، فأما ان يمحلن الفتك بك ، واما ان ينقصن شهوتك وقوتك وصحتك حتى تجد الموت فقال : اكتبي كلامك فكتبته فبقي يتدبره وأخيراً نبذ ملكه وخرج سائحاً هكذا يتنبه اللبيب .

الشاعر يكشف عن نتيجة الشيب

يا ويح من فقد الشباب وغيرت ... منه مفارق رأسه بخضاب
يرجو عمارة وجهه بخضابه ... ومصير كل عمارة لخراب
اني وجدت أجل كل رزية ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

(١) ج ٣ ص ١٠٧ .

وقال آخر في الشكوى والتذمر مما لاقى من الشيب :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

ولذا ورد في مقام الوعظ والنصيحة اغتنم خمساً قبل خمس فراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وصحتك قبل سقمك وشبابك قبل هرمك وحياتك قبل موتك

وورد أيضاً قولهم : اغتنموا الفرص فانها تمر عليكم مر السحاب .

وروي انه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة وعصيتك عشرين سنة ، فان رجعت اليك أتقبلني ؟ فسمع قائلا يقول : أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت الينا قبلناك .

لطف من الله عام لكل الانام

لقد فتح الله تعالى لعباده باباً واسعاً من كرمه يستطيع الدخول منه كل فرد من عباده لنيل رحمته وسماه سبحانه التوبة وباسمها سميت باب من ابواب الجنة كما ورد في حديث المعراج من ان النبي ﷺ لما أشرف على ابواب الجنان فقال لجبرئيل : إن هذه الأبواب تغلق وتفتح ، قال : نعم إلا باب واحد وهو باب التوبة فانه مفتوح ابداً ، وهذا كناية عن قبول الله لتوبة التائب في ليل او نهار كما ورد من ان الرضا (ع) سئل ما تقول في الحديث الذي يروونه عن النبي ﷺ من ان الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة جمعة (١) فقال (ع) : لعن الله

---

(١) هذه عقيدة فرقة من الحنابلة والمجسمة ويزيدون انه تعالى ينزل على حمار وكانوا يضعون العلف ليلة الجمعة على سطوح دورهم لحمار الرب فلعنهم الرب .

المحرفين ما قال رسول الله ﷺ ذلك وإنما قال : إن لله ملكا ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير وفي ليلة الجمعة من اول الليل فينادي هل من سائل فأعطيه هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له ؟ يا طالب الخير اقبل يا طالب الشر اقصر فلا يزال ينادي بهذا حتى يطلع الفجر فاذا طلع الفجر عاد إلى محله من ملكوت السماء .

الدعوة من الله تعالى لعباده الى التوبة

لقد ندب سبحانه العباد في عدة مواضع من كتابه المجيد لأن يتوبوا من ذنوبهم ويستغفروه من معاصيهم لطفاً منه بهم وفتحاً لباب قبولهم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله » من معاصيكم له وارجعوا إلى طاعته « توبة نصوحا » أي خالصة لوجهه .

وعن ابن عباس ان معاذ بن جبل قال : يارسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال ﷺ : أن يتوب التائب ثم لا يرجع في ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

وقال ابن مسعود : التوبة النصوح هي التي تكفر كل سيئة وهي في القرآن ثم تلا هذه الآية .

وقيل : التوبة النصوح هي التي يناصح الانسان فيها نفسه باخلاص الندم مع العزم على عدم العود إلى مثله في القبح .

وقيل : هي أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن .

وقيل : هي التوبة المقبولة ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاث : خوف أن لا تقبل ورجاء أن تقبل وإدمان الطاعة عن سعيد بن جبير .

وقيل : أن يكون الذنب نصب عينيه ولا يزال كأنه ينظر اليه .

وقيل : هي مأخوذة من النصح وهو الخياطة ، لأن العصيان يخرق الدين والتوبة ترقعه .

وقيل : لأنها جمعت بينه وبين أولياء الله كما جمع الخياط الثوب وألصق بعضه ببعض .

وقيل : لأنها أحكمت طاعته وأوثقتها كما أحكم الخياط الثوب وأوثقه « عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم » بالتوبة والندم « ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار » بالفضل او بالأجر لامتثال أوامر التوبة وعسى وإن كانت للترجي لكنها منه تعالى للقطع واليقين ، بحيث ان الكريم لم يقبل لنفسه بالعفو عن سيئات التائبين فقط ، بل يشفعها بالتعهد لهم بادخالهم الجنة الموصوفة بأنها تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار تشويقاً وترغيباً لتوبة العاصين ورجوع الآبقين ، وهو القائل عز من قائل : « يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين قال يا رب كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين قال يا داود بشر المذنبين اني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فانه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك » .

يا داود كما لا تضيق الشمس على من جلس فيها كذلك رحمتي لا تضيق على من دخل فيها .

ومما أوحى إلى داود انك ان أتيتني بعبد آبق لكتبتك عندي حميدا ومن كتبته عندي حميدا لم أعذبه بعدها ابدا .

يا داود نح على خطيئتك كالمرأة الثكلى على ولدها : من أتاني وهو متحير من المعاصي التي عصاني بها غفرتها له وأنسيتها حافظيه . فانظر إلى بعيد جذور كرمه تعالى وانه لم يكتف بغفران معاصي التائب بل أنساها الحافظين ليرفع التائب رأسه عالياً يوم القيامة ولا شاهد يشهد عليه بالعصيان أمام المطيعين .

يا داود أحبني وحببني إلى خلق قال : يا رب نعم أنا أحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكر أيادي عندهم فانهم إذا ذكرت ذلك لهم احبوني .

يا داود صفني لخلق بالكرم والرحمة واني على كل شيء قدير .

يا داود من ذا الذي انقطع إلي فخيبته ، ومن ذا الذي اناب إلي فطردته عن باب إنابتي ، مالكم لا تقدسون الله وهو خالقكم ومصوركم على ألوان شتى مالكم لا تحفظون طاعة الله آناء الليل واطراف النهار ، مالكم لا تطردون المعاصي عن قلوبكم كأنكم لا تموتون وكأن دنياكم باقية لا تزول ولا تنقطع ، يا ايها الناس لا تغفلوا عن الآخرة ولا تغرنكم بهجة الدنيا ونضارتها ولكم في الجنة عندي اوسع واخصب ، اعملوا لآخرتكم واشتروها بالدنيا ولا تكونوا كقوم اتخذوها لهواً ولعباً لا تستخفوا بحقي فأستخف بكم في النار . يا بني إسرائيل لو تفكرتم في منقلبكم ومعادكم وذكرتم القيامة وما اعددت فيها للعاصين قل ضحككم وكثر بكاؤكم ولكنكم غفلتم عن الموت .

ومما اوحى الله تعالى إلى داود من احب حبيباً صدّق قوله ، ومن آنس بحبيب قبل قوله ورضي فعله ، ومن وثق بحبيب اعتمد عليه ومن اشتاق إلى حبيب جد في السير اليه .

يا داود ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي للمشتاقين وانا خاصة للمطيعين اين المشتاقون إلى لذيذ الطعام والشراب اين الذين جعلوا مع الضحك بكاء اين الذين هجموا على مساجدي في الصيف والشتاء .

يا داود بي فافرح وبذكري فتلذذ وبمناجاتي فتنعم .

يا داود احذر القلوب المعلقة في شهوات الدنيا فانها محجوبة عني .

يا داود لو رأيت الذين يأكلون الناس بألسنتهم وقد بسطتها بسط الأديم وضربت نواحي ألسنتهم بمقامع من نار وسلطت عليهم موبخاً يقول : يا اهل النار

هذا فلان السليط فاعرفوه .

يا داود كم ركعة طويلة فيها بكاء وخشية صلاها صاحبها لا تساوي عندي فتيلا حين نظرت في قلبه فوجدته ان سلم من الصلاة وبرزت له امرأة وعرضت عليه نفسها اجابها وان عامله مؤمن خانه .

يا داود اتل على بني إسرائيل نبأ رجل دانت له اقطار الأرض حتى استوى وسعى في الأرض فساداً وأخمد الحق وأظهر الباطل وعمر الدنيا وحصن الحصون وحبس الأموال فبينما هو في غضارة دنياه إذ اوحيت إلى زنبور يأكل لحم خده فدخل ولذع الملك وبين يديه وزراؤه وأعوانه فورم خده وتفجرت منه اعين دماً وقيحاً حتى كان كل من يجلس عنده شم منه نتناً عظيما حتى دفن جثة بلا رأس فلو كان للآدميين عبرة تردعهم لردعتهم ، ولكن اشتغلوا بلهو الدنيا فنذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتيهم امري ولا يضيع اجر المحسنين .

المسارعة الى التوبة كي لا تفوت

من اقوال لقمان يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة واجعل الموت نصب عينيك والوقوف بين يدي خالقك وتمثل شهادة جوارحك عليك بعملك والملائكة الموكلين بك تستحي منهم ومن ربك الذي هو شاهدك .

يا بني لا تشمت بالمصائب ولا تعير المبتلى ولا تمنع المعروف فانه ذخيرة لك في الدنيا والآخرة .

يا بني ثلاثة تجب مداراتهم المريض والسلطان والمرأة .

يا بني أستعذ بالله من شرار النساء وكن من خيرتهن على حـــذر وإذا دعتك القدرة على ظلم من هو دونك فاذكر قدرة الله عليك .

يا بني الظلم ظلمات ويوم القيامة حسرات وكن متقياً تكن عزيزاً وإياك وما تعتذر منه فانه لا يعتذر من خير وأحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ولا تقل ما لا تعلم واجهد أن يكون اليوم خيراً لك من أمسك وغداً خيراً لك من اليوم فانه من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون وارض بما قسم الله لك فانه سبحانه يقول : أعظم عبادي ذنباً من لم يرض بقضائي ولم يشكر نعمائي ولم يصبر على بلائي .

يا بني أغنى الناس من قنع بما في يده وأفقرهم من مد عينيه إلى ما في أيدي الناس .

يا بني اجعل غناك في قلبك وإذا افتقرت فلا تحدث الناس بفقرك فتهون عليهم ولكن اسأل الله من فضله وعليك باليأس عما في ايدي الناس والوثوق بوعد الله واسع فيما فرض عليك ودع السعي فيما ضمن لك .

يا بني تعلم من العلماء ما جهلت وعلم الناس ما علمت تذكر بذلك في الملكوت

يا بني من لا يملك لسانه يندم ومن يكثر المراء يشتم ومن يدخل مداخل السوء يتهم ومن يصاحب صاحب السوء لا يسلم ومن يجالس العلماء يغنم .

يا بني لا يكن الديك اكيس منك واكثر محافظة على الصلوات ألا تراه عند كل صلاة يؤذن لها وبالأسحار يعلن بصوته وانت نائم .

يا بني إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار انت اليها تسير أقرب من دار أنت عنها متباعد .

يا بني خف الله لو أتيته يوم القيامة بعمل الثقلين خفت أن يعذبك وارج الله رجاء لو وافيته يوم القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك ولا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها .

يا بني من تقرب من الزفت تعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم

من طرقه كن عبداً للأخيار ولا تكن خليلا للأشرار لأن يضربك الحكيم فيؤذيك خير من أن يدهنك الجاهل بدهن طيب ، إياك والحسد وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر فانك لا تضر بها إلا نفسك ولا يعد منك حسن الخلق وبسط الوجه ولا تكن في هذه الدنيا كشاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حتفها عند سمنها اتعظ بالناس قبل أن يتعظ الناس بك .

يا بني املك نفسك حتى لا تكون لجهنم حطباً اجعل الدنيا سجنك فتكون الآخرة جنتك جاور المساكين .

يا بني انه ليس كل من قال اغفرلي غفر له انه لا يغفر إلا لمن عمل بطاعته إياك ومصاحبة الفساق فانما هم كالكلاب إن وجدوا عندك شيئاً أكلوه وإلا ذموك وفضحوك فانما حبهم بينهم ساعة .

يا بني معاداة المؤمن خير من مصادقة الفاسق إن الفاسق لا يراقب الله فكيف يراقبك .

يابني استكثر من الأصدقاء ولا تأمن من الأعداء لا تكالب الناس فيمقتوك ولا تكن مهيناً فيذلوك ولا تكن حلواً فيأكلوك ولا تكن مراً فيلفظوك انه النفس عن هواها وإلا لن تدخل الجنة ولن تراها .

يا بني تعلمت سبعة آلاف من الحكمة فاحفظ منها أربعاً وسر معي إلى الجنة احكم سفينتك فان البحر عميق وخفف حملك فان العقبة كؤود واكثر من الزاد فان السفر بعيد وأخلص العمل فان الناقد بصير .

يابني من ذا الذي ابتغى الله فلم يجده ومن ذا الذي لجأ إلى الله فلم يدافع عنه ومن ذا الذي توكل على الله فلم يكفه .

يا بني لا تطلب رضا جميع الناس ومدحهم فانك لا تقدر على ذلك ، وأراد أن يوضح ذلك عملياً فأخذ حماراً وركبه وترك ابنه يمشي فمر بجماعة فذموا فعله

فأركب ابنه وصار هو يمشي ومروا على جماعة اخرى فذموا فعله فركبا جميعاً فذمها جماعة اخرى ونزلا جميعاً فذمهما جماعة اخرى فقال لابنه : لا تلتفت إلى الناس واشتغل برضاء الله تعالى .

هذه النصائح كافية لمن طلب خير الدنيا والآخرة واضحة لمن اعطاها حق النظر وصرف اليسير من وقته لمطالعتها .

وما أدري ما يمنع القارئ عن استقصائها هل يتهم صاحبها بالغش لعباد الله والكذب فيما وجههم به إلى الله لايستطيع أي انسان التفوه بذلك ، بينما نجد الانسان يصرف الكثير من أوقاته وحتى لو زاحمت ضرورياته بالتزام مطالعة صحيفة مثلا يعلم كذب صاحبها ويقطع بتمويه ألفاظها وهو نفسه يتحدث باستئجار محررها ويعترف بعدم انتفاعه بها في دنياه وأخراه فاذاً ما هو إلا الشيطان وعدو الانسان بصريح القرآن ودوافع النفس وشهوتها وحب الدنيا وبوارق زينتها فهل لنا ان نرعوي ونستأنف العمل ونمد يد المصالحة مع الرب الرؤف الحنون .

فقد روي عن النبي ﷺ انه قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .

وعنه ﷺ ايضاً إن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل نزل بأرض مقفرة مهلكة بعيدة ومعه راحلته فنام واستيقظ فوجد راحلته قد ذهبت منه مع زاده وشرابه فطلبها فلم يجدها ، فلما أدركه الموت من شدة الجوع والعطش قال: ارجع إلى المكان الذي ظلت فيه راحلتي وأموت فيه فأتى مكانه وغلب عليه النوم فلما استيقظ وإذا راحلته عنده مع شرابه وزاده فالله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من فرح هذا براحلته .

وكما ذكرنا ينبغي المبادرة إلى التوبة آناً قبل آن وعدم التسويف فان اكثر صياح اهل النار (آه من سوف) والعلاج لازالة التسويف هو التفكير

بأن التسويف مبني على أمر ليس بيدنا وهو البقاء ، فلعلنا لا نبق وان بقينا لانقدر ايضاً لانا قد عجزنا عن التوبة مع القوة فكيف بنا مع حالة الضعف والهرم فثالنا في تأخير التوبة كمثل من أراد قلع شجرة صغيرة لا تنقلع إلا بمشقة فيقول أؤخرها ثم أعود اليها بعد مدة وهو يعلم انها تزداد رسوخاً في الأرض كلما بقيت وهو يزداد ضعفاً كلما بقي فهلا نعد من يبقيها وهو يريد قلعها من أحمق الحمقاء وأسفه السفهاء فسوف التوبة اعظم حمقاً وأشد سفاهة منه .

وللسيد المرتضى كلام ما أحسنه قال : إن الانسان إذا أذنب ذنباً يقول : نرجو عفو الله ورحمته فيعتمد على العفو مع ان الله لم يوجبه على نفسه وان الرزق الذي اوجبه على نفسه وتعهد بايصاله إلى خلقه لم يصدق به ولم يعتمد فيه عليه فيطلبه في البراري والبحار وقد قال سبحانه : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » فكيف لا تعتمد عليه فيما ضمنه لك واعتمدت عليه فيما لم يضمنه لك ولو ضمن لك رجل كافر له بعض الاعتبار بين التجار الف دينار كنت تصدقه وتعتمد عليه وتجعله رصيداً لك ولا تعتمد على ضمان من له خزائن السموات الأرض فما هذا إلا سفه .

التصريحات بلسان سيد الكائنات

في غفران الله للسيئات

روي عنه ﷺ انه قال : إذا أذنب العبد ذنباً فقال : يارب أذنبت ذنباً فاغفره لي قال الله عز وجل : علم عبدي ان له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنباً آخر فقال : يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي

قال : ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخـــذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء .

وكان علي (ع) يقول : العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل له : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال (ع) : الاستغفار .

وقيل : إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، إما دائكم الذنوب ، وإما دوائكم الاستغفار .

وقيل : إنه اجتمع أربعة من الأصحاب ، فقال الأول منهم : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم ،

فقال الثاني : أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت ولو بنصف يوم .

فقال الثالث : أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بضحوة ، وفي نسخة بضجمة .

فقال الرابع : أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يقبل التوبة من عبده ما لم يغرغر .

مأثرة غريبة في قبول الله توبة التائب

عن سعيد الخدري ان نبي الله ﷺ قال يوماً : لقد كان فيمن قبلكم من الأمم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم سأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال له : إني قتلت تسعاً وتسعين نفساً فهل لي من توبة ؟ فقال له الراهب : لا ، فقتل الرجل الراهب و كمل به المائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل عليه فقال له : إني قتلت مائة نفس فهل لي من توبة ؟ فقال له : نعم ومن

يحول بينك وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا فان بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا كان في نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، وقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلا بقلبه على الله تعالى فأتاهم ملك فحكّموه فيما بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فالى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي قصدها للطاعة والتوبة . وقيل : إنه كان أقرب بشبر واحد فقبضته ملائكة الرحمة .

رفع الاستبعاد عن قبول توبة العباد

قال الله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » (١) .

أي قل يا محمد لعبادي الذين أسرفوا بارتكاب الذنوب واكثروا فيها : لا تيأسوا من مغفرة الله لكم وعفوه عنكم وإن كثرت ذنوبكم وعظمت خطاياكم إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبقي منها واحداً لو أخلصتم في توبتكم كما قدمنا معناه

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ انه ﷺ قال : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ، نعم لأنه ﷺ الرحيم بأمته .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال : ما في القرآن آية أوسع من يا عبادي الذين أسرفوا ... الخ .

وفي مصحف عبدالله بن مسعود إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء .

وقيل : إن الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف

(١) سورة الزمر الآية ٥٠

أن لا تقبل توبته ، فلما نزلت الآية أسلم ، فقيل : يا رسول الله هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال : بل للمسلمين عامة .

وهذا لا يصح لأن الآية نزلت بمكة وإسلام وحشي بعدها بسنين كثيرة ولكن يمكن تصحيحه بأن يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه فهي على عمومها والله يغفر الذنوب للتائب لا محالة إن صحت توبته وخلصت نيته .

تعهد آخر منه تعالى لغفران ذنوب التائب

قال تعالى : « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » (١)، فغفار على وزن المبالغة ولا يخفى مافيه من الترغيب على التوبة وانه مستعد لقبولها بشرط إيمانه بالله وعمله الصالح وهو أداء الفرائض (ثم اهتدى) أي لزم الايمان واستمر عليه إلى أن يموت .

وقيل : إن معناه ثم لم يشك في إيمانه .

وقيل : ثم أخذ بسنة النبي ﷺ ولم يسلك سبيل البدعة .

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام : ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت فوالله لو أن رجلا عبد الله عمره مابين الركن والمقام ثم مات ولم يجيء بولايتنا لأكبه الله في النار على وجهه (٢) .

(١) سورة طه الآية ٨٢ .

(٢) رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني باسناده وأورده العياشي في تفسيره من عدة طرق

تصريح آخر بقبول التوبة

قال تعالى : « ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (١) .

قيل : إن معنى الجهالة أي بداع الجهل وبدافعه .

وقيل : جهل السيئات وعدم معرفتها .

وقيل : جهالتهم العاقبة لعمل السيئات والعقاب عليها .

وقيل : جهالة ان هذه الأعمال أعمال سوء .

وقيل : الجهالة هو أن يعجل بالاقدام عليها ويسارع إلى العمل بها ويعد نفسه التوبة عليها ، ويمكن أن يكون المقصود من الجميع هو أن يكون العامل للسيئات ليس مندفعاً عن سوء العقيدة وخبث السريرة ، بل أن اندفاعه يكون عن شهوات نفسه او عدم تأمله او قلة مداركه ومعلوماته ، فالله جل شأنه يتعهد للتائب عن ذلك والنادم على ما سبق منه والاقلاع عن تلك الرذائل بقبول توبته وغفران خطيئته وترفيع درجته ، لكن بشرط أن يكون مصلحاً لنفسه من ذلك التلوث ومصفياً لها من ذلك التكدير ، وعاملاً في مستقبله للصالحات ، بحيث أن الناظر لأعماله الجديدة وحالاته الحديثة يعده ضد شخصه الأول وحتى هو نفسه يرى ذاته قد تبدلت ونفسه قد صقلت وأعماله قد تبلورت ، ويرى انه من خفة الروح ونظافة النفس كأنه خلق جديد . نعم إذا كان بهذه المثابة من التوبة وإرجاع الحقوق إلى أهلها او استيهابهم منها تشمله رحمة الباري وينفتح له باب القبول كما قد اكد ذلك له ربه الكريم بقوله : « إن ربك من بعدها لغفور رحيم » ، ولا يخفى ما في التعبير بقوله : إن ربك دون قوله إن الله من الرأفة والحنان منه وانه المربي لعباده ومن شأن المربي قبول العذر .

(١) سورة النحل الآية ١١٩ .

قصة غريبة وذنب عظيم تزيله التوبة

قال الله تعالى : والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين (١) ، قد اختلف المفسرون في معنى الفاحشة وظلم النفس فقيل الفاحشة الزنا وظلم النفس سائر المعاصي

وقيل : الفاحشة الكبائر وظلم النفس الصغائر .

وقيل : الفاحشة الفعل وظلم النفس القول .

وقيل : الفاحشة كل معصية ظاهرة وظلم النفس الباطنة . المعنى قوله ذكروا أي ذكروا ما اوعد الله العاصين من العقاب فانزجروا واستغفروا لذنوبهم فمعنى الذكر هو التذكر بعد النسيان ويكون مدحه تعالى لهم حيث تعرضوا للتذكر وتأملوا .

وقيل : معنى ذكروا هو ذكره تعالى في الدعاء بقولهم اللهم اغفر لنا ذنوبنا فانا تبنا نادمين مقلعين عن المعاصي ، واما قوله تعالى : ومن يغفر الذنوب إلا الله جملة معترضة قصد بها الترغيب والتشويق الى الاستغفار وهذا من بليغ لطفه بعباده وعظيم كرمه وجزيل منّه وهو الغاية في ترغيب العاصين في التوبة وطلب المغفرة منه تعالى لأنه كما قال : لا يغفر الذنوب إلا هو لأن اسقاط العقاب بيده لا يشركه أحد فيه وهذا كما يقول السيد لعبده أو الوالد لولده اعتذر إلي ومن يقبل عذرك أو من يقضي حاجتك غيري وقوله (ولم يصروا)

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .

أي لم يقيموا على المعصية ولم يواظبوا عليها .

وقيل : ان معنى الاصرار هو فعل الذنب من غير توبة وهو قريب من الأول لان الاستغفار إنما يؤثر عند ترك الاصرار .

وقد روي عن النبي ﷺ انه قال لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار لانه إذا كان مصراً على الصغيرة تكون كبيرة وقوله تعالى : (وهم يعلمون) فيه وجوه :

(احدها) وهم يعلمون الخطيئة ذاكرين لها غير ساهين ولا ناسين لان الذنب المنسي يغفره تعالى وان لم يتب منه صاحبه بعينه فالغفران المشروط بالتوبة هو مع العلم بالذنب وهذا تعظيم لامر التوبة وانها تستوجب غفران الذنوب ولو كانت معلومة المذنب وغير منسية .

(ثانيها) ان معناه يعلمون الحجة والدليل على انها خطيئة ومع ذلك تغفر لهم بالتوبة اما الذنب الذي لا طريق لهم الى معرفة انه ذنب ولا دليل لديهم عليه كان الاثم موضوعا عنهم كمن تزوج امه من الرضاع او النسب وهو لا يعلم فانه لا يأثم وهذا أيضاً من تعظيم أمر التوبة وانها تغفر الذنب وان قام الدليل على حرمة ارتكابه

(ثالثها) انهم يعلمون ان الله تعالى يملك مغفرة ذنوبهم ثم قال تعالى : « جزاؤهم مغفرة من ربهم » فان قيل انه قد فهم مما تقدم انه يغفر لهم فما معنى قوله تعالى : جزاؤهم مغفرة ، فيقال في جوابه معناه انه يستر عن الخلق ذنوبهم ولا يفضحهم وكأنهم غير مذنبين ومستغفرين والقصد من ذلك إزالة العار أيضاً مع العقاب عنهم جزاءً لهم ولذا قال سبحانه : ونعم أجر العاملين ، حيث أن الستر على الذنب بحيث لا يستتبع العار لا يقل عن إسقاط العقاب وقد قالوا ان إسقاط العقاب عند التوبة تفضل منه تعالى واما استحقاق الثواب عليها فهو واجب لانه

كلف وامر بالتوبة وندب اليها وامتثال التكليف يستوجب الثواب فما يمنعك ايها المذنب من التوبة إذا كان الجليل يتعهد لك بقبولها ويسقط عنك عقابها ويعطيك فوق ذلك الثواب عليها ان رحمته وسعت كل شيء .

السبب في نزول الآية وغرابة القصة

ما رواه الصدوق باسناده الى الدوسي قال : دخل معاذ بن جبل على رسول الله ﷺ باكياً فسلم فرد عليه السلام ثم قال ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : يا رسول الله ان بالباب شاباً طري الخد نقي اللون حسن الصورة يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك فقال ﷺ : أدخله يا معاذ فأدخله فسلم على النبي ﷺ فقال له ما يبكيك يا شاب ؟ قال كيف لا ابكي وقد ركبت ذنوبا ان اخذني الله على بعضها ادخلني نار جهنم ولا اراني إلا وسيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً فقال رسول الله ﷺ هل أشركت بالله شيئاً ؟ قال اعوذ بالله ان اشرك بربي شيئاً قال ﷺ : أقتلت النفس التي حرم الله عليك ؟ فقال لا فقال النبي ﷺ : يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل الجبال الرواسي قال الشاب : فانها اعظم من الجبال الرواسي قال ﷺ : يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل الارضين السبع وبحارها ورمالها واشجارها وما فيها من الخلق فقال الشاب : وانها اعظم من الارضين وما ذكرت فيها فقال ﷺ : يغفر الله لك ذنوبك وان كانت مثل السماوات ونجومها ومثل العرش والكرسي فقال : وانها أعظم من ذلك قال : فنظر النبي ﷺ اليه كهيئة الغضبان ثم قال : ويحك يا شاب ذنوبك أعظم أم ربك ؟ فخر الشاب على وجهه وهو يقول سبحان الله ربي ما شيء اعظم من ربي ربي أعظم يا نبي الله من كل عظيم فقال النبي ﷺ : فهل يغفر الذنب

العظيم إلا الرب العظيم فقال الشاب : لا والله يا رسول الله ثم سكت الشاب فقال النبي ﷺ : ويحك يا شاب ألا تخبرني بذنب واحد من ذنوبك ، قال : بلى اخبرك اني كنت انبش القبور سنين واخرج الموتى وانزع الاكفان عنهم فماتت جارية من بنات الانصار فلما دفنت وجن الليل اتيت قبرها فنبشته واستخرجتها ونزعت ما كان عليها من اكفانها وتركتها مجردة على شفير قبرها ومضيت منصرفاً فأتاني الشيطان فاقبل يزينها ويقول اما ترى بطنها وبياضها أما ترى وركيها فلم يزل يقول لي هكذا حتى رجعت اليها ولم املك نفسي حتى جامعتها وتركتها مكانها فاذا انا بصوت من ورائي يقول يا شاب ويل لك من ديان يوم الدين يوم يقضي وإياك كما تركتني عريانة في عساكر الموتى ونزعتني من حفرتي وسلبت اكفاني وتركتني أقوم جنبة الى حسابي فويل لشبابك من النار فما أظن انى اشم ريح الجنة أبداً فما ترى يا رسول الله فقال النبي ﷺ تنح عني يا فاسق اني أخاف ان احترق بنارك فما اقربك من النار فذهب الشاب وتزود من المدينة وخرج واتى بعض جبالها فتعبد فيها ولبس مسحاً وغل يديه جميعاً الى عنقه ونادى يا رب هذا عبدك بهلول بين يديك مغلول يا رب انت الذي تعرفني زل مني ما تعلم يا رب وسيدي اني اصبحت من النادمين واتيت نبيك تائباً فطردني وزادني خوفاً فأسألك باسمك وجلالك وعظمة سلطانك ان لا تخيب رجائي سيدي ولا تبطل دعائي ولا تقنطني من رحمتك فلم يزل يقول ذلك أربعين يوماً وليلة وتبكي له السباع والوحوش فلما تمت له أربعون يوماً وليلة رفع يديه الى السماء وقال اللهم ما فعلت في حاجتي ان كنت استجبت دعائي وغفرت خطيئتي فأوح الى نبيك وان لم تستجب لي دعائي ولم تغفر لي خطيئتي واردت عقوبتي فعجل بنار تحرقني او عقوبة في الدنيا تهلكني وخلصني من فضيحة يوم القيامة فانزل الله تعالى على نبيه « والذين إذا فعلوا فاحشة » يعنى

الزنا « او ظلموا انفسهم » يعني بارتكاب ذنب أعظم من الزنا وهو نبش القبور وأخذ الاكفان « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » أي خافوا فعجلوا التوبة « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ومعناه أتاك عبدي يا محمد تائباً فطردته فاين يذهب والى من يقصد ومن يسأل غفران ذنوبه غيري « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » أي لم يقيموا ويداوموا على الزنا ونبش القبور ونزع الاكفان « اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ... الخ » فلما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ خرج وهو يتلوها ويتبسم فقال لأصحابه من يدلني على ذلك الشاب التائب قال معاذ أنا أدلك عليه يا رسول الله بلغنا انه في موضع كذا وكذا فمضى رسول الله بأصحابه حتى انتهوا الى ذلك الجبل فصعدوا اليه فاذا هم بالشاب قائم بين صخرتين مغلولة يداه الى عنقه قد اسود وجهه وتساقطت اشفار عينيه من البكاء وهو يقول قد أحسنت خلقي وأحسنت صورتي فليت شعري ماذا تريد بي أفي نارك تحرقني ام في جوارك تسكنني (١) اللهم انك قد اكثرت الاحسان إليّ وأنعمت علي فليت شعرى ماذا يكون آخر أمري ان الجنة تزفني ام الى النار تسوقني اللهم خطيئتي أعظم من السماوات والأرض ومن كرسيك الواسع العظيم وعرشك العظيم فليت شعرى تغفرلي خطيئتي ام تفضحني بها يوم القيامة فهو على هذا الحال يبكي ويحثو التراب على رأسه إذ دنا منه رسول الله ﷺ فاطلق يديه من عنقه ونفض التراب عن رأسه وقال يا بهلول ابشر فانك عتيق الله من النار ثم قال ﷺ لاصحابه هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول ثم تلا ما أنزل الله عز وجل فيه وبشره بالجنة . والاشكال في أن النبي ﷺ قد مناه أولا بالتوبة ثم طرده وخوفه مدفوع بانه ظن أولا ان ذنبه وجرمه من حقوق الله فامله اعتماداً على كرمه تعالى وطرده وخوفه حيث ظهر له ان ذنبه من حقوق

(١) هذا ما أشارت اليه الاخبار مراراً وهو أن يكون المذنب مترددا بين اليأس والرجاء

الناس لم يكن له يد على قبول توبته ويمكن أن يكون تخويفه له لردع الامة عن ارتكاب مثل هذه الجرائم ، واما الاشكال بعفو الله تعالى عنه وذنبه من حقوق الناس مما يستلزم اسقاطه تعالى حقوق عباده الآخرين فمدفوع بما تكثر التنبيه عليه من أنه تعالى يرضي صاحب الحق حتى يقول يا رب لا اريد حقي وقد اسقطته واما الشبهة في تكلم الجارية مع الشاب وهي جماد فهي ناشئة من الجهل بقدرة الله على انه يمكن القول مجاراة مع الظاهر ان الصوت كان من ملك عن لسانها بامر له من الله تعالى وان مثل هذا يعد لطفاً بعباده المذنبين لزجرهم وتخويفهم كي يلتجئوا الى التوبة قبل موافاة آجالهم وهم على تماديهم في معاصيهم واتباع شهواتهم وحينئذ تنقطع عنهم وسائل الغفران ويكون مصيرهم الحتمي الى عذاب النيران .

الفلسفة

في وجوب المبادرة الى التوبة

قد أجمعت كلمة المسلمين على وجوب التوبة من الذنب ومعنى ذلك انه إذا ترك التوبة تحمل اثم تركها اضافة الى اثم ذنبه واختلفوا في أن وجوبها على الفور ام على التراخي وقد ذهب الى ان وجوبها فوري وعلى أثر ارتكاب الذنب وبدون مهلة المعتزلة والامامية لأن المعاصي للايمان كالسموم للابدان فكما ان الشخص يتباعد أشد التباعد عن المأكولات المسمومة ويحتاط من مشكوكاتها فكذلك يلزمه بحكم الطبيعة التباعد عن المعاصي لانها سموم القلب والروح ثم إذا وقع الشخص منا في تناول السم فكيف يسارع الى التخلص منه اما بالقيء أو بأخذ أضداده من قبل أن يمضي مفعوله ولا ينفع حينئذ العمل مع انه إذا لم يسارع اليه غاية ما يلزم من ضرره الموت وبه تفوت الحياة الموقتة القصيرة اما سموم الذنوب اذا لم يسارع الى إزالتها ومحوها بالتوبة فسوف تتراكم على

القلب وتنطبع عليه ولا يجدي معه وعظ ولا ارشاد كما قال سبحانه « وسواء عليهم ائنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون » وقوله تعالى : « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » والحالة انها تفوت عليه الحياة الابدية والجنة السرمدية فهي أولى بالدفاع عنها فتسويف التوبة على أحد خطرين اما الفرت أو الانطباع « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ومن أحبه الله فقد حصل على أعلى المراتب لانه تعالى لا يحب إلا من ارتضاه ومن رضي عنه فاز ونجى . ولذا نرى الشارع المقدس قد ندب الى التوبة ورغب وشوق بفنون من البيان .

فمن النبي ﷺ انه قال لا تأتون يوم القيامة إلا وتحت كل ذنب استغفار يكون مكتوباً في صحائف أعمالكم .

وقال الصادق عليه السلام : إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة فقلت وكيف يستر عليه قال ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ويوحي الى جوارحه أن اكتمي عليه ذنوبه ويوحي الى بقاع الارض أن اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب .

وقد اقتفوا ببياناتهم عليهم الصلاة والسلام أقوال من اختارهم هداة لخلقه واصطفاهم رعاة لعباده حيث أنه تعالى قد كرر طلب التوبة في عدة مواضع من كتابه المجيد ، ورغب عباده اليها بما رتب من عظيم الأجر والثواب عليها وبالاضافة الى ما تقدم بيانه فقد قال أيضاً سبحانه وتعالى : « يريد الله أن يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً » .

المعنى

يريد الله أن يبين لكم أحكامكم وتكاليفكم المطلوبة منكم لدينكم ولنظمكم في دنياكم وامور معاشكم ومعادكم ويهديكم سنن وطرق الذين كانوا قبلكم من أهل الحق والباطل لتكونوا مقتدين بهم متبعين آثارهم ولتكونوا على بصيرة فيما تفعلون وما تجتنبون من طرائقهم « ويتوب عليكم » أي ويقبل توبتكم لو تبتم أي يريد التوبة عليكم بالدعاء اليها والحث والترغيب اليها وتيسير السبيل اليها وفي هذا دلالة على بطلان قول المجبرة لأنه قد بين أنه لا يريد إلا الخير والصلاح فكيف يصح قولهم أن الخير والشر كله من الله « والله عليم » بكل شيء لا تخفى عليه خافية من سرائركم وضمائركم « حكيم » أي يضع الاشياء في محالها حسب ما تقتضيه المصلحة الكامنة في ضمن ذلك الشيء الذي يضعه والمفسدة الكامنة في ضمن ذلك الشيء الذي يرفعه « والله يريد أن يتوب عليكم » أي يلطف بكم ويساعدكم فيها ويوفقكم لها ويقوي دواعيكم اليها ان اردتموها وقد كرر ذكر التوبة في هذه الآية للتأكيد كي يدفع استبعاد توبته على المذنبين وايضاً الاول لبيان ارادته الهداية والانابة من عباده وفي الثاني بيان ان ارادته وهي التوبة عليكم خلاف ارادة ذوي الاهواء ومتبعي الشهوات الذي قيل في تفسيره متبعي شهوات أنفسهم في باطلهم لا ينظرون الى مصالح غيرهم فكيف يتبعهم الغير فهؤلاء يريدون منكم « ان تميلوا ميلا عظيما » أي تعدلوا عن الاستقامة عدول بيناً بالاستكبار وارتكاب المعصية لأن الاستقامة مؤدية الى الثواب والنجاة من العقاب والميل عنها يؤدي الى الهلاك واستحقاق العقاب والعذاب ، وإنما قال ميلا عظيما أي يجهدون في ذلك باذلين كل امكانياتهم في اقناعكم لان

العاصي يأنس بالعاصي كما ان المطيع يأنس بالمطيع ، كما قال الشاعر : إن الطيور على أمثالها تقع . وقال آخر : وكل إلف لألفه يلف .

فكيف تجد المؤمن المطيع يبذل كل جهوده في إرشاد غيره وهدايته ، فكذلك العاصي حيث هو يروم تكثير أمثاله ليسلم من ذمهم له كما قال تعالى : « ودوا لو تدهن فيدهنون » وقوله تعالى : « ودوا لو تكفرون كما كفروا » ثم بين سبحانه فلسفة الأمر بالتوبة بقوله أخيراً : « يريد الله أن يخفف عنكم » في التكاليف بقبول التوبة والتوفيق لها وقد خفف من تكاليف هذه الأمة مالم يخفف عمن قبلها « وخلق الانسان ضعيفاً » يستميله هواه وتجذبه شهوته ويستشيطه خوفه وحزنه وغضبه ، فعلم سبحانه ان عباده لا يخلون من ارتكاب الذنوب عدا من عصمهم ، لذا تداركهم بالتوبة وقد فتح لهم باب قبولها على مصراعيه . كما قد ظهر ذلك من مضامين الأخبار السالفة .

تهديد المسوف للتوبة بمباغتة الاجل

قال تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء إشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم فاعلم انه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم » (١) .

(المعنى) : بعد ما ذكر سبحانه المكذبين وانهم قد طبع على قلوبهم لاتباعهم أهواءهم وشهوات نفوسهم ، ذكر المهتدين بأنوار عقولهم ومايستتبعونه من زيادة الهدى والتوفيق فقال : والذين اهتدوا بما سمعوه من النبي ﷺ زادهم هدى أي الله او القرآن او النبي بأحاديثه الشريفة والكل واحد .

(١) سورة محمد الآية ٢٦ وما بعدها .

وقيل : إن معناه زادهم استهزاء المنافقين إيماناً وعلماً وبصيرة وتصديقاً لنبيهم «وآتاهم تقواهم» أي وفقهم للتقوى اوأعطاهم ثواب تقواهم « فهل ينظرون إلا الساعة» أي فهل ينتظرون إلا القيامة لينعموا بما يستحقونه في مكافحة نفوسهم في سبيل طاعة خالقهم وفي تحملهم سخرية أعدائهم وصبرهم على ذلك « أن تأتيهم بغتة » أي فجأة هكذا يكون انتظار المؤمن للموت وليوم الجزاء باللحظات فاذاً كيف يميل إلى الدنيا وهو بهذا اللحاظ من مفارقتها ، إنما يميل اليها من طال أمله فيها وسوف انتقاله عنها « فقد جاء إشراطها » أي علاماتها .

قال ابن عباس : والنبي ﷺ من إشراطها يشير إلى قوله ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين (١) .

وقيل : إن إعلامها انشقاق القمر والدخان وخروج النبي ونزول آخر الكتب « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » أي فمن أين لهم الذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة ومثله قوله تعالى : « يوم يتذكر الانسان وأنى له الذكرى » ومعناه وكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الساعة لعدم نفع الطاعات حينئذ لزوال التكليف كما ورد اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ، ثم قال سبحانه لنبيه والمراد جميع المكلفين : « فاعلم انه لا إله إلا الله » وسبكها مع ما قبلها على معنى أقم على هذا العلم واثبت عليه واعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن ، وإلا فالنبي ﷺ عالم بذلك قبل نزول هذه الآية فيكون طلباً للحاصل .

ويؤيده ما روي عنه ﷺ انه قال : من مات وهو يعلم انه لا إله إلا الله دخل الجنة .

وفي بعضها من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

وقيل : إن نظمها على قوله : إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا إله إلا الله ،

(١) مشيراً باصبعيه (س) .

أي يبطل الملك عند ذلك فلا ملك ولا حكم لأحد إلا الله .

وقيل : إن هذا إخبار بموته ﷺ والمراد فاعلم أن الحي الذي لا يموت هو الله وحده .

وقيل : إنه ﷺ كان ضيق الصدر من أذى قومه فقيل له : اعلم انه لا كاشف لذلك إلا الله (واستغفر لذنبك) الخطاب له والمراد به الأمة وإنما خوطب به لتستن به أمته .

وقيل : المراد به الانقطاع إلى الله لأن الاستغفار بنفسه عبادة يستحق به الثواب ، وقد صح الحديث بالاسناد إلى حذيفة بن اليمان قال : كنت رجلا ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله إني لأخشى أن يدخلني لساني في النار فقال رسول الله ﷺ : فأين انت من الاستغفار اني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة . فالاستغفار والتوبة ولو على سبيل الانقطاع اليه تعالى مرغب فيه فضلا عما إذا كان من الذنوب المتراكمة والمتتابعة ثم قال تعالى : « وللمؤمنين والمؤمنات » اكرمهم بهـذا إذ امر نبيه بالاستغفار لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم ثم ختم الآية سبحانه بقوله : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » اي متصرفكم في اعمالكم في الدنيا ومصيركم في الآخرة إلى الجنة او النار لأن الدنيا دار تقلب والآخرة دار مثوى واستقرار .

وقيل : إن معناه يعلم متقلبكم في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ومثواكم أي مقامكم في الأرض .

وقيل : متقلبكم من ظهر إلى بطن ومثواكم في القبور .

وقيل : يعلم متصرفكم في النهار ومثواكم ومضجعكم في الليل ، وخلاصة ذلك كله انه تعالى عالم بجميع احوالكم فلا يخفى عليه شيء منها كما قال : يعلم السر وأخفى .

ارشاد الى التوبة من طريق آخر وبآية كونية

قال تعالى : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون »(١) امر سبحانه بالنظر على سبيل الاستفهام الانكاري وهو ابلغ من الطلب الصريح والمراد منه التفكر والتأمل وإلا فالنظر بالبصر حاصل لكنه لا يثمر إذا لم يكن مستمداً من القلب والعقل ، فاذا نظر الانسان نظر تفكر في ملكوت السموات والأرض وعجيب صنعهما وعظيم اتقانهما نظر المستدل والمعتبر فيعترف بأن لهما خالقاً مالكا ومدبراً فيستدلوا بذلك عليه ، وعلى وجوده وتكون بعثة الرسول لطفاً آخر لأجل التنبيه وإلا فنفس التفكر في المخلوقات كاف للعقيدة بوجود خالقها « وما خلق من شيء » اي وينظروا فيما خلق الله تعالى من اصناف خلقه فيعلموا انه خالق جميع الأجسام فان في كل شيء قد خلقه واوجده دلالة واضحة على إثباته وتوحيده .

وهذه الآية كما يمكن عدها من علوم القرآن الكونية يمكن ايضاً عدها من الالهيات ودلائل العقيدة ، حيث ان اصول العقائد لا يكفي فيها التقليد بل لابد من معرفتها علماً ويقيناً واجتهاداً ، فقد امر عزوجل في عدة مواضع بالتفكر والتأمل والنظر ، وقد اعطى المجال لكل ذي لب في ذلك وحذر عن التراخي والتسويف وأنذر بمفاجأة الأجل وهجوم الموت في قوله : « وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم » اي وليتفكروا ايضاً في ان موتهم واجلهم قد يكون قريباً منهم فيكون هذا التفكر داعياً لهم إلى اخذ الحيطة لدينهم ولأنفسهم محافظة عليها

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٥ .

مما يصيرون اليه بعد الموت من احوال الآخرة وليزهدوا في الدنيا وفيما يطلبونه من فخرها وعزها حيث انه يكون متروكا لغيرهم وليستأنوا العمل بعد التوبة وليستعدوا للقاء خالق الخلائق ومكون الأكوان ، ثم قال تعالى : « فبأي حديث بعده » اي القرآن « يؤمنون » ويصدقون مع وضوح الدلالة وقطعية الصدور منه تعالى وانه ليس كلاماً لمخلوق كي يحتمل فيه الخلف ، حيث قد تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله وهم البلغاء والفصحاء ولو كان ميسوراً لهم لما عدلوا في صد دعوة الرسول الأعظم إلى ما كبدهم عظيم التضحيات بالأموال والنفوس في حروبهم معه ﷺ فالقرآن بصدقه وتصريحه والموت بقهره ومفاجأته من اقوى الدواعي لذوي الأفكار للاعتبار والاهتمام بتعبيد طريق وصولهم إلى الملك الجبار . وعلى الأقل بالتوبة والاستغفار قبل ان تنكشف الأستار كما ورد في الحديث القدسي يابن آدم الموت يكشف اسرارك والقيامة تتلو اخبارك والكتاب يهتك استارك .
وقال تعالى منذراً ايضاً من تراكم الذنوب : « او لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد اهلها ان لو نشأ اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون » (١) اي الم يتبين لهم بما تلوناه عليهم من انباء المهلكين من قبلهم بنفس الذنوب التي قد ارتكبتموها انتم ايضاً وقد اورثنا كم ارضهم لتكون عبرة لكم وهذا من اعظم المذكرات لهم حيث لم يملكوا ولم يرثوا تلك الأرض إلا باهلاك اهلها فهي كما قال علماء المنطق عند المبالغة في وضوح المطلب (قضايا قياساتها معها) .

والآية وان كان نزولها في الأمم لكن يمكن ان يستفاد منها التقريع لما هو اعم بحيث يشمل حتى الفرد الذي قد خلف اباه وورثه واستولى على ملكه وتسيطر في مكانه فانه انما حصل على جميع ذلك بموت من قبله فليعي هو ايضاً فلعل الموت منه قريب فيرثه غيره وهو بدون استعداد ليوم المعاد وقوله تعالى :

(١) سورة الأعراف الآية ١٠٠ .

« ونطبع على قلوبهم » يمكن ان يكون المراد منه قطع الطافه الخفية عنهم وتركهم وانفسهم فينطبع على قلوبهم ويختم عليها ، حيث تقسو وتظلم بأكل المحرمات والتمادي بارتكاب السيئات « فهم لايسمعون » اي بآذان القلوب حيث ان السماع بجارحة الأذن إذا لم يكن آخذاً من القلب وواعياً لما سمع لايستفيد من مسموعه شيئاً ونظيره قوله تعالى : لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فالحواس كلها إذا لم تستمد باحساساتها من القلب ومن العقل والتفكر لم تكن مجدية ومثمرة ، بل كما يقال « يدخل من أذن ويخرج من أخرى » .

خلاصة الآية

هو الارشاد إلى التوبة والاستعداد للأوبة والنهي عن التمادي في الغرور والجهل والضلالة قبل ان يتحكم الظلام على القلب بكثرة المعاصي فينطبع ولايجدي فيه حينئذ وعظ وإرشاد كما إذا تحكم المرض في الجسم وأنهكه فلا ينفع فيه دواء فما هو العذر لمن لاقى أجله وهو غير تائب بعد سماع قوله تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » (١) .

كشف عن حقيقة

واما الآية السابقة الذكر وهي قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » (٢) فانها وان أعطت بظاهرها الرجاء لرحمة الله تعالى والنهي عن القنوط

(١) سورة الشورى الآية ٢٥ (٢) سورة الزمر الآية ٥٤ .

ولكن بتهيئة الأسباب وتقديم التوبة كما اوضحناه وزيادة على ذلك نذكر محصل ما قالوه ارباب العرفان في تحقيق معنى الرجاء والخوف من ان الدنيا مزرعة الآخرة فالقلب كالأرض والبذر هو الايمان والمعارف الالهية وتأثر القلب بالمواعظ والنصائح .

واما الاتيان بالطاعات فهو جار مجرى تقليب الأرض وحرثها وإصلاح مجاري مياهها وأشباهه وإعدادها للزراعة والقلب المستغرق بحب الدنيا كالأرض الصلبة او السبخة التي لا تقبل الزرع ولاينمو فيها البذر فحب الدنيا يصلب القلب وان يوم القيامة هو يوم الحصاد ولاحصاد إلا لمن زرع ولا زرع إلا لمن بذر وكما لا ينفع الزرع في الصلبة والسبخة كذلك لا ينفع الايمان مع حب الدنيا وقساوة القلب وسوء الأخلاق . فينبغي ان يقاس رجاء العبد لمغفرة الله ورضوانه برجاء صاحب الزرع ، فكما ان من طلب ارضاً طيبة وأصلحها جيداً وبذر بذراً صالحاً غير متعفن وأمدها بالماء العذب وطهر الزرع عما يمنع نموه كالشوك والحشيش وصار منتظراً لحصاده وراجياً لوفور نعمته يكون رجاؤه في محله ومظنة الفوز بمقصده .

ومن بذر في ارض كذلك ولكنه في اخريات الناس واطراف الوقت او انه قصر في بعض الأسباب ولم يتقن كما اتقن سابقه فرجاؤه للحصاد ايضاً في محله وان نقص قوة عن رجاء سابقه .

واما من لم يبذر اصلا او بذر في ارض صلبة دون تقليب وإصلاح او سبخة ممزوجة بالأملاح او لم يتعاهدها بالسقي والتغذية فرجاؤه لحصاد زرعه يعد من الحمق والجنون . فكذلك حال العبد ان بذر المعارف الالهية في قلبه في اول وقته ومبدأ تكليفه وشبابه واستمر على سقيه بماء المواعظ والعبر والطاعات واجتهد في تطهير نفسه وقلبه عن شوك الأخلاق الرذيلة المانعة من نماء العلم وزيادة

الايمان وانتظر الحصاد في يوم القيامة فذلك هو الرجاء الصحيح المحمود . وإن ألقى بذر الايمان في نفسه وقلبه وقصر في بعض الأسباب كتأخير البذر عن أول زمان التكليف او تسامح في سقيه في بعض الأوقات فانتظاره للحصاد ورجاؤه المغفرة والعفو من الله تعالى مظنون وصحيح وإن ضعف عن سابقه .

اما من لم يزرع من قواعد الايمان في قلبه او زرع ولم يسقه بماء الطاعة والعمل الخارجي والتطبيق او لم يطهر نفسه من رذائل الأخلاق وقبائح الصفات واشتغل بالسيئات وانهمك بالشهوات ، فانتظاره ورجاؤه يعد من الحمق والغرور ومن آمال الشيطان والتسويف قال سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا .

وقال رسول الله ﷺ : الأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة

وقال الشاعر :

إذا أنت لم تزرع وعانيت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر

فأعظم الحمق والغرور هو التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوبة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بأعمال العاصين .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

انارة من صاحب الامارة

فقد روى الصدوق في الفقيه قال : خطب أمير المؤمنين عليه السلام في عيد الأضحى ومنها : بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أوصيكم عباد الله بتقوى الله وكثرة ذكر الموت والزهد في الدنيا التي لم يتمتع بها من كان قبلكم ولن تبق لأحد من بعدكم وسبيلكم فيها سبيل الماضين ، ألا ترون انها قد تصرمت وآذنت بانقضاء وتنكر

معروفها وأدبرت حـذاء (١) فهي تخبر وساكنها يحدى بالموت فقد أمر منها ما كان حلواً وكدر منها ما كان صفواً فلم يبق منها إلا سملة (٢) كسملة الأداوة وجرعة كجرعـة الأناء ولو يتمززها الصديان لم تنقع فازمعوا عباد الله بالرحيل من هذه الدار المقدور على أهلها الزوال الممنوع أهلها من الحياة المذللة أنفسهم بالموت فلا حي يطمع بالبقاء ولا نفس إلامذعنة بالمنون فلا يغلبنكم الأمل ولايطل عليكم الأمد ولا تغتروا فيها بالآمال وتعبدوا الله أيام الحياة ، ثم قال ﷺ : وإن هذا يوم حرمته عظيمة وبركته مأمولة والمغفرة فيه مرجوة فاكثروا ذكر الله واستغفروه وتوبوا اليه انه هو التواب الرحيم .

والمراد من قوله ﷺ : تصرمت وآذنت بانقضاء أن ينظر كل فرد إلى نفسه بخصوصه كيف انتقل فيها من حالة الجنين إلى حالة الرضيع ثم منها إلى حالة الطفولة ثم منها إلى حالة الشباب ثم منها إلى حالة الـكهولة ثم منها إلى حالة الشيب ثم منها إلى حالة الشيخوخة وكذلك النظر إلى تبدل سائر الأحوال من صحة إلى مرض ومن غنى إلى فقر إلى غير ذلك وليس المقصود انها تصرمت بمجموعها كي يقال قد صدر منه هذا القول قبل أزيد من الف سنة وهي باقية على حالها فأين انقضاؤها ، بل ان العبرة بها فردياً وانقضاؤها عنا شخصياً .

ختام العقد الرابع وفصوله

بما أوضحه الأئمة الأطهار وعلماء الأسرار وأهل بيت النبي المختار من بعض كلماتهم في بيان ما أودعه الله سبحانه من الحكم الدقيقة في هيكل الانسان كما قال الشاعر في وصفه الاجمالي :

(١) أي سريعة . (٢) الفضلة القليلة .

أتحسب انك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فقد روى في البحار عن العلل والخصال عن محمد بن ابراهيم الطالقاني عن الحسن بن علي العدوي عن عباد بن صهيب بن عباد بن صهيب عن ابيه عن جده عن الربيع صاحب المنصور قال : حضر أبو عبدالله عليه السلام مجلس المنصور يوماً وعنده رجل من الهند يقرأ كتب الطب فجعل ابو عبدالله عليه السلام ينصت لقراءته فلما فرغ الهندي قال : يا ابا عبدالله أتريد مما معي شيئاً ؟ قال عليه السلام : لا فان معي ما هو خير مما معك ، قال : وما هو ؟ قال عليه السلام : أداوي الحار بالبارد والبارد بالحار والرطب باليابس واليابس بالرطب ، وأورد الأمر كله إلى الله عز وجل واستعمل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله : واعلم ان المعدة بيت الداء والحمية هي الدواء وأعود البدن ما اعتاد ، فقال الهندي : وهل الطب إلا هذا ؟ فقال الصادق عليه السلام : أفتراني من كتب الطب أخذت ؟ قال : نعم ، قال عليه السلام : لا والله ما أخذت إلا عن الله سبحانه فاخبرني أنا أعلم بالطب أم أنت ؟ قال الهندي : لا بل أنا ، قال الصادق عليه السلام : فأسألك شيئاً ، قال : سل ، قال عليه السلام : اخبرني يا هندي لم كان في الرأس شئون (١) ؟ قال : لا اعلم ، قال عليه السلام : فلم جعل الشعر عليه من فوق ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم خلت الجبهة من الشعر ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم كان لها تخاطيط وأسارير (٢) ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم كان الحاجبان من فوق العينين ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم جعل العينان كاللوزتين ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم جعل الأنف بينهما ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم كان ثقب الأنف في أسفله ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم جعلت الشفة والشارب من فوق الفم ؟ قال : لا أعلم ، قال عليه السلام : فلم أحدّ السن وعرّض الضرس والناب ؟

(١) هي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تخرج الدموع . صحاح

(٢) الأسارير هي الخطوط في الجبهة . صحاح

قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم جعل اللحية للرجال ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم خلت الكفان من الشعر ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم خلا الظفر والشعر من الحياة ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم كان القلب كحب الصنوبر ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم كانت الرئة قطعتين وجعل حركتها في موضعها ؟ قال : لا أعلم قال ﷺ : فلم كانت الكبد حدباء ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم كانت الكلية كحب اللوبياء ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم جعل طي الركبة إلى خلف ؟ قال : لا أعلم ، قال ﷺ : فلم انخضرت القدم (١) ؟ قال : لا أعلم ، فقال الصادق ﷺ : لكني أعلم ، قال : فأجب .

الاجوبة من الامام عليه السلام

فقال الصادق (ع) : كان في الرأس شئون ، لأن المجوف إذا كان بلا فصل أسرع اليه الصدع . فاذا جعل ذا فصول كان الصدع منه أبعد ، وجعل الشعر من فوقه ليوصل بأصوله الادهان إلى الدماغ ويخرج بأطرافه منه البخار وبرد الحر والبرد الواردين عليه .

وخلت الجبهة من الشعر لأنها مصب النور إلى العينين وجعل فيها التخطيط والأسارير ليحبس العرق الوارد من الرأس إلى العين قدر ما يميطه الانسان من نفسه كالأنهار في الأرض التي تحبس المياه .

وجعل الحاجبان من فوق العينين ليوردا من النور عليها قدر الكفاية ألا ترى ياهندي ان من غلبه النور جعل يده فوق عينيه ليرد عنهما مازاد عن كفايتهما وجعل الأنف فيما بينهما ليقسم النور قسمين إلى كل عين سواء .

(١) هو أن تمس القدم الأرض من مقدمها والعقب دون الراحة .

وكانت العين كاللوزة ليجري فيها الميل بالدواء وليخرج منها الداء ولو كانت مربعة او مدورة ما جرى فيها الميل وما وصل اليها دواء ولاخرج منها داء

وجعل ثقب الأنف في أسفله لينزل منه الأدواء المنحدرة من الدماغ ويصعد فيها الأراييح إلى المشام ولو كان في أعلاه لما نزل داء ولا وجد رائحة .

وجعل الشارب والشفة فوق الفم لحبس ما ينزل من الدماغ عن الفم لئلا يتنغص على الانسان طعامه وشرابه فيميطه عن نفسه .

وجعلت اللحية للرجل ليستغني بها عن الكشف (١) في المنظر ويعلم بها الذكر والأنثى .

وجعل السن حاداً لأن به يقع العض ، وجعل الضرس عريضاً لأن به يقع الطحن والمضغ ، وكان الناب طويلا ليشد الأضراس والأسنان كالاسطوانة في البناء ، وخلا الكفان من الشعر لأن بهما يقع اللمس ، فلو كان بهما شعر ما درى الانسان ما يلمسه .

وخلا الشعر والظفر من الحياة لأن طولهما سمج يقبح وقصهما حسن فلو كان فيهما حياة لألم الانسان قصهما .

وكان القلب كحب الصنوبر ، لأنه منكس فجعل رأسه رقيقاً ليدخل في الرئة فيتروح عنه ببردها لئلا يشيط الدماغ بحره .

وجعلت الرئة قطعتين ليدخل القلب بينهما فتروح عليه بحركتها .

وكانت الكبد حدباء لتثقل المعدة وتقع جميعها عليها فتعصرها فيخرج ما فيها من البخار .

وجعلت الكلية كحب اللوبياء لأن عليها مصب المني نقطة بعد نقطة فلو كانت مربعة او مدورة لاحتبست النقطة الأولى الثانية فلا يلتذ بخروجها الحي إذ المني

(١) أي كشف العورة .

ينزل من فقار الظهر إلى الكلية فهي كالدودة تنقبض وتنبسط ترميه أولا فأولا إلى المثانة كالبندقة من القوس .

وجعل طي الركبة إلى خلف ، لأن الانسان يمشي إلى ما بين يديه (١) فتعدل الحركات ، ولولا ذلك لسقط في المشي .

وجعلت القدم متحصرة لأن المشي إذا وقع على الأرض جميعه ثقل ثقل حجر الرحى (٢) . فاذا وقع القدم على حافته وقع الصبي ، وإذا وقع على وجهه صعب نقله على الرجل .

فقال الهندي : من أين لك هذا العلم ؟ فقال (ع) : أخذته عن آبائي عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عن رب العالمين جل جلاله الذي خلق الأجساد والأرواح ، فقال الهندي : صدقت وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وانك أعلم أهل زمانك .

ايضاح لقوله تعالى :

« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »

فقد أودع عز وجل في هذا البدن الشهوة إلى الطعام وإذا اشتهيته فلابد من حركتك اليه وحركتك لا تجدي ما لم تتمكن من أخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله عليك باليدين وهما طويلتان مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني اليك فلا تكون كخشبة منصوبة ، ثم جعل رأس اليد

(١) أي يميل في مشيه إلى قدامه .

(٢) لامتناع الخلاء فاذا لم يكن بين الصفحين هواء يعسر رفع أحدهما عن الآخر فحصر القدم يوجب وجود هواء تحت القدم فلا يعسر رفعه عن الأرض

عريضاً بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة اقسام ، هي الأصابع وجعلها في صفين ليكون الابهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت جميعها في صف واحد لم يحصل بها تمام الغرض فوضعها ان بسطتها كانت لك مجرفة وان ضممتها كانت مغرفة وان جمعتها كانت آلة للضرب وان نشرتها ثم قبضتها كانت آلة لك في القبض ، ثم خلق لها أظفاراً لتصون رؤوس الأصابع من التفتت ولتلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها رؤوس أظفارك فاذا اخذت بها الطعام فلا ينفعك الأخذ إلا إذا امكنك إيصاله إلى المعدة وهي في الباطن فلابد وان يكون في الظاهر دهليز اليها حتى يدخل الطعام منه .

فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم والمنافع الكثيرة وراء كونه منفذاً فهو أحد فوائده ثم إذا وضعت الطعام في الفم وهو قطعة فلايتيسر لك ابتلاعه حتى يطحن فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى بالسواء لتطحن بهما الطعام طحناً ، ثم ان الطعام تارة يحتاج إلى الكسر كاليابس منه وتارة يحتاج إلى القطع كاللين منه ، ثم إلى الطحن بعد ذلك فقسم الأسنان إلى عريضة وهي الطواحن كالأضراس وإلى حادة وهي القواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب احد الفكين على الآخر مثل تصفيق اليدين ولايتحصل به الطحن فجعل الأسفل متحركا حركة دورية واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك مثل الرحى التي يصنعها المخلوق فان الحجر الأسفل منها يسكن والأعلى يتحرك ، ثم إنك إذا وضعت الطعام في فضاء الفم فهو يحتاج إلى التصريف والتقليب والحركة من جانب إلى جانب ، ولايمكن ان تكون حركته باليد وهو في داخل الفم فأنعم الله سبحانه بخلق اللسان فانه بالاضافة إلى ما فيه من قوة الذوق ومن البيان

يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى ؛ ثم لما كان الطعام ربما يكون يابساً فلا يمكن ابتلاعه إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة خلق الله سبحانه تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام ، ولما لم يمكن إيصاله إلى المعدة بدفعه باليد ولم تكن المعدة ممتدة حتى تجذبه من الفم إلى نفسها هيأ الله سبحانه المري والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى ينقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المري فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلايصلح ان يصير لحماً وعظما ودماً على هذه الهيئة بل لابد وان يطبخ طبخاً تاماً حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام وتحتوي عليه وتغلق الأبواب فلا يزال يلبث فيها إلى ان يتم الهضم وينضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن جانبها الأيسر الطحال ومن قدامها الترائب ومن خلفها لحم الصلب فتتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الأعضاء التي بها يطبخ الطعام وبمساعدة حركتها ايضاً فيصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب فيها فينتهي إلى الكبد ، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا ان حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط

السوداوي والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولولم تفصل عنه هاتان الفضلتان لفسد مزاج الأعضاء فخلق الله المرارة والطحال وجعل لكل منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلا في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رطوبة ورقة فخلق الله الحكيم الكليتين وأخرج منهما عنقاً طويلا إلى الكبد .

ومن عجائب حكمة الله تعالى ان عنقها ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد . إذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث نقياً من كل ما يفسد الغذاء .

ثم إن الحكيم عز وجل أخرج من الكبد عروقاً ثم قسمها بعد الخروج أقساماً وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من فوق الرأس إلى طرف القدم ظاهراً وباطناً فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى أجزاء البدن تماماً بدورته السريعة .

ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحدثت منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة .

وان حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام وأمثال ذلك . وان لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره .

ثم انظر بديع حكمته سبحانه كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة اما المرارة فانها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة زلقه ويحصل في الأمعاء لذع يحركها للدفع

فتنضغط حتى يندفع الثقل وينزلق ، وان صفرة الخروج من إفرازات المرارة .

واما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثقل .

واما الكلية فانها تتغذى مما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة « وهذه قطرة من بيان نعم الله تعالى على الانسان في كيفية تهيئة غذائه ويطول الكلام ويخرج عن موضوع الباب فيما لو أردنا ان نفصل ما اودعه الله الحكيم في هذا البدن الصغير من عدة معامل كلها متحركة ليل نهار ومنتجة آنياً المطلوب منها سواء كانت معامل الرأس والدماغ بما فيه من السمع والشامة والبصر والحفظ والتفكير والوهم والخيال إلى غير ذلك ، او معامل الصدر او معامل المعدة والأمعاء كما ذكرنا بعضها او معامل العصب والشرايين وحتى البشرة مع ما انبت عليها من الشعر والظفر ، وان التفكير في ذلك مما يعطي المتأمل دروساً واسعة عن عظمة الخالق وإتقان صنعه المبتكر بواسع علمه فتحق العبادة له دون غيره ويكون الاتكال عليه دون احد من عباده فقد أنعم علينا بأصول النعم وفروعها وهيأ لنا جميع معدات تربيتنا ونشوئنا في مختلف احوالنا ومراحلنا سواء كنا في حالة الحمل اوالولادة او في حالة الرضاع والطفولة او في حالة الشباب اوالكهولة او في منتهى المراحل وهي الهرم والشيخوخة فسبحان المحيي والمميت (واليه ترجعون) .

العقد الخامس

الانسان بقسميه عالم وجاهل

وفيه فصلان : الفصل الأول في فضيلة العلم ورفيع درجات ذويه

وقد امتاز الدين الاسلامي عن بقية الأديان السماوية بتشييد العلم واحكام صروحه وحث المسلمين على طلبه ولو كان بالصين وجعل طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة إلى غير ذلك من الترغيبات ، لأنه الأساس الذي تبتني عليه حياة المجتمع ورقيه إضافة إلى انه الموصل إلى معرفة الخالق والمنهي إلى رضائه وجواره وهو المؤدي إلى ما أعده سبحانه للمطيعين من عباده من نعيم جنته وهو الوسيلة إلى دار المقامة التي لا تزول ومحل الكرامة التي لا تحول وقد أطبق العقل والنقل وإجماع أرباب الأديان على ان السعادة السرمدية والقرب من المولى جل شأنه لا يتهيئان بدونه ، وأي شيء هو أفضل مما هو وسيلة اليهما ، بالاضافة إلى انه يفيد تجرد النفس وكلما ازداد الطالب من العلم ازدادت نفسه تجرداً ولا شك ان التجرد اشرف الكمالات المتصورة للانسان إذ به يمكنه التشبه بالعلويات والانخراط في صفوف الروحانيات لأنه بمعرفته لله تعالى فقد وصل إلى السبب الكلي والعلة الأولى لايجاد العالمين العلوي والسفلي ، وإلى ذلك يشير الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق » .

مقارنة بين العالم والسلطان

السلطان يملك الماديات والعالم يملك الروحيات

فكما يجد السلطان لذة الملك والتملك والانقياد والتصرف في الأعيان فكذلك العالم واجد للذة التصرف حيث انه مدرك للأشياء ومحيط بأسرارها قادر على حل مشاكلها وكشف غوامضها فهو متصرف فيها وهي منقادة لارادته جمعاً إن شاء وتفريقاً إن أراد لثبوت جميع حقائقها وصورها في قعر إدراكه ثم نقول إن ملكية العالم للأمور الجوهرية أقوى من ملكية السلطان للأمور العينية حيث ان هذه تزول وتلك تبقى ولا تزول ولعل إطلاق الملكية على الأعيان مجازي وليس بالحقيقي لامكان زوالها في الدنيا بغلبة الآخر من أبنائها عليها فضلا عن الآخرة المتيقن فيها انسلاخه عنها .

واما ملكية العلم فهي باقية لصاحبها وآخذة في ازدياد ، لأن العلم يزكو على الانفاق والأعيان تضعف وتنقص به .

واما إذا أضفنا إلى ذلك ما تستتبعه ملكية السلطان من عظيم التبعات وما تثمره ملكية العلم من جليل الخيرات ، فالفرق أوضح والخسران أفدح .

عظمة العالم عند منابع العلم

قال (ع) : إذا مات العالم (او الفقيه) بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض التي كان يعبد الله عليها وأبواب السماء التي كانت يصعد فيها بأعماله ، وثلم في الاسلام ثلمة لا يسدها شيء .

وعن الباقر (ع) انه قال : والله لموت العالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً .

وقال (ع) : عالم ينتفع بعلمه أفضل من الف عابد .

وفي رواية أخرى عنه (ع) عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين الف عابد .

الفلسفة في ذلك

إن المؤمنين الفقهاء هم حصون الاسلام كحصن سور المدينة للمدينة وهذا مما لا يشك فيه ، لأن العلماء هم الصورة الحية في المجتمع والعرق النابض في جسمه لأنهم منبع الخير ومصدر التوجيه .

ومن المقطوع به ان فقدهم خسارة على المجتمع ونكبة على الانسانية والسبب في أن ينثلم ثلمة في الاسلام بموت الفقيه ، لأنه مجموعة من الاعتقادات والقوانين الكلية المعلومة له بالبراهين العقلية والأدلة الشرعية التي قد أفنى معظم حياته في الحصول عليها وغالب المسلمين يعتقدون ذلك من طريق التقليد .

ومن المعلوم ان الاعتقاد التقليدي قابل للزوال بأدنى عارض وشبهة ، وقد وقف العلماء الذين هم الذوات الكاملة في المجتمع سداً منيعاً عن الاسلام يذبون عن حماه ويرفعون كيانه سابقاً ولاحقاً ، وينشرون تعاليمه ويدفعون عنه الشبه ويبطلون أوهام المضلين ويرفعون شكوك المشككين ولولاهم لمابقيت قواعد الدين محفوظة ومصونة فاذا مات أحدهم لا يفقد شخصه فقط كسائر الناس ، بل بفقده تفقد تلك المجموعة التي أحرزها وكان يدافع بها عن الدين وأهله ، فحق إذاً أن يرد في الخبر إذا مات الفقيه ثلم في الاسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف مثله دون مبالغة في ذلك كما قد يتراءى في بادىء النظر .

العلم الالهي وعلم الاخلاق والفقه

أشرف العلوم

إن العلم بمجموعه حميد ، لأن به كمال النفس ، غير ان مراتبه تختلف ودرجاته تتفاوت بتفاوت الثمرات المترتبة عليه ، فمنها ما يثمر للدنيا فقط ، ومنها ما يثمر للدنيا والآخرة ، ومعلوم ان الاخير أجل وأعظم وأشرفه وأفضله هو العلم الالهي ونعني به ما هو معرف لأصول الدين المعبر عنها بالعقايد .

وعلم الاخلاق وهو المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها .

وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات طبق إرادة الله تعالى .

وقد ورد الحث الشديد على التفقه في الدين بما لا مزيد عليه ترهيباً تارة وترغيباً اخرى فمن الترهيب قول الصادق (ع) : عليكم بالتفقه في دين الله ولا تكونوا أعراباً فانه من لم يتفقه في دين الله لم ينظراليه يوم القيامة ولم يزك له عملا

وقال عليه السلام : ليت السياط على رؤوس اصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام .

وقال عليه السلام : إن آية الكذاب أن يخبرك خبر السماء والارض والمشرق والمغرب ، فاذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء .

ومن الترغيب قال الكاظم عليه السلام في مدح الفقه : فانه مفتاح البصيرة وتمام العبادة والسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا ، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكوكب ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملا

وقال عليه السلام ايضاً فيما ينبغي أن يعلموه ويطلبوه : وجدت العلم في

اربع : الأولى ان تعرف ربك . الثانية ان تعرف ما صنع بك . الثالثة ان تعرف ما اراد بك . الرابعة ان تعرف ما يخرجك عن دينك .

وكما قال عليه السلام : فان معرفة الخالق واجبة على كل مكلف وجوباً علمياً لا تقليدياً كي يستقيم في حركاته وسكناته وفي جميع حالاته ، حيث علم انه ملحوظ بها ومراقب عليها ومجازى بخيرها وشرها من قبل خالقه الذي تحققه وعرفه ، وكذلك يجب معرفة ماصنع الله بك من النعم المستوجب لشكره وعبادته وان تعرف ما اراده منك على حدوده وشروطه لتفعله على ما اراد فتستحق بذلك الأجر والثواب وان تعرف الشيء الذي يخرجك عن طاعته فتجتنبه فتسلم من عقابه .

باب مدينة العلم يحدد العلم

سئل امير المؤمنين عليه السلام عن العلم فقال : اربع كلمات ان تعبد الله بقدر حاجتك اليه ، وان تعصيه بقدر صبرك على النار ، وان تعمل لدنياك بقدر عمرك فيها ، وان تعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها .

ولا يخفى على النبيه ما في كلماتهم (ع) من التقارب معنوياً وان اختلفت لفظياً ، حيث ان الكل منهم يرمي إلى معرفة الخالق وعظيم قدرته واحكام صنعه وعدم الغرور بدار الفناء وبذل الوسع للتزود لدار البقاء .

فقد روى ابو سعيد الخدري عن النبي ﷺ انه قال : لشبر من الجنة خير من الدنيا وما فيها .

اما فضل العلم من القرآن

فقد قال تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر اولو الألباب» (١) ، وقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »(٢) وقال تعالى : « ومن يؤتى الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً » (٣) ، وقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها وما يعقلها إلا العالمون » (٤) ، وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير يا ايها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم أءشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فاذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون » (٥) .

سبب النزول

قال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ فاذا رأوا من جاءهم مقبلا ظنوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله ان يفسح بعضهم لبعض ، وقال المقاتلان : كان رسول الله ﷺ في الصفة وفي المكان ضيق وذلك

(١) سورة الزمر الآية ١٢ .
(٢) سورة فاطر الآية ٢٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٢ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٣ .
(٥) سورة المجادلة الآية ١١ .

يوم الجمعة ، وكان يكرم اهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء اناس من اهل بدر وفيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سبقوا في المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ فقالوا : السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على ارجلهم ينتظرون ان يوسع لهم فلم يفسحوا لهم فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير اهل بدر : قم يا فلان قم يا فلان بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من اهل بدر فشق ذلك على من اقيم من مجلسه وعرفت الكراهية في وجوههم .

وقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون ان صاحبكم يعدل بين الناس فوالله ما عدل على هؤلاء فانهم قوم قد اخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من ابطأ عنهم مقامهم .

هذا حال المنافقين في اغتنام الفرص لادخال الفتن والفرقة في صفوف المسلمين في زمان سيد المرسلين ، وفي كل حين وحيث ان الله عز وجل يريد جمع الكلمة وبذل الأخلاق وإعطاء كل ذي حق حقه ، فقد انزل قوله : « وإذا قيل لكم تفسحوا ... الخ » لدفع الشبهة عن نبيه ، وانه لايتحيز لقوم دون قوم بل اراد ان تكونوا على اخلاق حسنة ، ومن هنا قيل : إن لكل قادم كرامة .

واما قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا إذا ناجيتم ... الخ » فانها نزلت في الأغنياء ، لأنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته ويضيعون عليه اوقاته ولا يدعون مجالا لغيرهم ، فأمر الله بالصدقة عند ارادة المناجاة ، فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فنزلت آية الرخصة .

وقال امير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها احد قبلي ولا يعمل بها احد بعدي وهي « يا ايها الذين آمنوا إذا ناجيتم

الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » كان لي دينـار فبعته بعشرة دراهم فكلما اردت اناجي رسول الله ﷺ قدمت درهماً فنسختها الآية الأخرى وهي « أأشفقتم ... الخ » .

فقال (ع) : بي خفف الله عن هذه الأمة (١) ، ولم ينزل في احد قبلي ولم ينزل في احد بعدي .

وقال ابن عمر : كان لعلي (ع) ثلاث لو كانت لي واحدة منهن لكانت احب إلي من حمر النعم تزويجه فاطمة (ع) وإعطائه الراية يوم خيبر وآية النجوى

وقال مجاهد وقتادة : لما نهوا عن مناجاته ﷺ حتى يتصدقوا لم يناجه إلا علي بن ابي طالب (ع) قدم ديناراً فتصدق به ، ثم نزلت الرخصة .

ومعنى قوله تعالى : « يفسح الله لكم » اي توسعوا لاخوانكم في مجالسكم يوسع الله لكم مجالسكم في الجنة « وإذا قيل انشزوا » اي ارتفعوا وقوموا ووسعوا على اخوانكم « فانشزوا » اي افعلوا ذلك وامتثلوا .

وقد ذكرنا صدر الآية لما فيها من التعاليم الأخلاقية وفضيلة امير المؤمنين عليه السلام بآية النجوى ، ثم يبتدئ سبحانه في بيان فضل اهل العلم بقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » .

قال ابن عباس : معناه يرفع الله الذين اوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات .

وقيل : معناه لكي يرفع الله الذين آمنوا منكم بطاعتهم لرسول الله ﷺ درجة والذين اوتوا العلم بفضل علمهم وسابقتهم درجات في الجنة .

وقيل : درجات في مجلس رسول الله ﷺ فالله تعالى قد امر بتقريب

---

(١) يقصد (ع) انه قد ثقل عليهم ذلك ولم يمتثل أحد منهم ذلك الأمر فلما امتثل هو (ع) لا غيره خفف الله عنهم بسببه ونسخ الحكم عنهم .

العلماء وترفيعهم فوق المؤمنين الذين لا يعلمون العلم ليبين فضل العلماء على غيرهم وكفى بها دليلا على جلالة قدرهم .

وقال تعالى : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين » .

ومعناه فسح صدره ووسع قلبه لقبول الاسلام والثبات عليه وعبر عن توسعة القلب بتوسعة الصدر باعتبار المحل ، لان الصدر محل القلب وشرح الصدر يكون بثلاثة اشياء :

احدها بقوة الادلة التي نصبها الله تعالى ، وهذا يختص به العلماء .

ثانيها بالالطاف التي تجدد له حالا بعد حال كما قال سبحانه : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

ثالثها بتوكيد الادلة وحل الشبه « فهو على نور من ربه » اي دلالة وهدى من ربه فقد شبه الادلة والعلم بالنور ، لان بها يعرف الحق كما بالنور تعرف امور الدنيا ، وجعل الويل للقاسية قلوبهم ، لانهم لجهلهم يقعون في الاباطيل ثم الاضاليل فلا ينفع حينئذ فيهم وعظ ولا إرشاد ، ولذا قال تعالى في حقهم : « اولئك في ضلال مبين » .

فضل العلم في الاخبار

فعن النبي ﷺ انه قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم فاطلبوا العلم في مظانه ، واقتبسوه من اهله فان تعلمه حسنة وطلبه عبادة ، والمذاكرة به تسبيح والعمل به جهاد وتعليمه من لايعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة .. والمؤنس في الوحشة ، والمحدث في الخلوة ،

والصاحب في الغربة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والزين عند الاخلاء ، والسلاح على الأعداء ، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى ، ومجالسة الملوك في الدنيا ، ومرافقة الأبرار في الآخرة ، يرفع الله به اقواماً ويجعلهم في الخير قادة تقتبس آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهي إلى آرائهم ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تظلهم وتمسحهم ، وفي صلاتها تبارك عليهم ويستغفر لهم كل رطب ويابس ، حتى حيتان البحر وسباع البر ان العلم حياة القلوب من الجهل وضياء الأبصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف الفكر فيه ساعة يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام ، وبه توصل الأرحام وتفصل الأحكام وبه يعرف الحلال من الحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم يطاع الله ويعبد ، العلم إمام والعمل تابعه . يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء .

وقد ورد في الحديث عن جابر بن عبدالله ان رسول الله ﷺ قال : فضل العالم على الشهيد درجة ، وفضل الشهيد على العابد درجة ، وفضل النبي ﷺ على العالم درجة . وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على ادناهم .

وقال ﷺ : من جاءته منيته وهو يطلب العلم فبينه وبين الأنبياء درجة.

وقال رسول الله ﷺ : ألا اخبركم بأجود الأجواد ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، فقال : الله اجود الأجواد وأنا اجود ولد بني آدم واجود من بعدي عالم علم علماً فنشره فانه يبعث يوم القيامة أمة وحده .

وقال ﷺ : العلماء امناء الرسل ، وفي رواية امناء الله على عباده .

وقال ﷺ : اللهم ارحم خلفائي ، قيل : يا رسول الله من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي .

وقال ﷺ لأبي ذر : جلوس ساعة عند مذاكرة العلم احب إلى الله تعالى

من قيام الف ليلة يصلي في كل ليلة الف ركعة وأحب اليه من الف غزوة ومن قراءة القرآن كله اثني عشر مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء وثواب الف شهيد من شهداء بدر ، واعطاه الله بكل حرف يسمع او يكتب مدينة في الجنة ، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ولا يحب العلم إلا سعيد ، وطوبى لطالب العلم والنظر في وجه العالم خير من عتق الف رقبة ومن احب العلم وجبت له الجنة ويصبح ويمسي في رضى الله ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ولا يأكل الدود جسده ويكون في الجنة رفيق خضر (ع) .

وقال رسول الله ﷺ : خير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل .

وقال ﷺ : يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل احدهما على الآخر ، وفي رواية يفضل مداد العلماء على دماء الشهداء ، ولغدوة في طلب العلم احب إلى الله من مائة غزوة ولا يخرج احد في طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة .

الفلسفة في عظيم فضل العلم

انه سئل رسول الله ﷺ عن افضل الأعمال ، فقال ﷺ : العلم بالله والفقه في دينه ، وكررها مراراً فقال السائل : يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم ، فقال ﷺ : إن العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل .

وقال ﷺ : هلاك امتي في اثنين ، ترك العلم وجمع المال .

وعن رسول الله ﷺ ان الحواريين قالوا لعيسى (ع) : يا روح الله من نجالس ؟ قال : من يذكركم الله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقه ، ويرغبكم في الآخرة عمله .

وفي الأمالي عن النبي ﷺ انه قال : مامن مؤمن يقعد ساعة عند العالم إلا ناداه ربه عز وجل جلست إلى حبيبي وعزتي وجلالي لأسكننك الجنة معه ولا ابالي

وعنه ﷺ مجالسة اهل الدين شرف الدنيا والآخرة .

وفي روضة الواعظين روي عن بعض الصحابة انه جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إذا حضرت جنازة ومجلس عالم ايهما احب اليك ان اشهد ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فان حضور مجلس العالم افضل من حضور الف جنازة ، ومن عيادة الف مريض ، ومن قيام الف ليلة ، ومن صيام الف يوم ، ومن الف درهم يتصدق بها على المساكين ، ومن الف حجة سوى الفريضة ، ومن الف غزوة سوى الواجب تغزوها في سبيل الله بمالك ونفسك ، أما علمت ان الله يطاع بالعلم ويعبد بالعلم (١) .

وفي معاني الأخبار عن رسول الله ﷺ بادروا إلى رياض الجنة فقالوا : وما رياض الجنة ؟ قال ﷺ : حلق الذكر ، والمراد المجالس التي يذكر فيها الله تعالى وفق قانون الشرع ، ويذكر فيها علوم اهل البيت وفضائلهم ، ومجالس الوعظ التي يذكر فيها الوعد والوعيد ، لا ما يذكر فيها البدع وانواع الشعبذة .

وفي عيون أخبار الرضا (ع) (٢) قال رسول الله ﷺ : من حفظ من امتي اربعين حديثاً ينتفعون بها ، بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً .

---

(١) من هنا فهم أن لامبالغة في كل ما ذكر من فضل العلم والفلسفة في ذلك ان معرفة الله وصحيح عبادته يتوقفان عليه . (٢) ص ٣٧ .

أمير المؤمنين (ع) يتابع الرسول

في الارشاد إلى العلم

عن ابي حمزة الثمالي بسنده إلى امير المؤمنين (ع) انه قال : اعلموا ان كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وان طلب العلم اوجب عليكم من طلب المال فان المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم وقد ضمنه وسيفي لكم ، والعلم مخزون عند اهله وقد امرتم بطلبه فاطلبوه .

وقال (ع) : العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء في وسط البحر يغوصون والعارفون في سفن النجاة يسيرون .

وقال (ع) : اقل الناس قيمة اقلهم علماً .

وقال (ع): كفى بالعلم شرفاً ان يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب اليه

وفي الفقيه في وصية علي (ع) لابنه محمد قال : ومن خير حظ المرء قرين صالح جالس اهل الخير تكن منهم .

وعنه (ع) ايها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وتواضع من غير منقصة وجالس اهل الفقه والرحمة وخالط اهل الذل والمسكنة .

وفي الغرر عنه إنما زهد الناس في طلب العلم كثرة ما يرون من قلة من عمل بما علم .

وعنه (ع) من جالس العلماء وقر .

وقال (ع) : إنما قلب الحدث كالأرض الخالية مها ألقي فيها من كل شيء قبلته .

وقال (ع) : جالس العلماء تسعد .

وقال (ع) : جالس العلماء تزدد علماً ، جالس الحكماء تزدد حلماً ، جالس الفقراء تزدد شكراً .

وقال (ع) : جانبوا الأشرار وجالسوا الأخيار .

وقال (ع) : جالس العلماء يزدد علمك ويحسن أدبك و تُزك نفسك جالس الحكماء يكمل عقلك وتشرف نفسك وينتف عنك جهلك .

وقال (ع) : جالس اهل الورع والحكمة ، واكثر مناقشتهم فانك ان كنت جاهلا علموك وان كنت عالماً ازددت علماً .

وقال (ع) : خير من صحبت من ولهك بالأخرى وزهـــدك في الدنيا وأعانك على طاعة المولى .

وقال (ع) : خير اخوانك من دلك على هدى ، واكسبك تقى ، وصدك عن اتباع الهوى .

وقال (ع) : خير الاختيار صحبة الأخيار .

وقال (ع) : خالط العلماء تعلم .

وقال (ع) : صاحب العقلاء وجالس العلماء واغلب الهوى ترافق الملأ الأعلى

وقال (ع) : جالس الحكماء وصاحب العلماء واعرض عن الدنيا تسكن جنة المأوى .

وقال (ع) : صحبة الولي الحبيب حياة الروح .

وقال (ع) : قارن اهل الخير تكن منهم .

وقال (ع) : عليك بمقاربة ذي العقل والدين .

وقال (ع) : عمارة القلوب في معاشرة ذوي العقول .

وقال (ع) : مجالسة الأبرار توجب الشرف .

وقال (ع) : معاشرة ذوي الفضائل حياة القلوب .

وقال (ع) : لا تصحب إلا عاقلا تقياً ولا تعاشر إلا عالماً زكياً .

وقال (ع) : ليس أدعى لخير وأنجى من شر من صحبة الأخيار .

وفيما خاطب به نفسه (ع) بعد المناجاة ايتها النفس اخلطي ليلك ونهارك بالذاكرين لعلك ان تسكني رياض الخلد مع المتقين وتشبهي بنفوس قد اقرع السهر رقة جفونها ودامت في الخلوات شدة حنينها وأبكى المستمعين عولة انينها وألان قسوة الضمائر ضجة رنينها فانها نفوس قد باعت زينة الدنيا وآثرت الآخرة على الأولى اولئك وفد الكرامة يوم يخسر فيه المبطلون ويحشر إلى ربهم بالحسنى والسرور المتقون .

وقال (ع) : مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ومجالسة الأخيار تلحق الأشرار بالاخيار ومجالسة الفجار للأبرار تلحق الفجار بالابرار فمن اشتبه عليكم امره ولم تعرفوا دينه فانظروا إلى خلطائه فان كانوا اهل دين الله فهو على دين الله وإن لم يكونوا على دين الله فلا حظ له في دين الله .

وفي تفسير الامام عن امير المؤمنين (ع) من كان من شيعتنا عالماً بشريعتنا فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلم جهلهم إلى نور العلم الذي حبوناه به جاء يوم القيامة وعلى رأسه تاج من نور يضيء لاهل جميع العرصات وعليه حلة لا يقوم لأقل سلك منها الدنيا بحذافيرها ثم ينادي مناد يا عباد الله هذا عالم من تلامذة بعض علماء آل محمد ﷺ ألا فمن اخرجه في الدنيا من حيرة جهله فليتشبث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات إلى نزه الجنان فيخرج كل من كان علمه في الدنيا خيراً او فتح عن قلبه من الجهل قفلا او اوضح له عن شبهة .

مأثرة عن سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع)

انه قد حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة (ع) فقالت : إن لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء وقد بعثتني اليك فأجابتها فاطمة (ع) عن ذلك فثنت فأجابت (ع) ثم ثلثت فأجابت (ع) إلى ان عشرت فأجابت ثم خجلت من الكثرة فقالت : لا أشق عليك يا ابنة رسول الله فقالت فاطمة (ع) هاتي وسلي عما بدا لك أرأيت من اكترى يوماً يصعد إلى السطح بحمل ثقيل وكراه مائة الف دينار يثقل عليه ، فقالت : لا . فقالت عليها السلام : اكتريت انا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤاً فأحرى ان لا يثقل علي سمعت ابي يقول : إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم الف الف حلة من نور ، ثم ينادي مناد ربنا عز وجل ايها الكافلون لأيتام آل محمد ﷺ الناعشون لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا فيخلعون على كل واحد من اولئك الأيتام على قدر ما اخذوا عنهم من العلوم حتى ان فيهم (اي في الأيتام) لمن يخلع عليه مائة الف حلة ، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم .

ثم إن الله تعالى يقول : اعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلين للأيتام حتى تتموا لهم خلعهم وتضاعفونها لهم فيتم لهم ما كان لهم من قبل ان يخلعوا على تلامذتهم ويضاعف لهم ، وكذلك من يليهم ممن خلع على من يليهم ، وقالت فاطمة (ع) : يا أمة الله ان سلكة من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس الف الف مرة وما فضل فهو مشوب بالتنغيص والكدر .

العلم مشروط بالعمل

قال الله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين » (١) .

فقد قيل : إن المراد به محمد ﷺ .

وقيل : هو والأئمة الهداة .

وقيل : هم والمؤمنون ، وفيها دلالة على وجوب كون الداعي من المؤمنين العاملين بما يرشد به ليكون أقرب إلى القبول في الدعوة والارشاد والاخراج من الظلمات إلى النور فمن ظلمة الكفر إلى نور الاسلام ومن ظلمة النفاق إلى نور الايمان ومن ظلمة الفسق إلى نور الطاعة ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم ومن ظلمة الرغبة في الدنيا إلى نور الزهد فيها ومن ظلمة الشرك الخفي إلى نور الاخلاص ومن ظلمة الغفلة إلى نور التذكر .

اهتمام معادن العلم (ع) في العلم

عن السيوطي في تدريب الراوي انه كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم فكرهها كثير منهم وأباحها طائفة وفعلوها ومنهم علي عليه السلام وابنه الحسن عليه السلام ، ومن المعلوم انه لولا كتابة العلم لضاع العلم فهي منقبة لعلي وولده (ع) .

وللحسن عليه السلام في مدح العلم والعقل وذم الجهل بيانات يخرج الكتاب عن

(١) سورة السجدة الآية ٣٣ .

مبناه بذكرها لكثرة شعبها وفنونها .

قال عليه السلام في مدح أخ صالح كان له : كان من اعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ـ إلى ان قال ـ كان إذا جالس العلماء على ان يستمع احرص منه على ان يقول . لأنه فهم أن لا قيمة محدودة لكلمات العلماء فهو يحرص على التقاطها منهم بمجالستهم ولا يصرف الوقت في كلام نفسه وأقواله ، وقال عليه السلام على ما في كشف الغمة لا أدب لمن لا عقل له ولا مروة لمن لاهمة له ولاحياء لمن لادين له ورأس معاشرة الناس بالجميل وبالعقل تدرك الداران جميعاً ومن حرم العقل حرمهما جميعاً . لا تأت رجلا إلا ان ترجو نواله او تخاف يده او تستفيد من علمه إلى آخر كلماته عليه السلام .

مآثر الحسين عليه السلام في تعظيم العلم والمعرفة

ماتواتر نقله من انه جاءه اعرابي فقال : يابن رسول الله صلى الله عليه وآله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها فقلت في نفسي اسأل اكرم الناس وما رأيت اكرم من اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال الحسين عليه السلام : يا اخا العرب اسألك عن ثلاث مسائل فان أجبت عن واحدة اعطيتك ثلث المال وان اجبت عن اثنتين اعطيتك ثلثي المال وان اجبت عن الكل اعطيتك الكل فقال الأعرابي : يابن رسول الله مثلك يسأل مثلي وانت من اهل العلم والشرف ، فقال الحسين عليه السلام : بلى سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : المعروف بقدر المعرفة ، فقال الأعرابي سل عما بدا لك فان أجبت وإلا تعلمت منك ولا قوة إلا بالله ، فقال الحسين عليه السلام اي الأعمال أفضل ؟ فقال الأعرابي : الايمان بالله ، فقال الحسين عليه السلام : فما النجاة من الهلكة ؟ فقال الأعرابي : الثقة بالله ، فقال الحسين عليه السلام : فما يزين الرجل ؟

فقال الأعرابي : علم معه حلم ، فقال ﷺ : فإن أخطأه ذلك ، فقال : مال معه مروءة ، فقال : فإن أخطأه ذلك ، فقال : فقر معه صبر ، فقال الحسين ﷺ : فإن أخطأه ذلك ، فقال الأعرابي : فصاعقة تنزل من السماء وتحرقه فإنه أهل لذلك فضحك الحسين ﷺ ورمى اليه بصرة فيها الف دينار وأعطاه خاتمه وفيه فص قيمته مائتا درهم وقال : يا اعرابي : اعط الذهب إلى غرمائك واصرف الخاتم في نفقتك ، فأخذ الأعرابي ذلك وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

مأثرة أخرى له ﷺ في التشجيع على التعلم

روى احمد بن سليمان في عقد اللآل في مناقب الآل ان الحسين ﷺ كان جالساً في مسجد جده رسول الله ﷺ بعد وفاة أخيه الحسن ﷺ وكان عبدالله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد وعتبة بن ابي سفيان في ناحية اخرى فجاء اعرابي على ناقة فعقلها بباب المسجد ودخل فوقف على عتبة بن ابي سفيان فسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الأعرابي : إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً فرفع رأسه إلى غلامه وقال : ادفع اليه مائة درهم فقال الأعرابي : ما أريد إلا الدية تماماً ثم تركه وأتى عبدالله بن الزبير وقال له مثل ما قال لعتبة . فقال عبدالله لغلامه : ادفع اليه مائتي درهم فقال الأعرابي : ما اريد إلا الدية تماماً ثم تركه وأتى الحسين ﷺ فسلم عليه وقال : يابن رسول الله إني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ؟ فقال له : يا اعرابي نحن قوم لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة ، فقال : سل عما تريد ، فقال له الحسين ﷺ : يا اعرابي ما النجاة من الهلكة ؟ قال : التوكل على الله عز وجل قال : وما الهمة ؟ قال : الثقة بالله ، ثم سأله الحسين ﷺ غير ذلك وأجاب الأعرابي

فأمر له الحسين عليه السلام بعشرة آلاف درهم وقال له : هذه لقضاء ديونك وعشرة آلاف درهم اخرى وقال : هذه تلم بها شعثك وتحسن بها حالك وتنفق منها على عيالك فأنشأ الأعرابي يقول :

طربت وما هاج لي معبق ولا لي مقام ولا معشق
ولكن طربت لآل الرسو ل فلذلي الشعر والمنطق
هم الأكرمون هم الأنجبون نجوم السماء بهم تشرق
سبقت الأنام إلى المكرمات فقصر عن سبقك السبق
بكم فتح الله باب الرشاد وباب الفساد بكم مغلق

علي بن الحسين عليهما السلام

في حثه على طلب العلم

قال عليه السلام : لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج ، إن الله أوحى إلى دانيال إن أمقت عبيدي إلي الجاهل المستخف بحق أهل العلم التارك للاقتداء بهم وإن أحب عبيدي إلي التقي الطالب للثواب الجزيل اللازم للعلماء التابع للحكماء القائل عن الحكماء .

وفي حلية الأولياء قال علي بن الحسين عليه السلام : من كتم علماً أحداً او أخذ عليه أجراً رفداً فلا ينفعه ابداً .

وقد أورد له عليه السلام الصدوق في الخصال بسند معتبر والحلبي في تحف العقول رسالة طويلة في الحقوق وعد فيها حق الله تعالى ثم حق النفس وحق اللسان وحق السمع والبصر والرجلين وسائر الأعضاء ، ثم عد حقوق العبادات ثم حقوق الأئمة

إلى ان قال ﷺ : فأما حق سائسك بالعلم فالتعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع اليه والاقبال عليه والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم بأن تفرغ له عقلك و تحضره فهمك وتذكي له قلبك و تجلي له بصرك بترك اللذات ونقص الشهوات وان تعلم انك فيما ألقى اليك رسوله إلى من لقيك من اهل الجهل فلزمك حسن التأدية عنه اليهم ولا تخنه في رسالته والقيام بها عنه إذا تقلدتها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي نسخة اخرى زيادة قوله ﷺ : وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب ولا تحدث في مجلسه احداً ولا تغتاب عنده احداً وأن تدافع عنه إذا ذكر عندك بسوء وان تستر عيوبه وتظهر مناقبه ولا تجالس له عدواً ولا تعادي له ولياً فاذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله جل اسمه لا للناس .

فتراهم عليهم السلام يحافظون على جميع أطراف توفر العلم وتوفر الرغبة في تعلمه وتعليمه .

كما يرشد إلى ذلك ما روي أن عماراً سأل رسول الله ﷺ عن أهوال يوم القيامة فأجابه بما يذهل العقل فقال عمار : يا رسول الله فما النجاة من ذلك ؟ فقال ﷺ : اجثوا على ركبكم بين يدى العلماء تنجوا منها .

ومعنى ذلك أن معلمك يحس منك شـــدة الرغبة في التعلم عندما يرى التزامك بحقوقه فيفرغ لك حينئذ ما وعاه قلبه ويكثر في البيان ممـا حواه من العلم صدره .

باقر العلم عليه السلام في العلم والارشاد

في كتاب المحاسن عن فضيل قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله في كتابه « ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً » .

قال عليه السلام : من حرق او من غرق ، قلت : فمن أخرجها من ضلال إلى هدى فقال عليه السلام : ذاك تأويلها الأعظم .

وفيه عن حمران في الآية نفسها قال عليه السلام : من حرق او غرق او غدر ثم سكت ، فقال : تأويلها الأعظم ان دعاها فاستجابت له .

وفيه ايضاً عن ابي جعفر (ع) من علم باب هدى كان له أجر من عمل به ولا ينتقص اولئك من اجورهم .

وفي الكافي عن ابي جعفر (ع) انه قال : لمجلس أجلسه إلى من أثق به أوثق في نفسي من عمل سنة .

وقال (ع) : الكل شيء آفة وآفة العلم النسيان .

ومن وصيته (ع) لجابر الجعفي الطويلة التي جمعت كل الخير يقول فيها : وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم واستعمل حاضر العلم بخالص العمل وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف وتوق مجازفة الهوى بدلالة العقل وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم الخ

ومن كلماته القصار (ع) قوله : ما شيب شيء بشيء احسن من حلم بعلم كل الكمال التفقه في الدين والصبر على النائبة وتقدير المعيشة .

ومن أقواله (ع) : لا يقبل عمل إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل ومن عرف دلته معرفته على العمل ومن لم يعرف فلا عمل له .

ذهبيات الامام الصادق عليه السلام

في الحث على طلب العلم والمعرفة

قال (ع) : احسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله وانصحوا لأنفسكم وجاهدوا في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله فان لدين الله أركاناً لا تنفع من جهلها شدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته ولا يضر من عرفها فدان بها حسن اقتصاده ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلا بعون من الله .

ومن كلام له (ع) في احتجاجه على المتصوفة فانه بعدما أفحمهم وأبطل جميع حججهم قال (ع) : وردوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عندالله و كونوا في طلب علم الناسخ من القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحل الله فيه مما حرم فانه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ودعوا الجهالة لأهلها فان اهل الجهل كثير وأهل العلم قليل وقد قال الله عز وجل : وفوق كل ذي علم عليم .

ومن حكمياته القصار عليه السلام فيما يخص العلم

ثلاثة من فرط فيهن كان محروما استماحة جواد ومصاحبة عالم واستمالة سلطان

ومنها قوله (ع) : العاقل لا يستخف بأحد وأحق من لا يستخف به ثلاثة العلماء والسلطان والاخوان ، لأنه من استخف بالعلماء أفسد آخرته ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه ومن استخف بالاخوان أفسد مروءته .

ومن حكمه (ع) العلم جنة والصدق عز والجهل ذل والفهم مجد والجود

نجح وحسن الخلق مجلبة المودة والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس والحزم مشكاة الظن والعاقل غفور والجاهل ختور ـ إلى أن قال ـ ومن هجم على أمر بغير علم جدع أنف نفسه .

ومنها قوله (ع) : يابن النعمان من سئل عن علم فقال : لا أدري فقد ناصف العلم والمؤمن يحقد ما دام في مجلسه فاذا قام ذهب عنه الحقد .

ومن حثه لاصحابه على الازدياد من العلم

قوله (ع) : تلاقوا وتحادثوا العلم فان بالحديث تجلى القلوب الرائنة .

وقال (ع) : واطلب مؤاخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض وان أفنيت عمرك في طلبهم .

وقال (ع) : مثل الواعظ والمتعظ كاليقظان والراقد فمن استيقظ من رقدة غفلته ومخالفاته ومعاصيه صلح أن يوقظ غيره من ذلك الرقاد .

في فضل العلماء العاملين

في تفسير الامام قال الصادق (ع) : علماء شيعتنا مرابطون على الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته ويمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا ومن أن يسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب ، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان افضل ممن جاهد الروم والترك والخزر الف الف مرة لأنه يدفع عن أديان محبينا وذلك يدفع عن أبدانهم (يعني من النار) .

في التمييز بين العلماء

ومما ورد في النهي عن التقرب من علماء السوء ، فمن رسول الله ﷺ لا تجلسوا عند كل عالم إلا عالم يدعوكم من الخمس إلى الخمس من الشك إلى اليقين ومن الكبر إلى التواضع ، ومن الرياء إلى الاخلاص ، ومن العداوة إلى النصيحة ومن الرغبة إلى الزهد .

وفي كتاب تنبيه الخواطر لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم والموتى المتولهون بالدنيا .

وفيه من أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له ملأ الله قلبه يقيناً ورضا .

وعن الصادق (ع) من جالس أهل الريب فهو مريب .

وعنه (ع) انظر إلى كل ما لا يعنيك منفعته في دينك فلا تعتدن به ولا ترغبن في صحبته ، فان كل ما سوى الله مضمحل وخيم عاقبته .

وعنه (ع) واقطع ممن ينسيك وصله ذكر الله تعالى ويشغلك إلفه عن طاعة الله فان ذلك من أولياء الشيطان وأعوانه ولا يحملنك رؤيتهم على المداهنة عند الحق فان في ذلك خسراناً عظيما .

وعنه (ع) إياك ومعاشرة الأشرار فانهم كالنار مباشرتها تحرق .

وفي الكافي عن السجاد (ع) انه قال للباقر (ع) : يا بني انظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق ثم عدهم مع مضارهم وهم : الكذاب والفاسق والأحمق وقاطع الرحم والبخيل .

وعن الصادق (ع) قال : أوحى الله تعالى إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي فان اولئك قطاع طريق عبادي المريدين

إلي إن أدنى ما أنا صانع بهم ان انزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم .

وقال (ع) : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا .

وقال أمير المؤمنين (ع) : من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه للناس بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ولهذا قيل : إن العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها ، فاذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرأ غيره .

وقيل ايضاً : من أراد بعلمه وجه الله أقبل الله بوجهه ووجوه العباد اليه ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه .

وقيل : شر العلماء من يجالس الأمراء وخير الأمراء من يجالس العلماء .

وعن رسول الله ﷺ ويل لأمتي من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم .

وقيل : شكت النواويس إلى الله من نتن ريح الكفار فأوحى الله اليها بطون علماء السوء أنتن مما انتم فيه .

وقال أمير المؤمنين (ع) : من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض .

وقالوا : ثمرة العلوم العمل بالمعلوم .

وقالوا : من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره .

وعن الباقر (ع) قال : من طلب العلم ليباهي به العلماء او يماري به السفهاء اويصرف به وجوه الناس اليه فليتبوأ مقعده من النار ان الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها

في وصية الامام الكاظم عليه السلام لهشام

يا هشام إن امير المؤمنين (ع) كان يقول : لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال يجيب إذا سئل وينطق إذا عجز القوم عن الكلام ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله ، فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق .

وفي وصيته له يا هشام كان امير المؤمنين (ع) يوصي أصحابه يقول : اوصيكم بالخشية من الله في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والاكتساب في الفقر والغنى وأن تصلوا من قطعكم وتعفوا عمن ظلمكم وتعطفوا على من حرمكم وليكن نظركم عبراً وصمتكم فكراً وقولكم ذكراً وطبيعتكم السخاء فانه لا يدخل الجنة بخيل ولا يدخل النار سخي .

من أقوال الرضا عليه السلام في العلم

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : العلم خزائن ومفاتيحها السؤال فاسألوا يرحمكم الله فانه يؤجر فيه اربعة ، السائل والمعلم والمستمع والمحب لهم .

ومثله ورد عن ابراهيم الخليل (ع) .

وقال الرضا (ع) : لا يتم عقل امرىء مسلم حتى تكون فيه عشر خصال الخير منه مأمول والشر منه مأمون ـ إلى أن قال ـ ولا يمل من طلب العلم طول دهره

الامام الجواد عليه السلام

روى الجنابذي عنه (ع) عن آبائه (ع) ان ابن آدم أشبه بالمعيار إما راجح بعلم (وقال (ع) مرة اخرى بعقل) او ناقص بجهل .

وعنه (ع) عن آبائه (ع) من وثق بالله أراه السرور ، ومن توكل عليه كفاه الأمور ـ إلى أن قال ـ والدين عز والعلم كنز والصمت نور وغاية الزهد الورع ولا هدم للدين مثل البدع ولا أفسد للرجال من الطمع وبالراعي تصلح الرعية وبالدعاء تصرف البلية ومن ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر . الخ

وقال (ع) : كيف يضيع من الله كافله وكيف ينجو من الله طالبه ومن انقطع إلى غير الله وكله الله اليه ومن عمل على غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح

الامام الهادي عليه السلام

يبين التربة التي ينمو فيها العلم

قال (ع) : الحكمة لا تنجع في الطباع الفاسدة ، خير من الخير فاعله ، وأجمل من الجميل قائله ، وأرجح من العلم حامله ، وشر من الشر جالبه ، وأهول من الهول راكبه . إياك والحسد فانه يبين فيك ولا يعمل في عدوك ، إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور فحرام أن يظن أحد بأحد سوءً حتى يعلم ذلك منه وإذا كان زمان الجور فيه أغلب من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه .

وقال (ع) : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان (يعني به فوات الآخرة) الحسد ماحي الحسنات جالب المقت والعجب صارف عن طلب العلم داع إلى الغمط والجهل ، والبخل أذم الأخلاق والطمع سجية سيئة .

الامام العسكري عليه السلام

قال (ع) : أورع الناس من وقف عند الشبهة ، أعبد الناس من أقام على الفرائض ، أزهد الناس من ترك الحرام . أشد الناس اجتهاداً من ترك الذنوب انكم في آجال منقوصة ، وأيام معدودة ، والموت يأتي بغتة ، من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يزرع شراً يحصد ندامة ، لكل زارع ما زرع ، لايشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض ، حسن الصورة جمال ظاهر وحسن العقل جمال باطن ، إذا نشطت القلوب فأودعوها ، وإذا نفرت فودعوها .

ومعناه ان القلوب إذا كانت في رغبة ونشاط إلى العلم فأكثروا لها منه وإذا ملت وتعبت فاتركوها لتستريح .

لقمان الحكيم

قال : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء .

وقال ايضاً لابنه : يا بني صاحب العلماء وجالسهم وزرهم في بيوتهم لعلك أن تشبههم فتكون منهم .

وقال لابنه : اختر المجالس على عينك فان رأيت قوماً يذكرون الله عزوجل

فاجلس معهم فان تكن عالماً نفعك علمك (وفي نسخة علمه) وإن تكن جاهلا علموك ولعل الله أن يظلهم برحمته فيعمك معهم .

وفي الزبور قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم : حادثوا من الناس الأتقياء فان لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء وإن لم تجدوا عالماً فحادثوا العقلاء فان التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهن في خلقي وأنا أريد إهلاكه .

وسئل اسكندر ما بالك توقر معلمك اكثر من والدك ؟ فقال : لأن المعلم سبب لحياتي الباقية ووالدي سبب لحياتي الفانية .

وقال موسى (ع) في مناجاته إلهي من أحب الناس اليك ؟ قال تعالى : عالم يطلب علماً .

وقال رسول الله ﷺ : من تعلم باباً من العلم ابتغاء وجه الله تعالى ليعلمه الناس أعطاه الله أجر سبعين نبياً . قال الشاعر :

العلم أنفس شيء أنت ذاخره ... من يدرس العلم لم تدرس مفاخره

اقبل على العلم واستقبل مقاصده ... فأول العلم إقبال وآخره

وقالوا : العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » (١) .

المعنى انه أمر من الله تعالى بالاجابة منا عندما ندعى إلى ما فيه حياتنا .

وقد قيل في معنى قوله تعالى : « لما يحييكم » وجوه أرجحها هو القرآن والعلم في الدين ، لأن الجهل موت والعلم حياة والقرآن سبب الحياة بالعلم ، لأنه مصدر كل العلوم ، وفي العلم مع العمل النجاة والعصمة ، وقد قال الشاعر :

الناس موتى وأهل العلم أحياء ... والناس مرضى وهم فيها أطباء

(١) سورة الأنفال الآية ٩ .

والناس أرض وأهل العلم فوقهم سماء نور وما في النور ظلماء
وزمرة العلم روح الخلق كلهم وسائر الناس في التمثيل أعضاء

وقيل أيضاً : إن معنى الدعوة إلى ما يحيي ، أي الدعوة إلى الجنة لما فيها من الحياة الدائمة ونعيم الأبد ، فتلك هي التي تستحق إطلاق الحياة عليها بخلاف حياة الدنيا ، حيث يعقبها الفناء فهي ليست بحياة .

الخلاصة في فضل العلم

انه نور الله يقذفه في قلب من يشاء ، فالعالم إذاً وعاء لنوره تعالى ، وهو خلاصة مخلوقاته ، كما قد ذكر في مقدمة المعالم من أن المعقولات تنقسم إلى موجود ومعدوم وظاهر ان الشرف للموجود ، ثم الموجود ينقسم إلى جماد ونام ولاريب أن النامي أشرف ، ثم النامي ينقسم إلى حساس وغيره ، ولا شك أن الحساس أشرف ثم الحساس ينقسم إلى عاقل وغير عاقل ، ولا ريب أن العاقل أشرف ، ثم العاقل ينقسم إلى عالم وجاهل ، ولا شك أن العالم أشرف ، فالعالم حينئذ أشرف المعقولات ، وإذا استعمل علمه وأطاع ربه يكون في رفيع الدرجات .

لقد تم بعون الله وتوفيقه الجزء الثاني من كتاب (الآيات الساطعة) ويليه الجزء الثالث إن شاء الله تعالى

فهرست الجزء الثاني

من كتاب الآيات الساطعة

الصحيفة	الموضوع
٢	(الفصل الثالث) في الزكاة وعلة وجوبها
٤	الوعيد والتهديد لتاركها
٦	أسرار حكمة بذل المال ومنها مقاومة الصفات الذميمة وتكميل النفس الناطقة
٩	الزكاة على قسمين وفوائد الصدقة
١١	الصدقة تقع في يد الرب تعالى
١٢	إبليس في دخوله على فرعون
١٣	بشارة للمتصدقين ووعيد للتاركين
١٤	الصدقة تتفاوت ثواباً
١٦	الفتنة العمياء منشؤها النساء
١٧	مدح القرآن المتصدقين وذمه للتاركين وفيه تفسير سورة البلد
٢٤	الخلاصة من السورة
٢٥	الثمرات المنتجزة للصدقات
٢٧	السائل لا يرد وفي رده الهلكة والآثار في ذلك
٢٨	الصدقة تثقل على العبادة وزناً
٢٩	كراهة السؤال ورجحان التعفف
٣١	المانع من الصدقة أمر وهمي
٣٣	ان من الشعر لحكمة
٣٥	(الفصل الرابع) في ذكر الله تعالى
٣٦	الذكر ودرجته من الأجر
٣٨	فضل الذكر من القرآن
٤٠	التمييز بين حق الذكر وباطله
٤٢	الذكر يسخر الموجودات
٤٣	انتصار الله تعالى للذاكر في معركة إبليس معه
٤٧	(العقد الثالث) في الصفات وفيه فصول (الفصل الأول) في العدل
٤٨	الآيات الآمرة بالعدل وإيضاحها
٥٠	مقارنة بين آية منها وبين القوانين
٥٣	رأي الامامية في العدل
٥٤	نموذج من عدل امير المؤمنين في صفين
٥٥	تفنيد شبهة الجبر ونسبة الظلم اليه تعالى

الصحيفة	الموضوع
٥٨	اجوبة الرضا والصادق (ع) في ذلك
٦١	نموذج من مغيبات عدله تعالى وقبح الظلم
٦٢	نصائح علي (ع) في الردع عن الظلم
٦٣	الحيطة لتركيز العدالة وتكميل الانسان من آي القرآن وبيان سبب النزول
٦٨	شدة النكير على الغيبة وإفسادها في النظام
٧٥	الخلاصة من آيات الحجرات
٧٦	نتيجة الخلاصة وتركيز الخلافة الحقة عليها
٨١	(الفصل الثاني) في العفو وفضيلته
٨٦	فضل المعروف والأخبار في ثمراته
٨٧	الحلم وزير العفو ومعينه
٨٨	كلماتهم (ع) في مكاسب الحلم
٨٩	نموذج من عفو أمير المؤمنين (ع) في واقعة البصرة وصفين
٩١	(الفصل الثالث) آي القرآن في فضيلة الاحسان وتوابعه من الحلم وصنع المعروف وحسن الخلق وقضاء حاجة المؤمن
٩٢	الآثار في فضيلة الاحسان
٩٣	أنواع الاحسان وعجز الشيطان

الصحيفة	الموضوع
٩٤	تعاليم قيمة من الرسول صلى الله عليه وآله على لسان الرضا (ع)
٩٥	الثمار المتنوعة من الاحسان لخصوص المؤمنين
٩٦	التعاون وفلسفة الأمر به وتفسير حدوده في الآية
٩٨	قصة أبي الدحداح ونزول (والليل إذا يغشى) في حقه حصيلة الاحسان
١٠١	تأييد الموضوع بآية القرض وتفسيرها
١٠٣	المكاسب المتصاعدة في الاحسان للأرحام وتطبيق « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » عليه والأقوال الأخر في الآية
١٠٥	الاحسان إلى اليتيم
١٠٧	آثار الاحسان تشاهد بالعيان
١٠٩	الشيطان يصد عن بر الاخوان
١١٣	طريفة من محاسن الأخلاق والتعليق عليها ومؤاخاة النبي صلى الله عليه وآله بين المسلمين ومؤاخاته صلى الله عليه وآله لعلي (ع)
١١٦	في فضل الحب في الله وكرامة المؤمن عليه تعالى وتفسير قوله: « والمؤمنون

الصحيفة	الموضوع
	والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »
١١٨	فضيلة الاصلاح بين المؤمنين وتطبيق الآيات والآثار في ذلك
١٢٠	عظمة المؤمن من القرآن وتفسير قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ... الخ » مع التعليق
١٢٣	بشارة للفقراء
١٢٤	المؤمن بين الناس بوصف علي بن الحسين (ع)
١٢٥	المؤمن أخو المؤمن وحرمته عند الله تعالى
١٢٦	تسلية القرآن لفقراء المؤمنين
١٢٨	المؤمن مرآة المؤمن
١٢٩	المؤمن ولي المؤمن
١٣٣	طوبى للمؤمن وما هي طوبى
١٣٥	دفاع الله تعالى عن المؤمنين وأمره بتخريب المسجد الذي بني ضراراً وتفصيل اسباب النزول ومقارنة بلعم بمؤمن آل فرعون ثم خلاصة الآيات
١٤٤	وصف القرآن للمؤمن وتحديده وفضيلة الخوف منه تعالى والتوكل عليه
١٤٨	في بيان جزاء المؤمنين

الصحيفة	الموضوع
١٥٠	الفصل الرابع في السخاء وبيان فضيلته ورذيلة ضده البخل وتسبيبه لقوم لوط الرغبة في اللواط .
١٥٤	السخاء يلحق صاحبه بالانبياء .
١٥٥	نوادر في السخاء والوفاء .
١٥٩	اسماعيل استحق المدح من الجليل بالصدق والوفاء .
١٦٠	الفصل الخامس في الصبر - فضل الصبر من القرآن .
١٦١	دفاع الصبر في وحشة القبر وفيه تفسير قول الصادق (ع) انا صبر وشيعتنا أصبر منا .
١٦٢	اسماء الصبر تختلف باختلاف موارده
١٦٣	مقامات الحاجة للتسلح بالصبر .
١٦٤	أجر الصابر عند فقد الولد .
١٦٩	صبر النساء وفيه شكر النبي ﷺ ربه لان جعل في امته كصابرة بني اسرائيل .
١٧٠	قصة ابي قدامة الشامي والمرأة الصابرة وولدها .
١٧١	الكلمات الحكمية للصابرة لفقدها ولدها

الصحيفة	الموضوع
١٧٢	قصة الاوزاعي مع الصابر في عريش مصر .
١٧٤	نساء صابرات وبحكم الله راضيات.
١٧٥	بشارات النبي ﷺ للصابرين .
١٧٦	خلادة تبلغ درجة الرضا
١٧٧	المجتازون مرحلة الرضا وبيان اقسام الرضا .
١٧٩	اجر الصابر والمصبر
١٨٠	اقسام الابتلاء وفيه قصة فاطمة الزهراء (ع) والخاتم .
١٨٢	احاديث متنوعة في اجر الصبر على البلاء
١٨٤	قصص توضح حكمة الله تعالى في ابتلاء عباده .
١٨٦	من عبر الدنيا واعاجيبها عند الخضر ؑ
١٨٨	السبب لنزول معاوية بن يزيد عن الخلافة .
١٨٩	من اقسام الابتلاء الاستدراج
١٩٢	رؤية النبي ﷺ الخطباء ليلة الاسراء
١٩٣	ترك النهي عن المنكر بسبب نزول البلاء وتفسير آية ولتكن منكم امة.
١٩٥	نتائج الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سلباً وايجاباً .

الصحيفة	الموضوع
١٩٦	تكملة لاستقامة النظام وعاقبة الاختلاف
١٩٨	معنى الاستدراج وانه عقوبة .
٢٠٠	نادرة في الاستدراج بالنعم .
٢٠١	فلسفة اختباره تعالى للتقي والشقي .
٢٠٢	نماذج من الصبر واجره
٢٠٣	الصبر دعامة للايمان .
٢٠٤	مدحة الله تعالى للصابرين .
٢٠٦	اسعاف الصابرين وخلاصة الآية .
٢٠٨	الصبر من الاعوان ونزول الآية في ذلك
٢١٤	الاحاديث في ثمرات كلمة الاسترجاع
٢١٦	(القسم الثاني من العقد الثالث) في الصفات الذميمة وفيه فصول .
	(الفصل الاول)
	في البخل والحسد والنميمة
٢١٧	مفاسد الحسد
٢١٨	الحسد يضر صاحبه
٢١٩	الذم الطبيعي والحسي للحسد والحاسد
٢٢٠	التحذير عن الحسد لعظيم مفاسده .
٢٢١	آثار الحسد .
٢٢٢	الحسد مرض عضال وتخوف النبي

الصحيفة	الموضوع
	ﷺ على امته منه .
٢٢٤	آخر علاج لقلع مكروب الحسد .
٢٢٥	نادرة في قضاء الحسد على صاحبه.
	(الفصل الثاني في النفاق)
٢٢٦	تعريف النفاق والمنافق وكلمتنا في ذلك.
٢٢٨	التحذير من الله تعالى لنبيه عن معسول كلام المنافقين .
٢٣٠	كشفه لنبيه عن مؤامراتهم
٢٣١	يختم سبحانه الآية بوعظ المؤمنين.
٢٣٢	نصيحة امير المؤمنين عليه السلام على مجرى الآية .
٢٣٤	السبب لنزول آى المنافقين .
٢٣٧	فضل السورة وثمراتها الفياضة
٢٣٩	تعميم المفهوم لعموم الملاك وتطبيق آية (ومنهم من يعجبك قوله الخ) على جميع الازمان والاعيان .
٢٤١	مقارنة بين ضدين .
٢٤٢	انكارات الله تعالى على عباده لطف منه وتحقيقاتنا في ذلك .
٢٤٤	وهنا معركة خفية للشيطان .
٢٤٥	سلاح بمنتهى الخفاء للشيطان

الصحيفة	الموضوع
	على الانسان .
٢٤٦	الاحاديث القدسية في التحذير عن النفاق
٢٤٧	النفاق وقسوة القلب متلازمان .
٢٤٨	اسباب قساوة القلب ومنها طول الامل
٢٥١	السبب الوحيد لطول الامل .
٢٥٤	العلاج لازالة القسوة عن القلب .
٢٥٥	قيمة الدنيا مع الآخرة بايضاح وشواهد
٢٥٨	طريقة لاهل المعرفة والتفكر في الدنيا
٢٥٩	مقارنة بين التفكر والتنفس .
٢٦٠	الصادق عليه السلام وتلميذه في تحليل الدنيا
٢٦٢	تحذير القرآن عن الدنيا وايضاح معنى (الباقيات الصالحات) .
٢٦٤	آية في مقارنة الدنيا بالآخرة .
٢٦٧	المنافقون في صفاتهم والوانهم من القرآن
٢٧٠	لون من النفاق يزرعه البخل والطمع
٢٧٢	المنافق ينفث سمه عند الفرصة .
٢٧٣	آيات يتعلقن بالعرش اشفاقاً من الانزال مع ذكر السبب الرائع للنزول
٢٧٨	عاقبة المنافقين .
٢٧٩	(الفصل الثالث) في الكبر والتكبر والتمييز بينهما .

الصحيفة	الموضوع
٢٨٠	القرآن يقرر المصير للمتكبر وعدم بلوغه لمقاصده.
٢٨١	حرمان المتكبر من الالطاف
٢٨٢	الآثار في ذم المتكبر
٢٨٥	العلاج للكبر .
٢٨٦	آخر وصفة واقية عن مرض الكبر .
٢٨٧	المطبق هو امير المؤمنين عليه السلام .
٢٨٨	الصادق عليه السلام وحكمته في ذلك .
	(الفصل الرابع)
٢٩٠	في الكذب ومقته والآيات في ذلك وبيان سبب النزول .
٢٩٢	لون عظيم من التهديد وشكل جسيم من العقاب للمكذبين .
٢٩٣	ما ورد في ذم الكذب على السنة اطباء النفوس وكلمتنا في حقهم (ع)
٢٩٥	ذم الكذب بمدح ضده الصدق .
٢٩٦	اللسان اضر الجوارح وانفعها .
٢٩٧	اربعة من اذكياء الملوك يتفقون على كلمة
٢٩٨	حكم أهل البيت (ع) في اللسان .
٢٩٩	من غرائب موضوع اللسان .
	(العقد الرابع)

الصحيفة	الموضوع
٣٠١	الانسان في ادواره وبيان عظمة الخالق في تدبيره فيها وفيه فصول
	(الفصل الاول) في بطن امه وتنقله في مراحله الخمسة وتطبيق الآية على ذلك
٣٠٣	بيان آخر منه تعالى لتكوين الانسان
٣٠٤	الآثار في بديع صنع العزيز القهار ودفع الشبهة عنها .
٣٠٧	امير المؤمنين في صفة خلق الجنين وفيها التشبيه بين غذائه وغذاء اهل الجنة
٣٠٨	(الفصل الثاني) في ولادته وطفولته ورضاعه .
٣١١	شباهة الولد لوالديه وحكم امير المؤمنين عليه السلام في المرأة المحكوم برجمها في ذلك
٣١٢	عناية الباري برضاعه .
٣١٤	(الفصل الثالث) في بلوغه وشبابه وكلمتنا في ذلك .
٣١٥	الواجب في التعلم والتعليم والادلة على ذلك
٣١٧	خلاصة الفصل الثالث بكلمتنا الجذرية
٣١٩	(الفصل الرابع) في كهولته وشيبه وهرمه
٣٢٠	الموت حكمة في كل احواله
٣٢١	الشيب انذار الحليم

الصحيفة	الموضوع
٣٢٢	الشيب رحمة للحكيم النابه
٣٢٣	لبيب نفعه شيبه
٣٢٤	لطف من الله عام لكل الانام
٣٢٥	الدعوة من الله تعالى لعباده الى التوبة
٣٢٨	المسارعة الى التوبة كي لا تفوت ونصائح لقمان
٣٣١	كلمتنا في ذلك
٣٣٢	التصريحات في غفران الله تعالى للسيئات
٣٣٣	مأثرة غريبة في قبول الله تعالى توبة التائب
٣٣٤	رفع الاستبعاد عن قبول توبة العباد
٣٣٦	تصريح منه تعالى بالقبول وتوضيح منا لنيل المأمول
٣٣٧	قصة غريبة في ازالة الذنب بالتوبة من القرآن مع ذكر سبب النزول
٣٤٢	الفلسفة في وجوب المبادرة الى التوبة
٣٤٥	تهديد المسوف للتوبة بمباغتة الاجل
٣٤٨	ارشاد الى التوبة بآية كونية
٣٥٠	خلاصة الآية
٣٥٢	انارة من صاحب الامارة
٣٥٣	ختام العقد الرابع وفصوله

الصحيفة	الموضوع
٣٥٥	اجوبة الصادق عليه السلام للطبيب الهندي عما اودع الله تعالى من الحكم في تشكيل الانسان
٣٥٧	ايضاح مفصل لقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فيه خصوصيات معامل باطن الانسان
٣٦٢	(العقد الخامس)
	الانسان بقسميه عالم وجاهل
٣٦٢	مقارنة بين العالم والسلطان
٣٦٢	عظمة العالم عند منابع العلم
٣٦٥	العلم الالهي وعلم الأخلاق والفقه
٣٦٦	باب مدينة العلم يحدد العلم
٣٦٧	فضل العلم من القرآن
٣٧٠	فضل العلم من الأخبار
٣٧٢	الفلسفة في عظيم فضل العلم
٣٧٤	امير المؤمنين (ع) يتابع الرسول صلى الله عليه وآله في الارشاد الى العلم
٣٧٧	مأثرة عن سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع)
٣٧٨	العلم مشروط بالعمل
٣٧٨	اهتمام معادن العلم (ع) في العلم

الصحيفة	الموضوع
٣٧٩	مآثر الحسين في تعظيم العلم والمعرفة
٣٨٠	مأثرة أخرى له (ع) في التشجيع على التعلم
٣٨١	علي بن الحسين (ع) في حثه على طلب العلم
٣٨٣	باقر العلم (ع) في العلم والارشاد
٣٨٤	ذهبيات الامام الصادق عليه السلام في الحث على طلب العلم والمعرفة
٣٨٥	في فضل العلم والعاملين
٣٨٦	في التمييز بين العلماء
٣٨٨	في وصية الامام الكاظم (ع) لهشام
٣٨٨	من أقوال الرضا (ع) في العلم
٣٨٩	الامام الجواد (ع)
٣٨٩	الامام الهادي (ع) يبين التربة التي ينمو فيها العلم
٣٩٠	الامام العسكري (ع)
٣٩٠	لقمان الحكيم
٣٩٢	الخلاصة في فضل العلم

Library of

Dei Sub Numine Viget

Princeton University.

Princeton University Library
32101 072238254